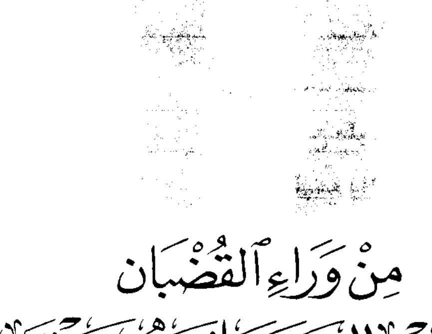
مِنْ وَرَاءِ ٱلقُضْبَان

في سِجْنِ المِزَّة وَقَلْعَةِ دِمَشق

مُسْتَخْرَج مِنَ ٱلمُذَكَّرَات



بقلم
مُحَمَّد عِزَّة دَرْوَزَة
١٣٠٥ - ١٤٠٤ هـ / ١٨٨٧ - ١٩٨٤م



مِنْ وَرَاءِ القُضْبَان

في سجن المزة وقلعة دمشق

العنـــوان : مــن وراء القضبــان
في سجن المزة وقلعة دمشق
المؤلـــف : محمد عزة دروزة
المحقـــق : محيي الدين طيلوني
دار النشــر : دار البينة
عدد الصفحات : ٣٠٤ صفحة
قياس الصفحة : ١٧×٢٤

الطبعة الأولى
١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م



للطباعة والنشر
دمشق - ص.ب ٣٥٠٢٣
هاتف: ٢٢٥٤٤٩٦ - فاكس: ٢٢٥٧٣٤٢
www.daralbayenah.com

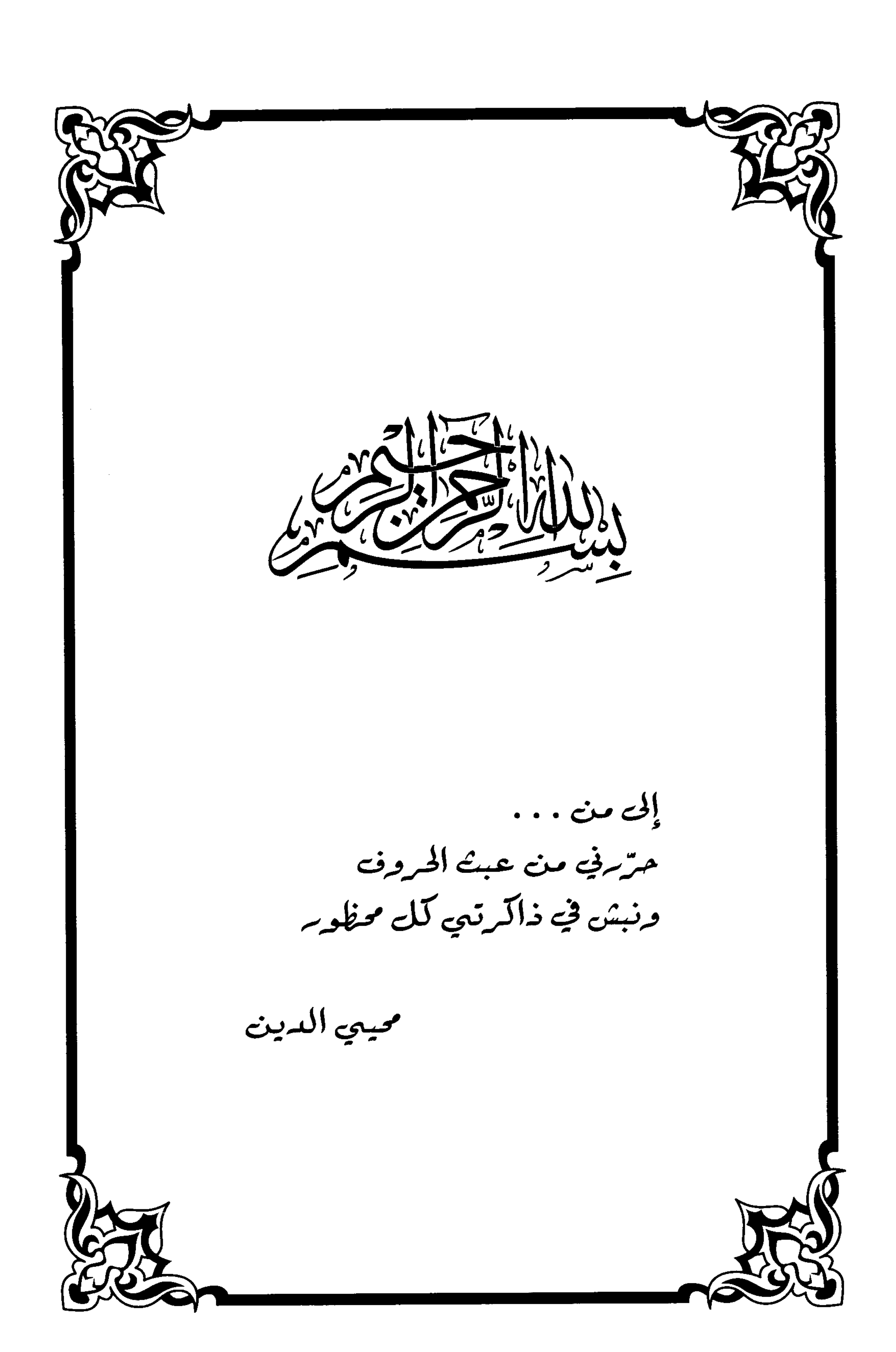
مِنْ وَرَاءِ ٱلْقُضْبَان

فِي سِجْنِ المَزَّةِ وَقَلْعَةِ دِمَشق

مُسْتَخْرَج مِنَ ٱلْمُذَكَّرَات

بِقَلَم
مُحَمَّد عِزَّة دَرْوَزَة
١٣٠٥ - ١٤٠٤ هـ / ١٨٨٧ - ١٩٨٤م

اعْتَنَىٰ بِهِ
مُحْيِي الدِّين طِيلُونِي

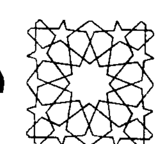


إلى من . . .

حرّرني من عبث الحروف

ونبش في ذاكرتي كل محظور

محيي الدين



فهرس الموضوعات

- تمهيد ١١
  - توقفي عن التدوين في سوريا بعد ٨ شباط ١٩٣٩م ١١
  - الاختلاف في أسلوب التدوين بعد مسودة سوريا ١٢
- **بداية الدفتر الأول** ١٣
  - تفتيش بيتي واعتقالي ١٣
  - [اعتقالي في ٣ حزيران ١٩٣٩م] ١٥
  - إصبع الإنكليز في اعتقالي ١٥
  - الحاج نديم أبو طه والجواسيس ١٦
  - ضرب المعتقلين الأولين الشديد ١٨
  - التحقيق معي في صدد الرسالة وعلاقتي بمحمود والحاج نديم ١٩
  - توقيفي رسميًّا مع أخي [محمد علي] ثم إطلاق سراحه وبقائي وحدي ٢٠
  - عدم الوهن للسجن وخوفي على شلل الحركة فقط ٢١
  - وصيتي له في صدد العمل ٢٢
  - حفظ القرآن وراحة البال ٢٢
  - تفلسف في حياة السجن للتكيف وأثره ٢٣
  - زيارة أم الحكم وتطميناتها ٢٤
  - شهر قضيته وحدي في الغرفة ووصف الغرفة ٢٤
  - شيء عن سجن المزة والحياة فيه ٢٦
  - معاملتي الحسنة في السجن استثناء ٣١
  - إحضار عرفان الجلاد ونجيب الريس وبعض رفاقهم إلى سجن المزة ٣١
  - قرار محاكمتهم عسكريًّا ٣٤
  - تسليتنا مع نجيب وعرفان ٣٥
  - نشوء صداقة حميمة بيني وبين عرفان، وأحاديث متنوعة حول ذلك ٣٦

استمرار الصداقة طويلًا بعد السجن إلى عهد الانفصال السوري المصري ٣٩
مثولي أمام المستنطِق العسكري، وعدم قبول محامين وطنيين ٤٠
كلام فهمي أبي السعود عني كحجة ضدي ٤١
نشوب الحرب العالمية الثانية وتوقعاتنا بالنسبة لمصيرنا ٤٢
محاكمة نبيه العظمة ورفاقه والحكم عليهم ٤٢
التحقيق مع نبيه في صدد أموال الإعانات ٤٣
عدم التحقيق معي في ذلك ٤٣
إزعاج أخي بالملاحقة والنفي إلى تدمر ٤٤
اعتقال الشيخ محمد خير دياب أمين لجنة الدفاع ٤٥
بعض رفاق أخي في تدمر ٤٦
فُتور حركة الثورة بعد اعتقالي وتشدُّد الإفرنسيين ٤٦
حول سفر المفتي من لبنان إلى العراق بسبب تجهُّم الموقف ٤٧
تشديد الرقابة على المفتي ٤٨
تمكُّن المفتي من الإفلات بنفسه وترك أسرته للتعمية ٤٨
رسالة المفتي للمندوب السامي ٤٩
صار احتمال شدتهم نحوي هو الأقوى ٤٩
حول طبع كتابي «دروس التاريخ العربي» في بغداد ٥٠
- **الدفتر الثاني** ٥٣
أحاديث أخبار الحرب في سجن المزة ٥٣
المحاكمة أمام المحكمة العسكرية ٥٤
دفاع المحامي الإفرنسي الحار عني وعدم جدواه ٥٦
توقُّعي الحكم ومقابلته برباطة جأش ٥٧
أخي كان في تدمر أثناء محاكمتي ٥٨
الاعتراض على الحكم والرغبة في البقاء في المزة وعدم جدوى ذلك ... ٥٨
ما استفدتُه من حفظ القرآن، و[ما] كتبتُه من مواضيع أخرى في المزة ... ٥٩
إعادة أخي [محمد علي] من تدمر ٦٠
إرسالنا إلى سجن القلعة ٦٠

وصف العنبر ٦١
زيارة أخي الأولى لي وحالته المثيرة ٦١
نقل فهمي [أبو السعود] إلى عنبر داخلي وسببه ٦٢
موافقة الشيخ يوسف الجباوي على القيام بمهماتي ٦٣
تسجيلات عن أحوال السجن المتنوعة ٦٤
شيء عن القلعة ويخصص قسم منها للسجن ٦٤
حياتي الخاصة في سجن القلعة ٧٧
اشتداد ثقل سمعي في [سجن] المزة ٩٠
صور متنوعة عن المسجونين وعن الذين عرفتهم في عنبري ٩١
أنشودة الخلاص والعفو عند المساجين ٩٢
شيء عن الرياضة الروحية ٩٥
استطراد إلى ذكر نور الدين الجاوي المنوِّم وقارئ الأفكار ٩٦
أبو رشاد الشركسي وقضية سعدي الكيلاني في الهند العجيبة ٩٦
السجين القبضاي الحلبي حسين الخربوطلي وقضية سجنه وتبجحاته ... ١٠٠
تعرفنا على الحاج محمد القطب وشيء عنه ١٠١
تعرفنا على أبي بكري حسن خيتو ١٠٣
تعرفنا على عبد الحميد عربي كاتبي ١٠٤
تعليقاتنا على مجرى الحرب وعواطف الناس مع الألمان ١٠٤
تعرفنا على موفق الطباع ١٠٤
محاكمة قضية اغتيال بهيج الخطيب وإشراك نبيه العظمة وآخرين فيها ... ١٠٥
اعتقال الفلسطينيين بعد إعلان الحرب وبعض المعتقلين وما جرى معهم ١٠٦
فرار كامل الحطاب ١٠٨
خطبة هتلر منذرًا بشرب الشاي في فرسايل والويسكي في لندن ١٠٨
شعور الشماتة بفرنسا ١٠٨
المساعي المتنوعة من لدن مصر والعراق والسعودية في صدد إطلاق سراحِي ١١٠
اعتقالات جديدة للإرهاب مثل إحسان الجابري وعادل أرسلان ١١٢
قضية مقتل [عبد الرحمن] الشهبندر ١١٤

شيء عن العنبر السياسي في السجن ١٣٤
حول المساعي المبذولة المتنوعة لأجل إطلاق سراحي ١٣٧
إطلاق سراحي وخروجي من السجن ١٣٩
الآخرون الذين أُطْلِقَ سراحُهم ١٤٠
سخط فهمي أبو سعود لإطلاقي دونه ١٤١
حفاوة الناس بالمُسَرَّحين ١٤١
تهنئة لي من المفتي ودعوة للانضمام إليه في العراق ١٤٢
خلافات بين المجاهدين وبخاصة أبي إبراهيم الكبير وأبي علي ١٤٢
أخبار عن اتصالات المفتي وجهده ١٤٣
الخلاف بين المفتي وموسى العلمي وأسبابه حسب أقوال الطرفين ١٤٤
أخبار عن تفاهم بين رشيد عالي الكيلاني والمفتي ومساعيهما ١٤٥
اتصال نيوكمب بجمال وموسى وصداه وأثره في الخلاف مع المفتي ... ١٤٦

الملحق الأول

تراجم بعض الأعلام الواردة في الكتاب بقلم المؤلف

١ ـ إبراهيم هنانو ١٤٩
٢ ـ أبو الهدى اليافي ١٥١
٣ ـ إحسان الجابري ١٥٢
٤ ـ إسحق درويش ١٥٣
٥ ـ أكرم عمر زعيتر ١٥٥
٦ ـ أمين الحسيني ١٦٠
٧ ـ بشير القضماني ١٧٩
٨ ـ جمال الحسيني ١٨٠
٩ ـ جميل مردم بك ١٨٥
١٠ ـ حسن أبو السعود ١٨٨
١١ ـ حسن خيتو «أبو بكري» ١٨٩
١٢ ـ حسن دركل ١٩٠

١٣ ـ سعد الله الجابري ١٩١
١٤ ـ سعيد باشا المحمد عبد الهادي ١٩٣
١٥ ـ سعيد حيدر ١٩٤
١٦ ـ سيف الدين المأمون ١٩٥
١٧ ـ شفيق سليمان ١٩٨
١٨ ـ شكري القوتلي ١٩٩
١٩ ـ طه الهاشمي ٢٠٦
٢٠ ـ عادل أرسلان ٢٠٨
٢١ ـ عادل العظمة ٢١٠
٢٢ ـ عارف نكد ٢١٣
٢٣ ـ عبد الحميد عربي كاتبي ٢١٤
٢٤ ـ عبد الرحمن الشهبندر ٢١٦
٢٥ ـ عبد العزيز آل سعود ٢٢٠
٢٦ ـ عز الدين سعيد الشوا ٢٢١
٢٧ ـ عفيف الصلح ٢٢٢
٢٨ ـ عوني عبد الهادي ٢٢٣
٢٩ ـ فارس الخوري ٢٢٩
٣٠ ـ فخري البارودي ٢٣١
٣١ ـ فيصل بن الحسين ٢٣٤
٣٢ ـ كامل الحطاب ٢٣٨
٣٣ ـ كامل القصاب ٢٣٩
٣٤ ـ محمد الأشمر ٢٤٢
٣٥ ـ محمد الحجازي ٢٤٦
٣٦ ـ محمد علي دروزة ٢٤٧
٣٧ ـ محمود البيروتي ٢٥٣
٣٨ ـ مصطفى الشهابي ٢٥٤

٣٩ ـ منير الريس ٢٥٦

٤٠ ـ مهدي مرتضى ٢٥٧

٤١ ـ موسى كاظم الحسيني ٢٥٩

٤٢ ـ موفق الطباع ٢٦٢

٤٣ ـ ناجي شوكة ٢٦٤

٤٤ ـ نبيه العظمة ٢٦٥

٤٥ ـ نجيب الأرمنازي ٢٧٠

٤٦ ـ نوري السعيد ٢٧١

٤٧ ـ هاشم الأتاسي ٢٧٧

٤٨ ـ ياسين الهاشمي ٢٧٩

٤٩ ـ يوسف أبي درة ٢٨٣

الملحق الثاني

تعريف بالمؤلف وثبت بمؤلفاته

تعريف بالمؤلف محمد عزة دروزة ٢٨٧

ثبت بمؤلفات محمد عزة دروزة ٢٩٠

أولاً: الكتب الإسلامية ٢٩٠

ثانيًا: الكتب الفلسطينية ٢٩٣

ثالثًا: الكتب التاريخية ٢٩٤

رابعًا: الكتب القومية ٢٩٦

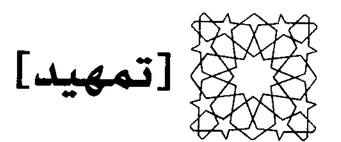
خامسًا: مواضيع مختلفة ٢٩٧

سادسًا: غير المطبوعة ٢٩٨

الملحق الثالث

صور تذكارية ٣٠٣





[تمهيد]

توقفي عن التدوين في سوريا بعد ٨ شباط ١٩٣٩م[1] واستئنافي للتدوين في تركيا

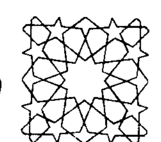
تلاحقت الأحداث عليّ فتوقفتُ عن تدوين اليوميات نحو سنتين ونيفًا إلى أن لجأت إلى تركيا في حزيران [من عام] ١٩٤١م، وكانت اليومية الأخيرة في ١٢/ ٢/ ١٩٣٩م، فاستأنفت التدوين وكتبت ثمانية عشر دفترًا، وقد وجدتُ في الدفاتر الثلاثة الأولى منها تدوينات لكثير من أحداث المدة التي توقفت عن التدوين فيها في سوريا. ولقد كتبت أثناء إقامتي في تركيا مسودات أجزاء كتابي «حول الحركة العربية الحديثة» وفي الجزء الثالث منه شيء كثير من أحداث تلك المدة، منها

(١) بعد قليل من هذا التاريخ جرى اعتقالي وقضيتُ في سجن المزة والقلعة ستة عشر شهرًا، ثم أُفرج عني وبقيتُ خمسة أشهر حرًّا ولكن في حالة اضطراب، ولا سيما أن الإنكليز غزوا سوريا مع الفرنسيين الأحرار، واضطرنا ذلك لِأَنْ نخرج من سوريا ونلجأ إلى تركيا، لأن الإنكليز في ذلك الوقت كانوا يعتقلون أمثالنا وينفونهم إلى أفريقيا. فكانت هذه المدة هي المدة التي توقفنا بها عن التدوين وأسبابه، وقد بقيت الأحداث التي جرت في هذه المدة مالئة ذهننا وذاكرتنا، فبادَرْنا إلى تدوينها حالما استقر بنا المُقام في تركيا على ما سوف نشرحه.

ما ذُكر في الدفاتر ومنها ما لم يُذكر، وما سوف يأتي هو ما دوّنتُه في الدفاتر الثلاثة، وفي مسودة الجزء الثالث من «حول الحركة».

الاختلاف في أسلوب التدوين بعد مسودة سوريا

كنا ندون اليوميات السابقة وأحداثها وتعليقاتها أيام حدوثها ومن مصادر صحفية ووسائل راهنة وشخصيات ولقاءات، في حين أنّ ما دوَّنّاه في الدفاتر الثلاثة وفي مسودة الجزء الثالث هو ما اختزنَتْه الذاكرة، فلا بد من أن يكون فيما دوَّنّاه ثغرات نتيجة لذلك، مع القول أن فيه حقائق كثيرة لأنها مما عشناه شخصيًّا وامتلأت به أذهانُنا وأفكارُنا.



بداية الدفتر الأول

كُتب في الرأس هذه الجملة:

«كُتب ما يلي من الذاكرة في الثامن من حزيران ١٩٤١م وما بعدها».

وأُرَجِّحُ بقوة أن كلمة «حزيران» غلط، وأن الصحيح هو «تموز» (المقابل ربيع الأول ١٣٥٨هـ)، لأني كتبت على الغلاف أنه كُتب في تركيا وأنا ما أزال في سوريا في ٨ حزيران، ولم أدخل تركيا إلا في أواخر حزيران على ما سوف يأتي شرحه، وحالما استقررتُ عدتُّ إلى التدوين من الذاكرة قبل أن أنسى.

والنبذة الأولى تعود إلى شهر آذار/ مارس من عام **١٩٣٩**م، وأنا توقفت عن كتابة اليوميات في أواسط شهر شباط من عام **١٩٣٩**م، وهكذا أكون عدتُّ فوصلت بين بدء كتابتي من جديد وبين توقفي السابق.

تفتيش بيتي واعتقالي

في صباح باكر جاء إلى بيتي بعض أفراد الشرطة والتحري بحجة تحري بيتي لأنهم علموا أن فيه سلاحًا، وقد فتّشوه فوجدوا في غرفة نومي مشط رصاص، لا أدري مَنْ تَرَكَهُ، ووجدوا مع مرافقي مسدسًا، فطلبوا مني ومن مرافقي أن نصحبهم في سيارتهم إلى دائرة التحري في الشرطة. ووجدتُ هذه الدائرة مكتظّة بشباب مُعْتَقَلِين بتهمة إلقاء المفرقعات. وكان مُفَوَّض الشرطة ـ وهو سوري من بيت السيوفي ـ

يلقي عليهم المواعظ الوطنية من جهة ويقرعهم من جهة ثانية، وبعد أن فرغ منهم أمر كاتبًا بأخذ إفادتي وإفادة المرافق بعد موعظة وطنية، وكان الجو الوطني ما يزال هو السائد، فلم يستعملوا معنا شدّة وأخذوا إفادتنا على السجيّة، ثم أرسلونا إلى دائرة الدرك الإفرنسي موقوفين. وحضر بعد قليل المحامي سليمان الحسيني، وهو شاب مقدسي من آل الحسيني، مقيم في دمشق منذ زمن، كان يعاوننا في مسائل الثورة وقضايا الفلسطينيين في دوائر الحكومة والمحاكم. وقابَلَني وعلمتُ منه أن خبر اعتقالي وصل إلى **هاشم بك [الأتاسي]*** فاهتمّ للأمر وأمر **نجيب الأرمنازي*** رئيس ديوانه بمراجعة السلطات الإفرنسية. ونتج عن ذلك الاكتفاء بكفالة شخصية من سليمان بالنسبة لي وإطلاق سراحي، وعرفنا أن الجنرال في بيروت منع محاكمتي مع الاكتفاء بمحاكمة مُرَافِقي والحكم عليه بالسجن شهرًا بسبب المسدس، وقد اعترَف بأن المسدس مسدَّسَه وأنه يحمله بدون عِلْمِي، وأنّ مشط الرصاص سقط منه في غرفة نومي حينما جاء يدعوني إلى مقابلة بعض الزوار.

ولقد بلغني أن القنصل الإنكليزي زار قبل تفتيش بيتي المندوبَ الإفرنسي، وأوحى لنا هذا أن تفتيش بيتي كان بطلب منه. ورَجَّحْنَا مِنْ تَرْكِ الإفرنسيين لي هذه المرة أنهم لم يقرّروا بعدُ اعتقالي، وأن عَمَلَهُم هذا كان بمثابة «هزة رسن» أو إنذار، ولا سيما وقد أخذت حالة أوروبا تتوتر، وأخذ التضامنُ يقوى بين فرنسا وبريطانيا.

وقد اقترح عليّ بعض الإخوان أن أتوارى عن الأعين، واقترح

أخي محمد علي* بإلحاح أن يستأجر لي بيتًا في الزبداني وأن أُوكِل في أمور الثورة والثوار إخوانًا آخرين غير بارزين، لأنهم توقعوا لي كيدًا إفرنسيًّا ـ إنكليزيًّا آخر. ولكن كلما حسبتُ ما هو في عنقي من واجبات وما اضطلعت به من مهمات وما اعتدت أن أباشره بنفسي، وكلما حسبت ما سوف يدخل على ذلك من خلل أو وهن بتوكيل غيري به أرى أني أكون فارًّا من الميدان إبّان المعركة، وأن هذا لا يصح مني ولا يجوز، وأن الواجب يقضي عَلَيّ البقاء في الميدان قائمًا بواجباتي ومهماتي وما نذرت نفسي له إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

[اعتقالي في ٣ حزيران ١٩٣٩م]

بعد صدور الكتاب الأبيض في أواخر أيار/ مايو **١٩٣٩**م بأيام اعتقلتني السلطات الإفرنسية للمرة الثانية، وكان ذلك في تاريخ **٣** حزيران **١٩٣٩**م.

إصبع الإنكليز في اعتقالي

إن اعتقالي كان من قِبَل الدرك الإفرنسي، وفهمت فيما بعد أن الحكومة الإنكليزية قبل اعتقالي كانت تلحّ على السلطات الإفرنسية باعتقالي واعتقال **المفتي [الحاج أمين الحسيني]*** وكانت تقول لها: إنهما العاملان المؤثِّران في حركة فلسطين واستمرار اضطرابها، **الأول في دمشق** يدير حركة الجهاد، **والثاني في لبنان** رأس العمل ومرجعه، ومنه تصدر التعليمات والاتصالات والدعايات إلخ... وقد كان الإفرنسيون يتلكؤون في الاستجابة وبنوع خاص بالنسبة **للمفتي [الحاج أمين]*** لما سيكون لذلك من أثر سيئ ضدهم في البلاد العربية

والإسلامية، ورأوا أن يسايروا الإنكليز بالنسبة لي، وقيل لي: إن تفتيش بيتي في آذار كان بمثابة خطوة أولى ونزولًا على إلحاح الإنكليز، فلما صدر رد اللجنة العربية العليا على الكتاب الأبيض بالنقد والرفض وأخذت الأصداء تتجاوب من مجاهدي فلسطين مؤيدة لذلك ومُعْلِنَةً العزم على الاستمرار في الجهاد، عاد الإنكليز إلى الإلحاح والضغط، وكانت حالة أوروبا قد أخذت تزداد توترًا وأخذ التضامن بين الإنكليز والإفرنسيين يزداد تواثقًا، فلم يسع هؤلاء الصمود طويلًا فقبلوا باتخاذ إجراء ضدي إرضاءً للإنكليز، وعلى ظن أن إدارة حركة الجهاد ستُشَلّ باعتقالي من جهة، وسيكون اعتقالي إنذارًا إرهابيًا للحركة الفلسطينية ورجالاتها في سوريا ولبنان من جهة ثانية، قد يؤدي إلى توجسهم وخفوت حركتهم أو بلبلتها.

أما الخطوة العملية في اعتقالي فقد بدأت بحادثة جرت لمحمود علاء الدين، وهو شابّ من الرملة كان يساعدني بنشاط وإخلاص في مسائل تحضير وسائل الثورة، فقد فُتِّش بيتُه وصُودِرَتْ منه بعض قطع سلاح وأدوات، وقُبض عليه بسبب ذلك، وأُوقِفَ في السجن العسكري وأُجْرِيَتْ معه تحقيقات، وضُرب في أثنائها ضربًا مبرحًا. وكان مما يشتغل به: بعض تجارب كيماوية تتعلق بصنع مفرقعات في مكان اتخذه كمعمل.

الحاج نديم أبو طه والجواسيس

وكان يشتغل معه الحاج نديم أبو طه، وهو شابّ من الرملة أيضًا، ويظهر أن بعض الجواسيس شعروا بنشاطهما فتصحبوا لهما

وأظهروا لهما إخلاصًا واستطاعوا نتيجة لذلك أن يقفوا على سرهما، وكان للمسائل النسائية والشرابية مجال في هذه الصحبة وبخاصة عن طريق الحاج نديم. ولقد وصل الخبث في الجاسوس تيسير الديراني أنْ أقنعهما بوطنيته وغِيرته، وكلّفهما بأن يقوما ببعض تجاربهما في بيته على أن يقدّم لهما كل مساعدة ممكنة في مجالات العمل، وكان يعطي تقاريرَه يومًا بعد يوم، ويظهر أنه كان يَذْكُرني في تقاريره كرئيس للحركة، فانجرّت التحقيقات مع محمود إلى ذكري ومركزي في العمل، ونفى محمود كل صلة لي بعمله، وبذل حسام الدين الصلاحي ـ الذي كان له مع الدرك الإفرنسي علاقات تجسس ورشوة وكان صديقًا لمحمود ـ فاستطاع أن يحمل الدرك على إطلاق سراح محمود على شرط أن يضع الدرك الإفرنسي يده على معمله، وحال ما أُطلق سراح محمود، أشار عليه صديقُه بالفرار وبتخريب المعمل. وسافر محمود إلى العراق خلسة، وعهد للحاج نديم أبي طه بتخريب المعمل والعمل، فتلكأ، وخطا الإفرنسيون خطوة عملية فكبسوا مصنعًا للحدادة كان تيسير الديراني يعرف أن ظروف القنابل صنعت فيه بمعرفة فهمي أبو السعود ـ وهو صيدلي فلسطيني يقيم في دمشق كان يمد محمودًا بمواد كيماوية ويعطيه بعض التعليمات ـ فكان كبس مصنع الحدادة وسيلة لتقصي الأثر، فأوقفوا صاحب المصنع «المغربي»، وأوقفوا فهمي أبا السعود أيضًا، ثم نجارًا من بيت شبيب عرفت مساعدته في المعمل، وشخصًا فلسطينيًّا كان يحرس المعمل. وحضر الحاج نديم أبو طه إلى بيتي فأخبرني بما كان فأنّبته على بُطْئِه.

وفي يوم اعتقالي جاء ولد في الصباح الباكر إلى بيتي يحمل رسالة من الحاج نديم إليّ فيها اعتذار ولكن فيها أيضًا شيء من الكلام عن المعمل وما بذله من جهده لتخريبه وإزالة آثار العمل ويطلب فيها دراهم مني لسد حاجاته، وتاريخ الكتاب قبل يومٍ من إرساله، ولم يمر على تسليم الولد الرسالة إلّا ساعة حتى جاء الدرك الإفرنسي وأحاط بيتي ودخلوه شاهرين سلاحهم، وكان عندي جمع من المجاهدين الفلسطينيين، وكنتُ قرأتُ رسالة الحاج نديم ووضعتها على المكتب لأُطلع عليها بعضَ الأخوان ثم أمزّقها كما جرت عادتي. ومد الترجمان يده إلى المكتب وتناول الرسالة وقرأها ثم أراها لرئيس الدرك وأَفْهَمَه فحواها، وحينئذٍ اعتقلني الدرك بأمر من الرئيس واعتقلوا معي جميع الذين لم يجد معهم جوازات ولا هويات من المجاهدين، واعتقلوا معي **أخي محمد علي*** أيضًا. ولمّا وصلنا مركز الدرك الإفرنسي استبْقوني أنا **وأخي [محمد علي]*** وأرسلوا الباقين إلى الشرطة بتهمة دخولهم لسوريا بدون جوازات.

ضرب المعتقلين الأولين الشديد

وكان في مركز الدرك[١] تحت الاستنطاق: فهمي أبو السعود ومحمد شبيب «النجار» وعبد الرحمن المغربي «الحداد» وخراط حديد اسمه أبو رشيد وشخص آخر جاء لفهمي أبو السعود والحاج

---

(١) كان مركز الدرك الإفرنسي يقع في حي البرامكة خلف بناء الجامعة السورية، كلية الطب والحقوق.

يوسف الجباوي المقدسي وحارس المعمل ونمر المقدسي أحد عماله، فأمروهم أن يمرّوا عَلَيَّ وعلى **أخي [محمد علي]*** للتعرف علينا، ففعلوا، وكانت آثار الضرب المبرح ظاهرة على وجوههم وعيونهم عدا فهمي أبو السعود، وقد اعتُقل الحاج يوسف ونمر المقدسي رفيقه في مكان المعمل بدلالة الجاسوس تيسير وبتهمة أنهما من المباشِرين للعمل، وقُبض على فهمي أبي السعود بدلالة الجاسوس نفسه، وقُبض على محمد شبيب وهو نجار وعامل كهرباء بتهمة أنه مشترك في تجهيز القنابل، وعلى عبد الرحمن المغربي ورفيقه أبي رشيد بتهمة أنهم يصنعون لها ظروفًا حديدية وبدلالة تيسير، حيث يبدو أن هذا الخبيث قد عَرَفَ كلَّ شيء من الحاج نديم على الأرجح.

وفي المساء أُرسلتُ أنا **وأخي [محمد علي]*** إلى السجن العسكري في المزة ويظهر أنه أُوصِيَ بالعناية بنا فقُوبلنا من الاحترام ولم نُفَتَّش ولم نُعَرَّ من ثيابنا حسب ما كان جاريًا مع غيرنا، وأُفرزت لنا غرفة وأُعطينا فرشات وحرامات.

التحقيق معي في صدد الرسالة وعلاقتي بمحمود والحاج نديم

وفي اليوم التالي أُخِذْنَا إلى التحقيق وكان التحقيق معي هو موضوع رسالة الحاج نديم لأنه لم يكن هناك أي صلة معروفة بيني وبين المشتركين في العمل ممن اعتقلوا قبلي حتى ولا معرفة سابقة عدا محمود والحاج نديم، وكلاهما لم يُقبض عليهما. وقد وقع في نفسي اشتباه في طريقة وصول الرسالة إليّ لأنها كُتبت قبل يوم من إرسالها وأُرسلت إليّ قبل ساعة أو ساعتين من مباغتة الدرك لبيتي،

كما أن فيها تفصيلًا أو ثرثرة لا لزوم لها وإشارات يمكن أن تُتَّخَذَ ضِدِّي دليلًا في إثبات علاقة محمود ونديم بي وبالمعمل والعمل معًا، ومن الجدير بالذكر أن الدرك لم يفتش بيتي ولا أدراج مكتبي واكتفى بالرسالة التي تناولها الترجمان عن المكتب بعد أن قرأها ونقل فحواها للرئيس، وهذا ممّا زاد في قوة اشتباهي في صدد إرسال الرسالة. ولقد سألني المحقق عما إذا كنت أعرف محمودًا والحاج نديم، فأجبت بالإيجاب، وقلت: إنهما شابان فلسطينيان لاجئان وأساعدهما أسوة بغيرهما لأني أمين مال اللجنة المركزية للإعانات، وسألني عما إذا كانا أخبراني بما كانا يقومان به، فاعترفت بذلك، فاعتبر اعترافي دليلًا على علاقتي بالمعمل والعمل.

ولقد جاء معاون القنصل الإنكليزي لدائرة الدرك ـ وأنا عند المحقق ـ ودخل غرفة التحقيق وشاهد ما كان فيها من مواد كيماوية وظروف قنابل كان صادرها الدرك في أثناء اعتقالهم للجماعة في المعمل وفي مصنع الحدادة ومكان الكهربائي، مما يدل على اهتمام الإنكليز الشديد بهذه الحوادث واعتقالي بسببها.

توقيفي رسميًّا مع أخي [محمد علي]* ثم إطلاق سراحه وبقائي وحدي

واستنادًا إلى التحقيقات أعطى المحقق ورقة توقيف بحقي، أما أخي **[محمد علي]*** فلم يحقق معه وأطلق سراحه بعد قضائه معي ليلتين، فبقيت في الغرفة وحدي، ولقد وجه لي المحقق أثناء التحقيق كلمة شديدة فغضبتُ منها واحتججتُ عليها وأعلمته أني سوف أمتنع

عن الاستمرار في الكلام، وبان الهياج على صوتي وحالتي فبادر إلى إعلان سحب كلمته، ولكن أصررت على الامتناع عن الكلام فتركني وشأني ولم يعد إلى سؤالي. والظاهر أنه اكتفى بما قررت من كون الرسالة أُرسلت إليّ من الحاج نديم، ومن كوني أعرف الحاج نديم ومحمودًا وباعترافي بأنهما أخبراني بما يعملان، واعتبر ذلك دليلًا على علاقتي بالمعمل.

عدم الوهن للسجن وخوفي على شلل الحركة فقط

ولم يهمني السجن شخصيًّا فقد كنتُ تَعِبًا فرأيت فيه وسيلة للراحة والاستجمام، وكنت قبله كل ما أشعر بتعب ولا أستطيع أن أستريح أجيب السائلين والمشفقين بأني يجب أن أمرض فأذهب إلى المستشفى لأستجم، ولا يصح لي أن أترك العمل بدون ذلك مهما تعبت. وكل ما أهمّني خوفي من طروء شلل على الحركة الفلسطينية التي كانت قد دخلت في دور التعب والخطر، وضاقت مواردها المالية، وطرأ على نفسية المجاهدين وقوادهم تبدل وتطور وشيء من الفتور والتنافس، هذا أولًا، وأهمني أن النساء والأطفال في البيت في حالة قلق ولا رجل عندهم، وقد تعوزهم النفقات فقد كنا نأخذ قسمًا من نفقات البيت من أموال الإعانات ونسدد القسم الآخر مما كان يأتينا من مخزن عمّان ومن بقايا ثمن كتب التاريخ، وكان هذا حينما كان أخي **[محمد علي]*** معي، ولما أُطلق سراحه خف همي من هذه الناحية.

وصيتي له في صدد العمل

وقد تحدثت معه قبل أن يتركني في صدد الحركة ووجوب اهتمامه لاستمرارها والتفاهم مع الإخوان في بيروت ودمشق على ذلك. ولما سجنت لم يكن معي من أموال الإعانة إلّا نحو خمسين ورقة سورية ولم يكن لنا في البنك إلّا رصيد قليل جدًّا. وكان **لأخي [محمد علي]*** على الحركة نحو ألفي ليرة اشترى بها ملابس وأدوات متنوعة أخرى، وقد وعدني **أخي*** بالاهتمام بكل أو بقدر ما يستطيع، وقال لي: إن لديه بعض المال مما أتاه من أرباح مخزن عمّان التجاري، ويستطيع أن يمشّي نفقت البيت إلى أن تنفرج الأمور، وقد ارتاحت نفسي من هذه الناحية.

حفظ القرآن وراحة البال

وانصرفتُ إلى القراءة والكتابة في السجن، ولقد كنتُ حينما سُجنت في القدس بمناسبة مظاهرات يافا الدموية التي جرت فيها عام **١٩٣٣**م حاولتُ أن أحفظ بعضَ سور القرآن ونجحتُ بعض النجاح، فعاودتني الفكرة واستأنفت الحفظ، وكذلك كنتُ فكرتُ في جمع الآيات القرآنية المتعلقة بشؤون الحياة وأحوال البيئة النبوية في مجموعات، فأخذتُ في تنفيذ ذلك أيضًا. وهكذا أوجدتُ لنفسي مَشْغَلَة لذيذة ومفيدة وكانت تستغرق بضع ساعات كل يوم، بعضها للحفظ وبعضها للكتابة، وقد أرسل لي **أخي [محمد علي]*** بعضَ كتب وروايات، فكنت أقضي بعض الساعات في القراءة أيضًا، وهذه حياة

طالما كنت أتمنى أن أقضي بعض أيام الحياة فيها، وإن لم يكن يخطر لي أن يكون ذلك في السجن.

تفلسف في حياة السجن للتكيف وأثره

ولكن ما دام أن المرء لا يستطيع أن يكيّف حياته وفق رغباته دائمًا فمن المعقول أن يكيّفها وفق مجراها، وأن ينظر إلى الأمور بنظر فيه سعة أفق وفلسفة وتحليل وحينئذٍ يهون عليه ما قد يكون صعبًا وينبعث فيه طمأنينة حتى في الظروف التي تستدعي القلق. وهذه هي فلسفتي في الحياة، وقد ساعدتني على السجن وصرت ألقى فيما شغلت به نفسي لذة، حتى لكأني أحيانًا كنت أنسى نفسي وسجني. وأريد أن أقيد أن هذه الفلسفة التي اصطنعتها ليس في صدد تكييف النفس في ناحية المبادئ الأخلاقية والاجتماعية والاستقامة على الصحيح القويم منها، فإني من هذه الناحية لا أبيح التكيّف الذي يعني النفاق والكذب والتلون والسَّير مع الريح والظروف مها تناقضت مع الأخلاق والمبادئ القويمة، وأرى التزام الأخلاق والمبادئ القويمة واجبًا لا يصح التهاون فيه أو التحلل منه أو إهماله، وسواء أكان ذلك في الشؤون والأخلاق والمبادئ الشخصية أو العامة والسياسية وغير السياسية وفي الصِّلات مع الناس والتعامل معهم مهما كلف الأمر. وهذا مفيد للملتزم به، حيث يحوز ثقة الناس واعتمادهم واحترامهم ويثير في صاحبه الطمأنينة وراحة الضمير، وتساعده على أعباء الحياة ومشاكلها وصعوباتها ومناجاتها، وأسجل أني لم أَلْقَ خطرًا وضررًا فَادِحَين في التزامي بهذه الفلسفة في هذا النطاق.

زيارة أم الحكم وتطميناتها

ولقد سمح لأم الحكم ـ زوجة **أخي محمد علي*** ـ بزيارتي بعد أسبوع، وفهمتُ منها أن المساعي مبذولة من قبل **المفتي [الحاج أمين]*** والأصدقاء، وسمح بعد ذلك لسليمان الحسيني ومحام غاب عني اسمه بزيارتي، وفهمت منهما أنه من المحتمل إطلاق سراحي بالكفالة، وأنه لا يوجد برهان قضائي على إدانتي ومحاكمتي، وأن المسألة سوف تنتهي في أيام قليلة، ولكن الأمر طال دون نتيجة إيجابية، إلى أن جاءني خبر بأني مدعوّ إلى الاستنطاق العسكري، فقطعت بأن الإنكليز قد تغلبوا نهائيًّا على الموقف، وأن الإفرنسيين لم يروا بدًّا من مسايرتهم والسير في الشوط إلى نهايته.

شهر قضيته وحدي في الغرفة ووصف الغرفة

ولقد بقيت نحو شهر في الغرفة وحدي ومساحة هذه الغرفة ستة أمتار مربعة، وفيها دكتان من «الشمنتو» تقومان مقام سريرين ومرحاض مستور بجدار نصفي، فصرت أنام على إحدى الدكتين وأجلس في النهار على الدكة الثانية.

وبعد انقضاء شهر نقلوا إلى غرفتي فهمي أبا السعود الذي كان من المُعْتَقَلِين معنا والذي كان هو الآخر في غرفة منفردة تُمَاثِل غرفتي وتلاصقها، وهذه أول مرة أراه، وهو من أعجب الشخصيات التي عرفتُها من مختلف النواحي، وهو صيدلي ربما كان أكبر مني قليلًا، ذكي كثير الاطلاع ويظهر أنه متخصص وبالأحرى متمكن من الكيمياء.

وكان ـ على ما قال لي ـ كيماويَّ الجيش الرابع في الحرب، أستاذًا للكيمياء في كلية الطب في دمشق في بدء الاحتلال الإفرنسي، ويَعرف الإفرنسية والألمانية بالإضافة إلى التركية أيضًا والعربية طبعًا. وتمكنه من الكيمياء جعل ابنَ عمِّه صديقنا **الشيخ حسن أبو السعود***
يذكره للاستفادة منه في عملياتنا لفلسطين، فأوعز لمحمود علاء الدين الاتصال به والانتفاع من علمه، وهكذا اندمج في حركة فلسطين الثورية. وكان إلى ذكائه واطلاعه كثيرَ الكلام والمبالغة والدعوى إلى حدّ الكذب أحيانًا، فليس من موضوع إلا وله فيه باع وليس من محادثة إلا وله فيها اطلاع، ففي الجيش كان صاحبَ حظوة لدى جمال باشا وأركان الجيش وكبار ضباط الألمان وصاحب الرأي لا يرد عليه في مسائل الإعاشة والكيمياء، وهو في التاريخ عَلَم فَرْد، وفي الإلهيات والفلسفة عميقَ النفوذ واسعَ الإدراك، وفي النظريات السياسية والحربية صاحبَ النظر الثاقب والرأي الصائب، وليس من كتاب إلا وقرأه، ولا بَحْثٍ إلا واطلع عليه. وبمجرد أن تبدأه بحديث في موضوع أو عن كتاب إلا وسارع إلى تلقُّفه منك وتبنّيه، ولا يكتفي بهذا بل يأخذ ويلقي عليك محاضرة عنه. وكثيرًا ما كنتُ أكتشف تخبُّطه وسطحيَّتَه وتلفيقَه، وأُنَبِّهُه إلى ذلك، فلم يكن هذا ليردّه عن ثرثرته ودعاويه. وكان من ثرثرته أيامَ التحقيق معه أنه كان يزيد على القَدْرِ اللازم من الجواب، فيفتح مجالًا لسؤالات جديدة على نفسه وعلى رفاقه الذين تَعَاوَنَ معهم واشترى منهم. وقد سُئِلَ عنّي فقال لهم: إنه لا يعرفني، وكان هذا الجواب صحيحًا وكافيًا، ولكنّ ثَرْثَرَتَه أبت عليه

إلا أن يزيد فيقولَ عني: إنه الفلسطينيّ الأول في دمشق، وأن الفلسطينيين والثوار يترددون عليه ويأخذون منه المال. وسئل عن محمد شبيب ـ أحد المقبوض عليهم معنا ـ فقال: إنه لا يعرفه ولكنه يعرف أنه كهربائي كان في فلسطين، ولعله كان يتصل ببعض الفلسطينيين في دمشق. وكل هذا مما حكاه لي متبجحًا أو مثرثرًا. وكان مع ذلك جزوعًا مضطربًا في أكثر أوقاته في السجن على رغم موالاتي النصح له بالهدوء وتذكيري له بأن من كان في عقله واطلاعه ومداركه يجب ألَّا يكون كذلك، وكثيرًا ما كان يلوم ابنَ عمّه **الشيخ حسن*** على توريطه في هذه الورطة، وقد وبَّخْتُه على هذا القول وقلتُ له: إن الناس الذين اشتغلوا في قضية فلسطين إنما اشتغلوا لأنهم رأوا أن عليهم واجبًا، وليس هذا الواجب عليه أخف منهم، وليس لأحد أن يمنّ على أحد، وأنه يحسن به حتى ـ ولو لم يشعر بواجب وطني ـ ألَّا يفضح نفسه بِقِلَّةِ هذا الشعور بعد أن وقع ما وقع، فإن هذا يخفف من العطف عليه ومساعدته. وهكذا بعد أن أَنِستُ بهذا الرجل مدة من الوقت صار عَلَيَّ ثقيلًا وعبئًا، وصار كأن من واجبي أن أنسى أني مسجون وأن يكون همّي تهدئة خاطره وتسكين نفسه.

شيء عن سجن المزة والحياة فيه

ولقد كان لنا في اليوم وفي النهار خرجتان للتمشي: واحدة في الصباح وأخرى في المساء، نقضي في كل منها ساعة، ثم تغلق علينا الغرفة بقيةَ الليل والنهار، فننصرف إلى قرائتنا وكتابتنا.

وهذا السجن من المنشآت العسكرية الحديثة التي أنشأها

الإفرنسيون في منطقة المزة لسجن أو توقيف الجنود المُذْنِبين، وكذلك لتوقيف المدنيّين المُحالين إلى المحاكم الإفرنسية العسكرية. هذه المحاكم قامت منذ عهد الاحتلال الأول وظلت قائمة طوال هذا العهد بالنسبة للمدنيين في قضايا حيازة السلاح ونقله وبيعه وأعمال المفرقعات والقضايا والتهم السياسية وقضايا المظاهرات التي يقع فيها عنف، حيث تودع كل هذه القضايا إلى المحاكم العسكرية الإفرنسية ولا تعطى للمحاكم الوطنية، والمدنيون يوقفون في هذا السجن رهن المحاكمة، ثم يسلّمون بعد الحكم عليهم للسجن المدني لقضاء مدة الحكم فيه. ومن النادر جدًّا أن يُسَلَّمَ مَدَنيٌّ للدرك الإفرنسي بمثل هذه التهم ولا يُضْرَب ولا يُعَذَّب من قِبَلِ هذا الدرك أثناء التحقيق، وليس من النادر أن يصل الضرب والتعذيب إلى درجة فظيعة حيث تظهر آثارهما على الجسد والوجه والأقدام. وقد خرج محمود علاء الدين بعد أن قضى أسبوعًا في توقيف الدرك الإفرنسي وكانت علامات الصفع على وجهه، وزرقة عينيه من الضرب ما تزال بادية. ولما أوقفونا وعرضونا على الموقوفين في قضيتنا رأينا وجوههم وَرِمَةً وحول عيونهم ازرقاق شديد من شدة الضرب والصفع، وقد قالوا: إنهم كانوا ينتفون لهم شعر أهداب عيونهم وشواربهم، وأنهم كانوا يعذبونهم بتيار كهربائي. ولقد عذّبوا وضربوا رئيسَ بلدية درعا وبعضَ رفاق له تعذيبًا وضربًا شديدين وورمت أقدامُهم وظل ورمُهما نحو شهر، وكانوا يعالَجون في السجن من ذلك. ويكاد يكون الضرب والتعذيب أمرًا عاديًّا، مهما كانت التهمة والذَّنْب، وسواء أكان ذلك

من سياسيين وكبار أو من عاديِّين، وإنما كان يختلف في الشدة ولا سيما على الذين ليس عليهم شهود ولا براهين كافية بقصد إجبارهم على الاعتراف. وكان الكثير منهم يضطرون لقول ما يريده المحقق منهم ويوقّعهم على ما يكتبه لينتهوا من العذاب. وكان من نعمة الله عليّ أني لم أُعَامَل بأية قسوة في أثناء التحقيق إلا ما كان من الكلمة القاسية التي وجهها إليّ المحقق وغضبت منها وأَعْلَمْتُه بعزمي على الامتناع عن الكلام مهما فعل فَتَرَاجَعَ، على ما ذكرتُه سابقًا. ومرة أخرى طُلِبْتُ فيها إلى مركز الدرك الإفرنسي لمواجهة شخص اسمه حسام الدين الصلاحي ورد ذكره في التحقيق، وقد أصرّ الدركي الإفرنسي على أن يضع في يدي الكلبشات الحديدية حسب العادة التي تجري في السجون عامة وكنا استُثْنِينا منها في نزلاتنا وطلعاتنا عدا هذه المرة.

وحسام الدين هذا كان ذا صلة وثيقة بالاستخبارات الفرنسية وذا يد بارعة في الوساطة في القضايا التي لها علاقة بالإفرنسيين، وكان استطاع أن يخلّص محمود علاء الدين، وجرى اسمه على لساني أثناء التحقيق في سياق ذكر محمود علاء الدين، فجاؤوا به لمواجهتي به بسبب ذلك، والغريب أن مقابلتي معه لم تتم أمام المحقق حسب الأصول وفي صورة سؤال وجواب، بل تمت في غرفة بيني وبينه فقط، فأخذ يؤكد لي حُسْن نيّته وأنه ليس له أي يد في اعتقالي إلّا في مسألة محمود إلّا ما كان من صداقة بينه وبينه جعلته يسعى لخلاصه. وخطر لي أن تكون هذه المقابلة الخلوة وسيلة لاستدراجي إلى الكلام

معه في قضيتي أو تكليفه لدفع رشوة فيها ليكون شاهدًا ضدي، فتحفّظتُ معه وصرفتُه بالتي هي أحسن. وكان الرجل موظفًا في الحكومة السورية فأخرجتْه حكومة الكتلة لسوء سلوكه وتصرفاته، فظل مرتبطًا بالإفرنسيين ويتوسط معهم في بعض القضايا بالرشوة. وقد أعادوه إلى وظيفته حينما نقضوا المعاهدة وألّفوا حكومة المديرين برئاسة بهيج الخطيب بعد استقالة **هاشم الأتاسي*** التي ذكرناها، وصارت له مكانة مرموقة، حتى عُيِّنَ رئيس ديوان وزارة الداخلية حيث أثبت بهذا مقدّرة آثرته لديهم.

وسجن المزة مرتب ترتيبًا ملائمًا، ففيه عدة قاعات (عنابر) يتسع الواحد منها نحو عشرين أو ثلاثين شخصًا، وفي كل منها دكّتان مرتفعتان عن الأرض طولانيتان ينام السجناء عليهما، وفي جانب كل منها مرحاض مستور ومغسلة، وفي السجن عدة غرف صغيرة لسجن الضباط والرجال السياسيين والنابهين، ومنها الغرفة التي أعطيت لي وورد وصفها. والبناء بوجه عام يأخذ شمسًا وهواء بصورة كافية من كل ناحية ولا يسمح فيه للسجناء المدنيين ـ فضلًا عن العسكريين ـ بجلب فراش خاص إلّا نادرًا، ويُعطى لكل سجين حرام ينام عليه وحرام آخر يتغطى به، ويوزع على المسجونين وجبتا طعام كل يوم، واحدة منهما باللحم مع الخضار وواحدة نواشف للمساء، وفي الصباح يعطون فنجان شاي في كيلة من التنك. ويُكَلَّف المسجونون بالكنس والمسح صباحًا ومساءً، وحينما يكون عددهم كبيرًا يكون ذلك في نوبات. وحينما يأتي الموقوف لأول مرة يُعرّى من ثيابه وتُبَخَّر

فورًا، وإذا كان وسخًا جدًّا يُرسل إلى الحمام، وهي قضبان حديدية مُعَلَّق عليها رشاشات (دوشات) ماء بارد، ويُحْلَق رأسه للصفر ويؤخذ ما معه من دراهم وأشياء أخرى وتُحفظ في مكتب السجن له. ويُسمح لأهل المسجونين بزيارتهم في الأسبوع مرّة بعد إتمام التحقيق معهم، ويسمح لأهلهم بأن يأتوا إليهم بما شاؤوا من طعام وفواكه وملابس، ويأخذ أهلُهم منهم ثيابَهم الوسخة للغسيل والإِعادة في الأسبوع التالي. ويستطيع السَّجين أن يرسل رسائل لأهله بواسطة إدارة السجن مفتوحة، كما يستطيع أن يتلقى رسائل من أهله بهذه الواسطة مفتوحة أيضًا. ولا يُسمح للسجين بكُتُب ولا صُحُف، ويُسمح له بالتدخين في وقتَي التمشي خارج الغرف والقاعات فقط وبقدر معيَّن. ولا يُسمح للمسجونين بحلاقة ذقونهم بأيديهم وباقتناء آلات حلاقة بالتالي، ويوكل ذلك لبعض السجناء ليحلقوا ذقون الآخرين وشعورَهم مرتين في الأسبوع. ويَستحم المسجونين مرة في الأسبوع تحت إشراف الإدارة، وحمّام السجن قاعة أو غرفة على دائرها قضبان (بواري) فيها فتحات رشاشة. وفي كل صباح يُصَفّ المساجين في الساحة السماوية في ساعة التمشي فتُتلى أسماؤهم ثم يُسمح لهم بالتمشي بدءًا بمشية عسكرية بأمر أحد الجنود الحراس ثم يُتركون أحرارًا في المشي. وكان مدير السجن ـ وهو لا يعدو أن تكون مرتبته ملازم أو شاويش ـ يحضر في الصباح عند تلاوة الأسماء، وتكون وقفته وانتفاخه حينما يمر أمام الصف مستعرضًا للمساجين مثيرة للضحك، لأنه يقلد العظماء حينما يستعرضون قطعة من الجيش.

معاملتي الحسنة في السجن استثناء

وقد عوملتُ أنا معاملة خاصة، فكان طعامي يأتي إليّ كل يوم من البيت، وسُمح لي بإحضار كتب وحبر ودفاتر، ولم أُكَلَّف عملًا من أعمال السجناء، وسُمح لي بآلة حلاقتي وحلق ذقني يوميًّا، وكان يُسمح لي بدخول الحمام لوحدي وليس في طابور السجناء، وعومل فهمي أبو السعود ـ زميلي في الغرفة ـ مثل معاملتي، وكان السجّانون ـ وهم من الدرك الإفرنسيين ـ يُظهرون لنا احترامًا وعطفًا ويكلّفون أحد السجناء بكنس وتنظيف غرفتنا وغسيل ما لدينا من صحون وأوانٍ وملاعق، وكنا نقابل زوّارَنا في غرفة من غرف المكتب.

والدرك الإفرنسي تشكيلة خاصة في سوريا ولبنان لها قيادتها الخاصة، ووظائفها تعقيب قضايا المحاكم العسكرية بالنسبة للمدنيين في الدرجة الأولى، وأفرادُها ليسوا مجندين بل موظفون، وكان الواحد يتقاضى راتبًا شهريًّا بين سبعين ومئة ليرة، وهذا مبلغ مهم في ذلك الوقت، يجعل كثيرًا من أرياف فرنسا وعاطليها يأتون ويعملون.

إحضار عرفان الجلاد ونجيب الريس وبعض رفاقهم إلى سجن المزة

وبعد توقيفنا في المزة بخمسين يومًا أُتي بنجيب الريس صاحب جريدة «القبس» وعرفان الجلاد أحد الشباب الوطنيين المتحركين الأذكياء وبعض رفاق لهم إلى السجن بتهمة المؤامرة على بهيج الخطيب الذي عُيِّنَ رئيسًا لحكومة المديرين التي قامت على أنقاض الوزارة والجمهورية.

ولقد كانت الصحف نشرت في أواسط تموز من عام **١٩٣٩**م أنه اكتُشفتْ مؤامرة لاغتيال بهيج الخطيب، وأن السلطات قبضت على بعض المُتَّهَمِين، ثم أُذيع بيان بأن بعض المتهمين اعترفوا بعلاقة نجيب الريس بهذه المؤامرة. وبعد نشر البيان بيومين أُتي بنجيب وأخيه عثمان وبضعة أشخاص آخرين من حماة ودمشق إلى المزة، ثم أُتي بعرفان الجلاد، ووُضِعَ بعضُهم في الغرف الملاصقة لغرفتنا وبعضهم في العنابر، وقد مُنِعْنَا بضعةَ أيام من التحدث معهم، بل وجُعِلَتْ ساعاتُ مشينا في الساحة غير ساعات مشيهم زيادة في المنع، واستمر هذا أسبوعًا ثم سُمح لنا بالاختلاط والتحدث. والذي فهمناه عن الحادث أن بعض المُتَحَمِّسِين الحَمْوِيِّين مع بعض الأكراد والشباب رأوا ما في تهديم حُكْم الجمهورية من ضربة واعْتَبَرُوا بهيجًا وسيلة هذه الضربة فقرروا اغتياله، وهيؤوا حالَهم بحيث يتممون عملَهم وينسحبون إلى فلسطين ويشتركون في ثورتها أيضًا، وأن واحدًا منهم خان العهد فذهب إلى بهيج وأبلغه الخبر واتفق معه على أن يتواعد مع رفاقه على التنفيذ ويأتي معهم وحينئذٍ يقبض عليهم، وهكذا كان، ففي المساء الذي اتُّفق على تنفيذ المؤامرة فيه جاؤوا ومعهم سيارة فيها لوازمهم حيث ينفذون ثم يسوقون السيارة إلى حدود فلسطين، وكان الدرك الإفرنسي قد اتخذ عدّته بالإحاطة بهم فقبض عليهم وعلى سيارتهم في الساحة القريبة من بيت بهيج الخطيب، وقال الخائن فيما قاله: إنه لمح نجيب الريس يمشي مع المتآمرين يومًا ما، فكان ذلك سببًا للقبض على نجيب، أما عرفان الجلاد فإن ذِكْرَه لم يرد في سياق

المؤامرة، ولكنّ السلطات عند انكشاف المؤامرة رأت أنه قد يكون وراءها حركة كبيرة، فقررت القبض على بعض الشباب المعروفين بحماستهم حسب القوائم التي عندها، وقد شعر الشبان بأنهم مُعَرَّضون للاعتقال فاختفوا، وكان عرفان أقلّهم خطرًا وحركة فلم يخطر بباله الاختفاء، فأُلقي القبض عليه وجيء به إلى السجن.

ومهما تكن نتيجة هذه الحركة فقد كانت ولا ريب مهمّة جدًّا من ناحية الشعور القومي في البلد وتأثّره بسبب تهديم الحكم الوطني، وبَيَّضَتْ وجهَ الوطن وأَظْهَرَتْ أنَّ الوعيَ القوميَّ فيه حساس لا يمكن أن يصبر طويلًا على الضيم والعسف، وأن حركة التهديم كان لها ردّ فعلي نفساني قوي فيه.

ولقد كان التحقيق مع المُتَّهَمِين طويلًا، تَنَاوَلَه الجذْب والدَّفْعُ كثيرًا، فبهيج الخطيب والإفرنسيون المحليّون اجتهدوا ليكون محصول عملية إرهابية وراء هذه الحادثة، ولما كان عرفان لم يُذكر في الحادثة فإنه حُقِّقَ معه عن سَفْرَة سافرها إلى العراق، وورد فيما قدّمه المُخْبِرُون (الجواسيس) عنها أنه سافر للعمل على تهريب سلاح من العراق إلى سوريا، وأُشْرِكَ معه في التحقيق رفاقُه في عصبة العمل القومي الذين كانوا معه في سفرة العراق، واختفوا على أثر شعورهم بعملية الإرهاب والاعتقال، وهم **شفيق سليمان*** و**أبو الهدى اليافي*** وغيرُهم، وبالرغم من عدم وجود أدلة ضد عرفان في هذه التهمة، ومن عدم وجود أدلة ضد نجيب في المؤامرة، فإنهم ظلوا موقوفين وأُرسلت أوراق تحقيقهم إلى القيادة العامة في بيروت لتقرير سَوقهم

إلى المحكمة العسكرية، هذا في حين كانت تصل إليهم أخبار بقرب إطلاق سراحهم وقفل التحقيق لصالحهم، حتى لقد كان تُعَيَّن لهم الأيام التي سوف يُطلق سراحُهم فيها، وكانت تأتيهم الأخبار عن ألسنة صادقة تنقل وعودًا من ذوي الشأن الإفرنسيين، وقد أرجعت القيادة العامة أوراق تحقيقهم مشروحًا عليها أن تهمة المؤامرة يجب أن تُودَع إلى المحاكم الوطنية المختصة بها، وقد أُرسلوا من جديد إلى مُسْتَنْطِق مدني وحقَّق معهم فلم تظهر أدلة موجبة ضد عرفان ونجيب بنوع خاص، فقرر المُسْتَنْطِق منع محاكمة عرفان وعلّق أمر نجيب على تقديم شاهد ضده قيل إنه لدى الدرك الإفرنسي، ثم كان هناك أيضًا جذب ودفع، فإنه بالرغم من تبليغ المُسْتَنْطِق قراره بإطلاق سراح عرفان فإن السلطات لم تُطلق سراحه، ثم عرف أن بهيج الخطيب والإفرنسيين المحليين توسلوا بقانون إفرنسي يقول: إن المؤامرات ضد رئيس الحكومة من القضايا المختصة بالمحاكم العسكرية، وسعوا حتى سحبوا القضية من القضاء المدني وأَودعوا الأوراق ثانية إلى القضاء العسكري.

قرار محاكمتهم عسكريًّا

وحينئذٍ حصل يقين بأن الشوط لا بد أن يصل في الأمر إلى منتهاه، وأن يحاكَموا أمام القضاء العسكري، ويُحْكَم عليهم فيه، لأن القضاء العسكري لا يقيم وزنًا للاعتبارات القضائية البحتة.

وكان من النادر جدًّا أن يَصدر من القضاء العسكري حُكْمٌ ببراءة مُتَّهَم يُقَدَّم إليه من قِبَل الدَّرَك الإفرنسي. ومن النادر جدًّا أن يعبأ هذا

القضاء بشهادات أو أدلة غير ما يُقَدَّم إليه من تقارير الدَّرَك وما تستند إليه هذه التقارير من تقارير الجواسيس. وليس من العادة أن يستدعي الدَّرَكُ والجواسيسَ لأداء شهادة علنية أمام المحكمة العسكرية، فتقرير الدَّرَك الإفرنسي وما يستند إليه من تقارير الجواسيس وثائق مُحْكَمة لديه. ولا يصغي هذا القضاء إلى ما يُخْبِر به المُتَّهَم بما وقع عليه من تعذيب وتلفيق في التحقيق وإرهاب وإجبار على الاعتراف ولو قُدِّمَتْ إليه الدلائل على كل ذلك، فإنه لا يعبأ بها.

ومن الطرائف أن أحد المتهمين السياسيين من حوران مَثُلَ أمام المستنطِق العسكري فلما أراد المتهم أن يقرر شيئًا خلاف ما جاء في تقرير الدرك نَبَّهَه المستنطِق إلى ما في أقواله من تضاد لهذا التقرير، فقال له المتهم: إن هذا التقرير هو مكذوب وتلفيق وأنه ضُرب وعُذِّب ضربًا وعذابًا شديدين حتى اضطر إلى التوقيع على التقرير للخلاص من العذاب والضرب، فما كان من المستنطِق العسكري إلا أن يصرخ قائلًا: إن الدرك الإفرنسي لا يكذب ولا يضرب ولا يعذب، ثم لطمه على وجهه لطمة شديدة، فقال له المتهم: وتصديقًا لما أقول إنك أنت تضربني وأنت مستنطِق في الوقت الذي تنكر فيه أن الإفرنسيين لا يضربون ولا يعذبون.

تسليتنا مع نجيب وعرفان

وقد كان قدوم نجيب وعرفان تسلية لي في وحدتي، وكنا في ساعات المشي نتبادل الأحاديث المتنوعة عن الشؤون السياسية والمحلية ونتناقش في أمور اجتماعية وأخلاقية ودينية أيضًا.

نشوء صداقة حميمة بيني وبين عرفان، وأحاديث متنوعة حول ذلك وحول الشباب والشيوخ

وقد أنست بخاصة بعرفان ورأيت فيه شابًّا دمث الخلق طيب الروح والنفْس ذكيًّا حادّ الذهن، وتوثقت بيني وبينه صداقة حميمة. ومن الحق أنه من الشباب القليلين الذين خلصوا من الغرور والدعوى العريضة الفارغة والتطرف في الأمور من ناحية وعدم الإنصاف فيما يعرض من شؤون وأبحاث وخلافات بين ما يسمى قديم وجديد وبين الشباب والشيوخ، وهذا وإن كان شيئًا طبيعيًّا ومظهرًا اجتماعيًّا ليس خاصًّا بزمن دون زمن ولا بيئة دون بيئة، إن ما نراه في أيامنا من ذلك قد خرج عن طوره المعقول عند كثير من الشباب على غير حق وجدوى وخاصة في صدد الحركة الوطنية والسياسية والاجتماعية، فهم ينتقدون الشيوخ انتقادات شديدة ويتهمونهم بالأنانية والحرص والطمع في الحياة والرغبة في الاستئثارة والنزاع على الكرسي والمناصب إلخ... دون استثناء، وإذا استثنوا أحدًا من ذلك فإنهم لا يخلون من أوصاف الضعف والفتور وعدم التقدم إلى العمل القومي إلخ... ولا يتورعون عن التصريح بخطة تحطيمهم وتهديمهم.

وأنت تبحث فيما عليه الشباب وما فعلوه فلا تقع على شيء مشجِّع يجعلك تراهم محقِّين في حملاتهم وعنفهم ونقدهم وخطتهم التحطيمية والتهديمية، ولقد حالوا منذ أكثر من عشر سنين أن ينشؤوا منظمات وتشكيلات في مختلف أنحاء سوريا والعراق، فلم تكن الصفات التي يصفون بها الشيوخ أقل ظهورًا وتحكمًا منها في هؤلاء،

حيث جرفتهم أو أكثرهم الأنانية والنزاع على المراكز والرغبة في الظهور والجاه والاستئثار في الساحات الضيقة التي جالوا فيها ثم فشلوا وصاروا كالفاشلين في أكثر محاولاتهم وتنظيماتهم، ولهم أثر مُجْدٍ بارز المظهر والاستغلال والميزة في الحركة السياسية والوطنية والاجتماعية، فهم من جهة لم يفرضوا أنفسهم بتشكيلات قوية ولا بأعمال بارزة مستقلة، ومن جهة لا يندمجون مع الشيوخ بدماثة ولِين وانسجام وإنصاف وحُسْن محاكمة للأمور بميزان المنطق والواقع والعوامل الاجتماعية والأخلاقية، ثم هم ينقمون على هؤلاء لأنهم لا يفسحون لهم الطريق ولا يخلون لهم الميدان، كأنما المسألة مسألة بيت مشغول يُراد إخلاؤه ليحلّ فيه ساكن غير ساكنه الأول، متغافلين عن قيم تجارب السنين في العمر والعمل، وعن أنهم لو أخلى هؤلاء لهم الطريق والميدان لما استطاعوا أن يشغلوها بحق وجدارة لأنهم تنقصهم التجربة والمتانة وينقصهم الاسم والصوت والتأثير، وكل ذلك ضرورة لا بد منها في العمل العام، وهذا الحال منهم - مع تفنيدهم وتجريحهم للشيوخ وتخطيطهم الذي لا يتورعون في التصريح به بالتهديم والتحطيم - جعل الشيوخ ينظرون لهم نظرة عداء ويرون - أو يرى كثير منهم لا سيما من له الكلمة والشأن في الزعامة والعمل - أن ما قد يحاوله الشباب من تشكيلات إنما هي تشكيلات عدائية نحوهم لمنازعتهم مراكزهم ونفوذهم أكثر منها تشكيلات وطنية أو قومية للقيام بها بواجبات الوطن والعمل في سبيل أهداف سياسية وقومية واجتماعية عليا، فلا يلبث أن يبدأ الصدام والنزاع و المهاترة

والقطيعة، وهلم جرًّا .ولا سيما أن ما ظهر من محاولات الشباب في سبيل هذه التشكيلات لم يلبث أن اتجه في اتجاه النزاع والتنافس الشخصي، وهكذا يتعقّد الموقف ويتعثّر العمل الصالح المجدي والتعاون فيه بين الجيلين.

ولقد كان الجيل الأول ـ الذي هو الآن في ميدان العمل ـ أكثر قابلية ومرونة ونجاحًا، فشكّلوا تشكيلاتهم وكوّنوا كياناتهم ثم أخذوا يفرضون أنفسهم عن طريق التظاهر والشتم التجريح والتحطيم وبالعمل المجدي وبالتدخل مع الجيل السابق لهم تدخلًا هيّنًا لينًا، ولكنه مؤثرًا وبالتعاون معه، فلم يلبثوا أن صاروا أصحاب الموقف والميدان دون أن ينفتح بين الجيلين باب المهاترة والتناظر وتبادُل نظرات العداء والبغضاء والجذب والدفع، وهو الذي تم في عهد **فيصل*** في الشام بين جيلنا الشاب وبين الجيل السابق لنا الذي كان في ميدان الحركة العربية، على أن ذلك لا يمنع من القول: إن الجيل القديم يجب أن يكون أوسع صدرًا وأبعد نظرًا وأن يدرك أن عليه واجب تهيئة الجيل الجديد ليحمل مسؤولية العمل والقيام بالمهمة التي تترتّب عليهم. وهذا يوجب عليهم توسيع الصدر لتكوّن الجيل الجديد وبروزه وعدم التحسس بحس الاستخفاف به وبالرغبة في تسييره تسييرًا أعمى، وأن يحسب حساب تطور الزمن وما يقتضيه هذا التطور من نظام وتنظيم وصرامة واستقامة، وأن يدرك أن هذا واجب وطني وأخلاقي واجتماعي عليهم، ومن مقتضيات المصلحة العامة التي توجب إيجاد جيل جديد متمرن قوي ونشيط يستطيع أن يستقل بالعبء حينما يلقى

عليه. وأن يدرك كذلك أن محاولات هذا الجيل التكونية والتشكيلية والدخول في الميدان والتعجيل بقطف الثمرات والتطلع إلى التقدم شيء طبيعي وطور اجتماعي وأن من التناقض أن ينتظر من الجيل الجديد مواقف جادّة مرنة جريئة ولا يشجعه عليها وأن يتوجس منه توجسًا يصل إلى حد العداء والتعطيل بل وأن يرى فيما يوجهه الجيل الجديد من لوم ونقد للجيل السابق ومحاولة إزاحته من الطريق أمرًا طبيعيًّا وطورًا لا مفرَّ منه، وقد مر به كل جيل جديد بالنسبة للجيل السابق له.

وكان كل هذا من الأحاديث التي كانت تجري بيني وبين عرفان، وكان هو يسلّم بذلك ويلوم طيش بعض الشباب وانحرافهم وانجرافهم في تيار التنافس والتظاهر المزيف والحرص على البروز والتحكم قبل أن يكون لهم من النضج والمران والجد في العمل ما يجعلهم أهلًا للاستقلال في العمل و البروز في الميدان أقوياء ناضجين.

استمرار الصداقة طويلًا بعد السجن إلى عهد الانفصال السوري المصري، وموقف عرفان منه وحول ذلك

ولقد استمرت الصداقة الحميمة بيني وبين عرفان إلى أمد طويل بعد السجن، وكنا نلتقي ونتحاور في مختلف الأمور، وقدَّمْتُه للرئيس [شكري] **القوتلي*** في أثناء رئاسته التي بدأت أثناء الحرب العالمية الثانية واستمرت سنين عديدة، وجعلتُه يأخذه مديرًا لإحدى دوائر رئاسته. وظل التواثق بيننا إلى أن انفصمت الوحدة السورية المصرية في أيلول عام ١٩٦١م وكان هو من الذين أيَّدوا الانفصال أسوة بكثير

من أمثاله الذين فسّروا الوحدة بمقاييس ضيقة وعابرة وأخذوها بوقائع لم تكن هي تتحمل مسؤوليتها كاملة وإنما هي من نتيجة البنية والأخلاق والأحوال العامة، وكانت تقع في سوريا قبل الوحدة وبعدها، وكانت تقع في كل بلاد العرب، ولم ينفذوا إلى كون الوحدة عملية مصيرية مستقبلية وليست سحرًا تبدّل الأمور من حال إلى حال في أمد قصير، وإلى كون الوحدة إذا حملت مسؤولية الوقائع كان يقتضي ألّا تقوم وحدة بين أي بلد.

وقد انقطعنا عن بعضنا وما نزال. وأظن أنه أصغر مني بنحو خمس عشرة سنة أو أكثر.

مثولي أمام المستنطِق العسكري، وعدم قبول محامين وطنيين، وتوكيل محام إفرنسي

وفي أواسط شهر آب عام **١٩٣٩**م دُعيت للمثول أمام المستنطِق العسكري وكان قيل لي: إن المساعي مبذولة لجعل المستنطِق يُصدر قرارًا بمنع محاكمتي وإطلاق سراحي، ولما مثلت أمام المستنطِق في المرة الأولى سألني عن اسمي وعملي وهويتي وأبلغني أنه تقرر عدم قبول محامٍ سوريّ ووجوب تعيين محامٍ إفرنسي لأهمية القضية، وكان هذا على عكس ما كان جاريًا من قبول وكالات للمحاميين السوريين في القضايا والمحاكم العسكرية. وكان أخي [**محمد علي**]* قد وكل لي المحامِين عبد الله الموصلي وفريد الشحلاوي وعزيز الهاشم، فأرسلتُ إليه خبرًا بما قال المستنطِق لي بشأن وجوب تعيين محامٍ إفرنسي وعدم قبول محامِين سوريين، فسعى حتى وجد محاميًا فرنسيًّا

اسمه زهار وهو شاب ذكي مطَّلع، فجاء وقابلني بعد مثولي أمام المستنطِق للمرة الأولى وأخذ يطمئنني بمصير القضية ويقول لي: إنه ليس في يد الدَّرَك الإفرنسي دلائل مادية قضائية ضدي، ويُبدي أملًا قويًّا بمنع محاكمتي أمام المستنطِق أو ببراءتي أمام المحكمة.

وبعد نحو عشرة أيام دُعيت ثانية للمثول أمام المستنطِق فذكرتُ له ما ذكرتُه لمحقق الدَّرَك الإفرنسي، وكانت سؤالاته من نطاق تقرير هذا المحقق، وقد سألني عن حقيقة كوني الزعيم الفلسطيني الذي يمدّ الثوار بالمال والسلاح، فقلت له: إني أمين مال اللجنة المركزية لإعانات منكوبي فلسطين وإن مساعدتي للفلسطينيين في نطاق ذلك.

كلام فهمي أبي السعود عني كحجة ضدي

فسألني عما إذا كان بيني وبين فهمي أبي السعود عداوة، فقلت له: إني لا أعرف هذا الرجل قبل السجن، فواجَهَني معه أمام المحامي الفرنسي وقال: إنه يقول عنك إنك الزعيم الفلسطيني الذي يمد الفلسطينيين بالمال والمساعدات، فحاول فهمي تخفيف مدى هذا القول الذي يظهر أنه فعلًا قاله أمام المحقق الفرنسي عني، وقال: إنه لم يقصد تقرير كوني مدير الحركة الفلسطينية، وإنما قصد أن يقول إنه سمع أن الفلسطينيين يراجعونني ويطلبون مني بعض المساعدات، ويظهر أنهم اتخذوا قول فهمي حجة ضدي.

وقد طلب المحامي إطلاق سراحي بالكفالة، فرفض المستنطِق ذلك وقال: لا بد من محاكمتي موقوفًا. وكان جوابه مخيبًا للأمل الذي عُلِّق على المساعي في سبيل منع المحاكمة.

نشوب الحرب العالمية الثانية وتوقعاتنا بالنسبة لمصيرنا

وفي أول أيلول نشبت الحرب العالمية الثانية بزحف الجيوش الألمانية على بولونيا، وتجهَّمَ جو سوريا أيضًا وبتنا نعتقد أن مصيرنا أصبح معلقًا على مصير الحرب على كل حال، وأنه ليس من أمل في تساهل الإفرنسيين في قضيتنا التي لها صلة وثيقة بالإنكليز، وأصبح التضامن وثيقًا بكل شدة بين هؤلاء والإفرنسيين.

محاكمة نبيه العظمة* ورفاقه والحكم عليهم

وفي منتصف شهر أيلول حوكم **نبيه العظمة*** ورفاقه في محكمة عسكرية في بيروت وحُكم عليهم بأحكام شديدة، فكان هذا نذيرًا بأننا سنُحاكم أيضًا، وأن الإفرنسيين الذين أصدروا حكمهم للإرهاب على السوريين سيحذون هذا الحذو بالنسبة إلينا أيضًا.

ولقد ذكرنا قبل أن **نبيهًا*** وآخرين اعتُقلوا في أزمة الحكم والمعاهدة السورية الإفرنسية وأُرسلوا إلى تدمر وسُجنوا في قلعتها بدون حكم وقد شُدِّد عليهم حتى بلغ الأمر إلى تشغيلهم بأشغال شاقة من تنظيف المجاري إلى نقل الأحجار وتكسيرها وحُرموا من كثير من وسائل الحياة العادية، وأخذت الأصوات ترتفع بالاحتجاج والمطالبة بالإفراج عنهم أو محاكمتهم إذا كانت عليهم تُهَمٌ معيَّنة، وبعد أن لبثوا معتَقَلين في قلعة تدمر نحو شهرين على النحو المذكور نُقلوا إلى سجن عسكري في بيروت، وكان يقال: إنهم ليس عليهم تُهَمٌ معيَّنة وأنهم لا بد أن يُطلق سراحهم. وقد سُرِّح بعضهم فعلًا مثل حسن الخياط

ومنيب دياب وتوفيق القباني، وكان اعتقالهم ثم نقلُهم إلى بيروت وإطلاق سراح هؤلاء قبل اعتقالي.

التحقيق مع نبيه* في صدد أموال الإعانات

وقد اجتمعتُ مع حسن [الخياط] ومنيب [دياب] فأخبراني أنه ذُكر اسمي في سياق التحقيق مع نبيه* حيث حُقِّقَ معه أيضًا في مسائل إعانات، ولقد احتطتُّ فعلًا فأخفيتُ ما كان عندي من أوراق وحسابات.

عدم التحقيق معي في ذلك

ومن العجيب أن الإفرنسيين لم يحققوا معي في صدد الإعانات، وكل ما كان في صددها هو سؤال المحقق لفهمي أبي السعود عني وجواب فهمي ثم سؤالي عن جواب فهمي وجوابي عليه، ووقف الأمر عند هذا الحد.

ويظهر أن المهم كان عندهم هو اعتقالي بضغط الإنكليز بأي وسيلة، وهذا تيسَّر لهم بطريق الرسالة والمعمل، فاكتفوا بذلك.

ولقد ظلت قضية نبيه* ورفاقه الذين ظلوا موقوفين في بيروت بين مدّ وجزر وإشاعات إلى أن نشبت الحرب وصار الحسم في أمرهم أمرًا لا بد منه، فحوكموا وحُكم عليهم ثم أُرسلوا من بيروت مخفورين إلى دمشق، وسُجنوا في سجن القلعة، وكان ذلك أثناء اعتقالي.

وقد بلغني أنهم وجهوا لنبيه* ـ بالإضافة إلى ما وجهوه من تُهمة أموال فلسطين ـ تهمة غريبة أخرى وهي صلته الوثيقة بهتلر وموسوليني

وتلقيه منهما نحو ثلاثين ألف ليرة ذهبية لإثارة حركة ثورية واسعة في سوريا وأنه أرسل أخاه **عادلًا*** إلى بغداد لتأمين الاتصال بهتلر وموسوليني، وهذا من غرائب ومضحكات تلفيقات المخابرات.

ومما بلغني أنه سئل عن حركة وزحف هتلر على تشيكوسلوفاكيا فأجاب إجابة غامضة، فرأت المخابرات من إجابته توكيدًا للصلة المزعومة. ولقد كان **نبيه*** خطب يوم زحف الألمان على تشيكوسلوفاكيا في اجتماعٍ وحرَّض على المقاومة فسُجِّل عليه وكان موضوع السؤال والتحقيق حينما حوكم.

ولقد كان من الموقوفين مع **نبيه*** رجل اسمه **حسن دركل*** فلما سألتِ المحكمةُ العسكريةُ النيابةَ عن تهمة هذا الرجل قالت: إنه رجل وجيه في محلته ومرشَّح للمساعدة في الحركات الثورية المرتبة. وهذه صورة أخرى من غرابة وتلفيقات المخابرات، فليس للرجل أي وجاهة، وكان إمامًا لجامع المفوضية الإفرنسية التقليدي في دمشق، وهو من رجال **جميل مردم*** ويتردد عليه وقد اعتقلوه على احتمال أن يكون عينًا على موظفي المفوضية في حقيقة الأمر لأنه إمام جامعها.

وكان من المعتَقَلِين المحكوم عليهم **سيف الدين المأمون*** المحامي، وكانت تهمته إلقاء خطب حماسية وطنية.

وحُكم مع **نبيه*** شباب وطنيون منهم **محمود البيروتي***.

إزعاج أخي بالملاحقة والنفي إلى تدمر

وقد نغّص عَلَيَّ راحتي وطمأنينتي في سجن المزة حادثان وقعا

لأخي **محمد علي***، ففي صباح أحد الأيام بعد إعلان الحرب بأيام قيل لي: إن أخاك أُحضر إلى السجن وطلب له مني بعض الأغراض، فأقلقني ذلك كثيرًا، وقد رأيتُه فعلًا، ولكن إدارة السجن منعتْ اجتماعنا ببعض ووضعتْ أخي في عنبر من العنابر، واتصلتُ به بواسطة بعض المسجونين فأخبرني أيضًا بهذه الواسطة أن السلطات بعد إعلان الحرب أخذت تشدد كثيرًا على الفلسطينيين وتحركاتهم، وأنه اعتُقل بتهمة أنه يستلم أموال الإعانات بالنيابة عني من الشيخ محمد خير دياب أمين مال لجنة الدفاع عن فلسطين في سوريا الذي كانت تُرسل إليه الحوالات الواردة وهو يدفعها لي، وقد ظل يومين في مركز الأمن العام موقوفًا يحقق معه ثم أُرسِلَ إلى سجن المزة بأمر من جنرال دمشق بصفته رئيس الإدارة العرفية.

اعتقال الشيخ محمد خير دياب أمين لجنة الدفاع وضبط أوراق حسابات الإعانات

وبلغني أيضًا أن السلطات اعتقلت الشيخ محمد خير دياب أيضًا وضبطت دفاتره وحساباته المتعلقة بالإعانات، وبعد أن دققت فيها طويلًا وصادرت منه ما لديه من رصيد نقدي استبقت الدفاتر والأوراق الحسابية وأطلقت سراحه، وطمنني أخي [**محمد علي**]* بالواسطة بأن القضية غير هامة وأنه لن يلبث أن يُطْلَق سراحه لأنه ليس هناك أي دليل على قبضه دراهم من محمد خير دياب ودفعها للفلسطينيين، بالإضافة إلى أن هذا ليس جرمًا يستحق المحاكمة، وأن هذه المسألة ثارت بسبب ذهاب أخي إلى البنك وإجرائه بعض العمليات الصرافية

فيه حيث كان مراقَبًا من قِبَل بعض الجواسيس، فقدَّموا تقريرًا بذلك فاعتُقل، ولقد لبث في السجن نحو عشرة أيام ثم أُطلق سراحُه كما قدّر.

ولكن الفرحة لم تمتد لأن سلطات الأمن اعتقلته ثانية مع بعض الفلسطينيين والسوريين ونفتهم إلى تدمر، وعلمتُ أن السلطات أظهرت مظاهر إرهابية شديدة في سياق اعتقاله، حيث أُخذ من السوق إلى الأمن العام، وهناك أُرْكِبَ في سيارة عسكرية هو وأبو إبراهيم الصغير «الشيخ توفيق» أحد قادة الثورة وأُرسلا إلى تدمر. وقد وُضع المعتقلون السوريون والفلسطينيون معًا في قلعة تدمر بضعة أيام ثم أُخرجوا منها مع تبليغهم بالإقامة الجبرية في تدمر تحت رقابة الأمن العام.

بعض رفاق أخي في تدمر

وممن كان معه: الحاج أديب خير و**الدكتور محمد حجازي***
وسعدي الكيلاني وقد ظلوا نحو خمسين يومًا ثم أُعيدوا إلى دمشق. وكانت محاكمتي قد تمّت وحُكم عليّ ونُقِلْتُ من سِجْنِي في المزة إلى سجن القلعة في أثناء وجوده منفيًّا في تدمر. ولم يسألني أحد عن الإعانات التي كان يدفعها لي الشيخ محمد خير دياب.

فُتور حركة الثورة بعد اعتقالي وتشدُّد الإفرنسيين

وقد أخبرني أخي [**محمد علي**]* ـ حينما أُتِيَ به إلى المزة للمرة الثانية ـ أنّ حركة الثورة في فلسطين قد ازدادت فتورًا وشللًا بعد اعتقالي، وأن الموارد المالية قد نضبت أكثر من ذي قبل، وأنه وقع

ارتباكٌ وإزعاج كبيران بسبب ذلك إلى درجة أن أخي اعتَبَر أن سجني كان من حُسن حظّي، وأن ما كان من ارتباكٍ وإزعاج يفوق كثيرًا ما كان من ذلك بسبب سجني، سواء أكان ذلك في إدارة الحركة وتدبير احتياجاتها أم في جعلها تتماسك، وخاصة بعد إعلان الحرب وما أثاره جوُّها من توجُّس وتشاؤم.

وقد كان تأمين نفقات الفلسطينيين العديدين الذين كانوا في دمشق من أكثر المزعجات، ولا سيما بعد سفر المفتي [**الحاج أمين الحسيني**]* ورفاقه الخصوصيين إلى بغداد، حينما تجهّم الموقف وتجهم الإفرنسيون تجهمًا شديدًا لهم فضلًا عن غيرهم، فصار الموجودون في دمشق من الفلسطينيين المحتاجين للمساعدات يراجعون من بقي من إخواننا الذين لهم صلة بالحركة والإدارة ويجرؤون عليهم بالكلام والعتاب، ولم يكن في الإمكان تأمين شيء كثير مما كانوا يطلبونه أو يحتاجون إليه، وكان أخي ممّن أُزْعِجَ كثيرًا من هذا الباب، وقد أنفق من ماله مبلغًا غير قليل واعتبره دَينًا على الحركة سدَّده له المفتي من العراق.

حول سفر المفتي* من لبنان إلى العراق بسبب تجهُّم الموقف

وعلى ذكر سفر **المفتي*** أقول ـ وهذا مما هو مُسَجَّل في الدفتر ـ أن **المفتي*** كان متحسبًا من وقوع الحرب، وكثيرًا ما كان يفاتحني فيما يجب عمله إذا وقعت، وكنت أقول له: إن عليه حينئذٍ أن يغادر سوريا إلى العراق، لأن الإفرنسيين يتضامنون تضامنًا تامًّا مع الإنكليز وسيقفون موقفًا شديدًا من الفلسطينيين وحركتهم وسيساعدون على

القضاء على هذه الحركة وتشريد رجالها، وأنهم لن يتركوه يتمتع بحرية. وحالة حكومة العراق وجو العراق أقوى وأحسن، والراجح أن الإنكليز لن يجرؤوا عليه في العراق، وكان هذا رأيه أيضًا، فأخذ يدبّر أمر سفره إلى العراق ويدرس الطرق إذا ما وقعت الواقعة. ولما وقعت تحقق ما كنا نتحسّبه، حيث تجهّم الإفرنسيون للحركة وللفلسطينيين في سوريا ولنا، وأخذوا يعتقلون من تقع عليه أيديهم في دمشق، حتى أنهم اعتقلوا في الأسبوع الأول نحو مئة وخمسين بحجة عدم وجود جوازات معهم.

تشديد الرقابة على المفتي*

كما أخذوا يشددون الرقابة على **المفتي*** وجماعته، حتى أنهم أرسلوا ضابطًا ليكون رقيبًا رسميًّا في بيته، وقد نشطت المخابرات الإنكليزية كثيرًا فوضعت بين يدي سلطات الأمن الإفرنسية في لبنان وسوريا ملفًّا ضخمًا ضد **المفتي*** والفلسطينيين، وتحرَّج الموقف حتى صار اعتقال **المفتي*** ومَنْ حَوْلَهُ من الأعضاء واردًا وشيكًا، بل اعتبروه مُعْتَقَلًا في بيته ومنعوا كلَّ صلةٍ بينه وبين الناس.

تمكُّن المفتي* من الإفلات بنفسه وترك أسرته للتعمية

ولكنّ المفتي* لم يفقد أعصابه وحَسُنَ تدبيرُه، وتمكَّن في ليلة من الليالي من ركوب سيارة غادر بها المكان وحدَه تاركًا عائلتَه وأسرتَه في البلاد للتعمية على الأغلب، وسارت به بحذر شديد إلى دمشق، ومنها بدون توقُّف إلى العراق عن طريق تدمر ودير الزور، وظل أَمْرُ سفرِه مكتومًا أو مجهولًا حتى صار ناجيًا. وقد اغتاظ الإفرنسيون

شديدًا من سفره المفاجئ السري كما علمتُ، ولكنهم أرادوا سَتْرَ غيظهم فصاروا يقولون: إنهم لم يكونوا ليعتقلوه ويغدروا به وهو في حمايتهم.

رسالة المفتي* للمندوب السامي

وقد ترك هو رسالة موجَّهة للمندوب السامي وصّى بإرسالها إليه بعد سفره بأربع وعشرين ساعة على الأقل، شَكَرَهُ وشَكَرَ فرنسا فيها على ما لقيه من الإفرنسيين إبّان وجوده في لبنان من رعاية، واعتذر عن اضطراره للسفر بسبب الظروف الحاضرة لئلا يسبّب لهم مشكلة وإزعاجًا.

صار احتمال شدتهم نحوي هو الأقوى، بعد ما كان إطلاق سراحي وإقامتي الجبرية في بيروت محتملًا

وقد قيل لي: إن سفر **المفتي*** كان من العوامل التي جعلت الإفرنسيين يقفون من قضيتي موقف الشدة والحزم ويقرون الحكم عَلَيَّ بعد أن كانوا يَعِدُون بإطلاق سراحي في نهاية المحاكمة ليكون ذلك نتيجة المحاكمة ويبرروا به موقفهم أمام الإنكليز.

وقد اطلعتُ على كتابٍ وَرَدَ من القيادة إلى إدارة السجن في المزة يبلِّغها فيه بأنّ المفوَّض السامي قرر إقامتي الجبرية في بيروت حين إطلاق سراحي، مما يدل على أن إطلاق سراحي كان مقرَّرًا ووشيكًا، فصدر أمر القيادة مسبقًا من أجل ذلك، ولا يمكن أن يكون قصد به «بعد إطلاق سراحي بعد تمضية مدة الحكم». وقد ورد هذا أيضًا في كتاب ورد إلى إدارة السجن يطلب منها تحصيل الغرامة مني، وقد

جعل هذا مستشار السجن يظن أن هناك احتمالًا بإطلاق سراحي، ولو أني سأكون مجبرًا علي الإقامة في بيروت حيث أكون حرًّا على كل حال. وتوهمتُ الأمرَ جدًّا، وأرسلت إلى أخي خبرًا واهتم هو ودبَّر المبلغ ودفعه، ووقف الأمر عند هذا الحد. ولا أستطيع أن أُعلِّل هذا إلا بقصد إرضاء الإنكليز ولا سيما قد نشبت الحرب وصار التضامن معهم واجبًا إفرنسيًّا ملزمًا.

حول طبع كتابي «دروس التاريخ العربي» في بغداد، وشؤوني وشؤون أخي المالية

وقد أرسل **أكرم زعيتر*** وهو في بغداد كتابًا إلى أخي وأنا في سجن المزة يخبره فيه أن وزارة المعارف العراقية قررت إعادة تدريس كتابي «دروس التاريخ العربي» على أن يُحْذَف منه كل ما له علاقة بالشيعة وأخبارها، وعلى أن تنقص ثمن النسخة قليلًا عن ذي قبل، ويُقَدَّر عدد النسخ التي يمكن بيعها منه باثني عشر ألفًا، وكنا قَبْلُ سَعَيْنَا حتى جَعَلْنَا إدارة معارف بغداد تُقَرِّر تدريسَه على شرط تعديل الكلام عن الشيعة فعَدَّلْناه تعديلًا لا يؤثِّر في السياق العلمي التاريخي. وكان القصد تربويًّا وقوميًّا حتى تخفّ أسباب الكراهية والتنافر بين السُّنَّة والشيعة، ويظهر أن وزارة المعارف أرادت خطوة حاسمة بحذف كل شيء عن الشيعة في الكتاب للقصد نفسه. ولم أَرَ بأسًا في التعديل الجديد، وأجريتُ التعديل وأنا في سجن المزة دون أن يَطْرَأَ على جوهر الموضوع التاريخي تشويه كما فعلتُ قَبْلُ، واتفق أخي مع ياسين عرفة على طبع الكتاب بإشرافه، وهو كتبيٌّ في ساحة باب جامع

بني أمية، وتم الطبع وشُحِنَتْ النُّسَخ إلى العراق، وكان كسبنا من هذه الطبعة خمسمئة جنيه، وقد طُبع الكتاب طبعة ثانية في بغداد في السنة التالية وأنا في سجن القلعة، وكان رِبْحُنا من هذه الطبعة ثلاثمئة جنيه. وهكذا يجيئنا في سنة واحدة من هذا الكتاب ثمانمئة جنيه. وكان **لأكرم زعيتر*** جهود مشكورة في ذلك، وجاء هذا فَرَجًا لنا، لأننا كنا نأخذ قسمًا من نفقات البيت من الإعانة وصار هذا متعذّرًا، وقد أرسل أخي نصف هذا المبلغ إلى محلّ عمّان لتقويته، واحتفظ بالباقي.

ومما وجدتُه مُسَجَّلًا في هذه النبذة أن لجنة الإعانات في بغداد أرسلت بمسعى **الحاج أمين [الحسيني]*** وهِمَّتِه إلى أخي أثناء سجني مساعدات لا بأس فيها، منها قسم للإسهام في نفقات البيت بحساب عشرين جنيهًا في الشهر طيلة شهور سجني، ومنها لتسديد نفقات دراسة زهير في الجامعة الأميركية في بيروت، ودراسة سلمى في المدرسة الأميركية في صيدا عن هذه السنة، ومنها تسديد نفقاتي الخاصة في السجن ونفقات المحامين، ومنها لتسديد ما كان أخي دفعه منه بعد اعتقالي للحركة وللفلسطينيين وصار دينًا له، وأظن أن جميع هذه المساعدات بلغ نحو سبعمئة دينار، ومنها مقابل دَين أخي.

قد أرسل **عوني عبد الهادي*** من مصر نحو سبعين جنيهًا إلى أخي على دفعات للإسهام في نفقات المحامين والسجن أخذها من مبالغ خصصتها حكومة مصر لمساعدة الفلسطينيين وألحّ علينا بقبولها، ونتيجة لذلك كله تماسكت حالة أخي المادية واستطاع أن يقوم ببعض أعمال تجارية، وكان يأتيه من محلّ عمّان نحو عشرين جنيهًا في

الشهر، وصار في حوزته عند خروجي من السجن نحو ألف جنيه زائدة عن نفقاتنا، وإلى هذا فإن أخي أخبرني بعد خروجي أن محلّ عمَّان نشط نشاطًا حسنًا في ظروف الحرب وأصاب نجاحًا، وأن هناك أملًا باتساع ذلك.

وقد أدخل كل هذا على نفسي طمأنينة بالنسبة لمستقبل حياتنا وحياة أولادنا، وقد ساعَدَنَا هذا حينما اضطررنا إلى الهجرة إلى تركيا، حيث أَخَذْنَا قسمًا مما في الحيازة وتركنا قسمًا في البيت وتركنا قسمًا كأمانة عند الحاج أديب خير يمدّنا بها أو يمد البيت بها، وأَرْسَلْنا قسمًا إلى راشد دروزة لعله يستطيع أن يشغّلها ويربح لنا بها في ظروف الحرب. والحمد لله أولًا وآخرًا ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾.

وهنا ينتهي الدفتر الأول الذي كتبناه في تركيا في أواسط سنة ١٩٤١م، ونُنَبِّه على أن ما كتبناه في هذا الدفتر وأعدنا تدوينَه في الجذاذات قد كتبناه من ذاكرتنا وبعد مرور سنين على ما أوردناه فيها، وقد نكون أخطأنا في الأسماء والأحداث ونسينا أشياء كثيرة أيضًا.



الدفتر الثاني

أحاديث أخبار الحرب في سجن المزة، وتخمينات وتوقعات مستقبل بلاد العرب

لقد شغلت أخبار الحرب واحتمالاتها حيزًا كبيرًا من أذهاننا وأحاديثنا في سجن المزة أنا وفهمي أبو السعود وعرفان الجلاد ونجيب الريس، وكانت الإشاعات وأحاديث الصحف من وسائل ذلك ومادته، ومن جملة ذلك أن اتفاقًا تمّ بين الإفرنسيين والإنكليز والعراق على توحيد الجبهة واشتراك العراق. وقال لنا بعض السّجّانين الإفرنسيين: إنه يُحتمل أن يأتي بعض الطوابير من العراق إلى سوريا تنفيذًا لذلك. واستبشرنا بذلك حيث يمكن أن يُمَهَّدَ به سبيل اتحاد العراق وسوريا إن لم يكن عاجلًا فآجلًا، مع احتمال وقوف الإفرنسيين من ذلك موقف الرفض، ولقد كان كلام سابق قبل الحرب في صدد حل قضية فلسطين بطرق إقامة وحدة فلسطينية أردنية سورية عراقية يكون لليهود في نطاقها كانتون، فلم يَرُقْ ذلك للإفرنسيين، والإفرنسيون حسّاسون جدًّا لذلك، حتى لقد كانت ممانعتهم لسفر **فارس الخوري*** كعضو في الوفد البرلماني إلى لندن منطلقة منه حتى لا يكون لسوريا رسميًّا تدخل ونشاط واشتراك في قضية فلسطين قد يؤدي إلى انسجام ما أو اندماج ما.

ولقد أرادت الحكومة الإنكليزية أن تدعو سوريا ولبنان إلى مؤتمر

لندن في أواخر عام **١٩٣٨** بعد إعلانها إلغاء التقسيم وقرارها بعقد مؤتمر عربي إنكليزي يهودي للنظر في حل القضية على أساس التقسيم، واستمزجت فرنسا فأظهرت عدم ارتياحها لهذه الدعوة، ممّا هو متصل بذلك. وقد أخبرنا **سعد الله الجابري*** وزير الخارجية السورية آنذاك بذلك وألححنا عليه إقناع المندوب الإفرنسي الكونت أورستروغ بذلك لأننا كنا نود اشتراك سوريا خاصة في المؤتمر، ولكن **سعد الله*** قال لنا: إن ذلك عبث لأن الإفرنسيين متخوفون من كل حركة إنكليزية في صدد سوريا، وكنا قلنا **لسعد الله*** أن يكون الكلام من نقطة أن اشتراك سوريا يجعل لفرنسا أصبعًا في قضية فلسطين وفي شؤون الشرق العربي وهذا فيه فائدة سياسية وغير سياسة لها، وهم مخطؤون في عدم تجاوبهم. ولكن **سعد الله*** قال: إن عند الإفرنسيين عقدة من الإنكليز وثقتهم فيهم مفقودة ولا يستطيعون مباراتهم ومجاراتهم في أساليبهم، وكل حركة سياسية عربية يكون فيها الإنكليز والإفرنسيون تنتهي باندحار هؤلاء أمام الإنكليز، ولذلك فهم يفضلون أن يكونوا سلبيين لئلا يتعرضوا للخيبة والاندحار.

المحاكمة أمام المحكمة العسكرية، وما جرى فيها، والحكم عَلَيَّ مع رفاقي في القضية

بعد استنطاقنا من قبل المستنطِق العسكري بأيام جاءتنا أوراق الاتهام وعُيِّنَ فيها تاريخ ٤ تشرين ثاني عام **١٩٣٩**م موعدًا للمحاكمة، وأُمِرَ في الأوراق بسَوْقِنا موقوفين إلى المحكمة. وقد بُنِيَتْ التهمة على قانون الجزاء الإفرنسي العسكري، وذُكِرَ فيها أنها تهمة صُنْع وحيازة

مواد متفجرة قنابل، وذكرت المادة التي نحاكم بها وتقضي بسجن من تثبت عليه التهمة من سنة إلى خمس سنين وغرامة من مئة إلى ثلاثة آلاف فرنك.

وفي اليوم المُعَيَّن أَخَذَنا الدركُ إلى المحكمة العسكرية التي كان مركزها في شارع الصالحية وكانت مؤلفة من ضباط فرنسيين برتب متنوعة. وكلمة «أَخَذَنا» تعني أنا وجميع المُتَّهَمِين معي من فلسطينيين وشاميين. وقد عَيَّنَتِ المحكمة وكيلًا محاميًا ضابطًا للمُتَّهَمِين الذين لم يوكلوا محامين إفرنسيين، وحضر المحامي الإفرنسي زهار وكيلًا عني وعن فهمي أبي السعود الذي وكَّلَه أيضًا، ودامت المحاكمة من الصباح إلى المساء مع فترة ساعة الغداء قضيناها في بناء المحكمة طبعًا، ولم أكد أسمع شيئًا مما دار فيها، ولكن فهمي كان ينقل لي بعض الخلاصات، وقد سألتِ المحكمةُ المُتَّهَمِين عن هويتهم أولًا ثم ذكرتْ لكلٍّ منهم تهمَتَه وناقشتْه في أقواله المُسَجَّلَة عليه في الدرك الإفرنسي أولًا ثم لدى المُسْتَنْطِق الإفرنسي، وأحضر الدرك بعضَ الشهود المحليِّين على قنابل وُجدت مدفونة في أرضية المعمل وبقايا وُجِدَتْ في محلات الحدادين. وسألتني المحكمةُ عن الحشد الكبير الذي كان في بيتي يوم اعتقالي وعن مركزي في حركة فلسطين وزعامتي فيها وإمدادي للثورة الفلسطينية بالمال والسلاح، وكانت إجاباتي مقتضبة. وتلت المحكمة رسالة الحاج نديم أبو طه وناقشتني فيها أيضًا، وانتهى كل ذلك في فترة قبل الغداء ورُفعت الجلسة

للاستماع إلى أقوال الادعاء والدفاع (النيابة من جانب والمحامين من جانب).

وقال لنا المحامي الإفرنسي بعد أن انتهت المناقشة: إنه ليس أمام المحكمة أدلة قضائية تدينني، وأنه يأمل أملًا قويًّا بمنع محاكمتي..

وفي الفترة الثانية ألقتِ النيابةُ بيانًا طويلًا جدًّا قال لي فهمي أبو سعود: إن المفتي وحركة فلسطين وثورتها شغلت جزءًا كبيرًا منه، وقد اعتبر الادعاء الفلسطينيين المُتَّهَمِين في القضية مجرمين أصليين، وهو يقصدني ويقصد فهمي أبا السعود، وطلب الحكم عليهم بأقصى عقوبات المادة، واعتبر السوريين الحدَّادين والخرَّاطين والكهربائيين مخدوعين.

دفاع المحامي الإفرنسي الحار عني وعدم جدواه

وألقى محامينا دفاعَه، وكذلك فعل الضابط الموكل عن المُتَّهَمِين الآخرين، ودخلت المحكمة للمشاورة وسرى الهمس أن حكمًا شديدًا سيصدره ضدي وضد فهمي، وتوارى محامينا الإفرنسي خجلًا. وقد ذكر لي فهمي أنه دافع دفاعًا حارًّا وأنه فَنَّدَ التُّهَمَ الموجَّهَةَ ضدّي بخاصة واعتبرها جوفاء لا تستند إلى واقع ولا أدلة، وقال: إنه لم يصدر منه شيء ولم يَثْبُتْ أنه كان بيني وبين المُتَّهَمِين بالصناعة أو الحيازة أي نسبة أو معرفة، وأنه ليس في رسالة الحاج نديم شيء صريح، وطلب من المحكمة ألا تتأثر بغير القانون، وأن هذا مما يقتضي به شرف فرنسا وتقاليدها الحرة، وأنه لا يجوز إغفال ذلك مراعاة للإنكليز والاعتبارات السياسية، وأن على الإفرنسيين أن

يتذكروا أن الإنكليز لم يراعوا مثل ذلك أثناء الثورة السورية، وأنهم حموا السوريين في شرق الأردن وفلسطين ولم يطاردوهم ولم يسوقوهم إلى المحاكم إلخ. وهذا كله الذي عنيناه بدفاع المحامي الحار. وذهب هذا الدفاع هباء، فقد أعلنت المحكمة حكمَها علي بالسجن خمس سنين وبغرامة ألف فرنك، وعلى فهمي بثلاث سنوات، وعلى اثنين من الفلسطينيين ـ وكانا مُتَّهَمَين ـ وهما الحاج يوسف الجباوي من القدس وسعيد العبد الهادي من برقين بسنتين، وعلى محمد شبيب الكهربائي بسنة، وعلى الحدَّاد والخرَّاط ناقل القنابل في سيارته بستة أشهر، وعلى واضع سلة القنابل بالخزنة ومَنْ صَنَعَ نموذجًا لها بأربعة أشهر، وحُكِمَ على محمود علاء الدين والحاج نديم أبو طه اللَّذَيْنِ ورد ذكرهما مرارًا بالسجن خمس سنين غيابيًّا، وعلى الحاج عارف الجاعوني بالسجن ثلاث سنين غيابيًّا، وعلى سائق سيارة دمشق مثله غيابيًّا أيضًا، وهذان الأخيران لم يُذْكَرا في التهمة، وإنما ذُكِرَتْ أسماؤهما ونشاطهما في تقارير جواسيس تلاها النائب العسكري العام. ولقد ذكر بعض المتهمين بشهود أن القنابل كانت في بيت تيسير الديراني وأنها صودرت منه، ولكن لا النيابة جلبت وحققت مع تيسير ولا المحكمة تطرقت إلى ذكره، فقد كان جاسوس الدرك هو الذي مدّهم بتقاريره التي بُنِيَتْ القضيةُ عليها في الأصل.

توقُّعي الحكم ومقابلته برباطة جأش

وقد تلقَّيتُ الحكم بصبر ورباطة جأش، فكنتُ متوقِّعًا له بالرغم

عن تطمين المحامي، لأني أعرف أن توقيفي كان لمراعاة الإنكليز وأن أمرَنا أصبح رهن مصير الحرب، ولا يُعقَل أن يُطلق سراحي، وقد اعتقل الإفرنسيون ونفوا من وجدوه أمامهم من الفلسطينيين في دمشق وغيرها. وكان الحكم الشديد على **نبيه العظمة*** ورفاقه مقدِّمة واضحة، وكان الحكم مُزيلًا للقلق النفساني الذي كنتُ أعانيه قبل الحكم، واليأس إحدى الراحتين كما يقال. ومع ذلك فقد اقترفتُ غلطة مازلت أستغربها، وهي أن إدارة السجن سألتنا إذا كنا نريد الاعتراض على الحكم فأجبتُ بالإيجاب، وفي صباح اليوم التالي أخذونا إلى مركز المحكمة وسجّلوا رغبتنا في الاعتراض، كما هي العادة، وقيل لنا: إنه إذا قُبِل اعتراضُنا تُعاد محاكمتنا ثانية أمام محكمة عسكرية أخرى في بيروت أو حلب، وجاءنا بعد عشرة أيام خبر بأن اعتراضنا قد رُفِضَ وكان في أصله عبثًا.

أخي كان في تدمر أثناء محاكمتي

وكانت المحاكمة في حين كان أخي **محمد علي*** منفيًّا في تدمر، وكان أكثر إخواننا في سوريا ولبنان قد غادروها إلى العراق، أو أكثر الذين لم يستطيعوا مغادرة سوريا كانوا مُعْتَقَلِين أو منفيِّين، وكان زهير في دمشق وهو الذي دبَّر للمحامي بقية أجرته، وقد طمأنتُه وثَبَّتُّ نفسَه وطلبتُ منه أن يُثَبِّتَ جَدَّتَه وعَمَّتَه وشقيقاتِه، وشجَّعْتُه على الذهاب إلى جامعته في بيروت وإرسال أخته إلى مدرستها في صيدا.

الاعتراض على الحكم والرغبة في البقاء في المزة وعدم جدوى ذلك

وقد وددتُ أن أقضيَ مدة سجني في سجن المزة، لأن الأخبار

التي كانت تأتينا عن حالة سجن القلعة وعنابره وازدحام المسجونين فيها وعدم إمكان الإقامة في غرفة خاصة صغيرة كما هي الحالة في المزة كانت تزعجني بعض الإزعاج، ولكن هذا لم يمكن، فإننا بعد أن بُلِّغْنَا رَفْضَ الاعتراض بنحو عشرة أيام أُرسلنا إلى هذا السجن، وكان ذلك في تاريخ ٢٤ تشرين الأول عام ١٩٣٩م. وهكذا تكون مدة إقامتنا في سجن المزة أربعة أشهر وعشرين يومًا.

ما استفدتُه من حفظ القرآن، و[ما] كتبتُه من مواضيع أخرى في المزة

وفي سجن المزة تمكنتُ من حِفْظ نحو ثُلُثَي القرآن أو أكثر قليلًا، وكتبتُ مقتطفات من قراءته وتعليقات وشرح عليها، واحدة عن اليهود في عهد النبيّ ﷺ، وثانية عن المنافقين، وثالثة عن الجهاد النبوي، ورابعة في تعليمات القرآن في حياة الإنسان الدنيوية. وكان ذلك بمثابة تمهيد لما كتبتُه في سجن القلعة أو استمررت عليه، وكانت المواضيع الثلاثة من مواضيع كتابي: «في السيرة النبوية»، والموضوع الرابع من أصول كتابي: «الدستور القرآني» الذي كان اسم مسوّداته: «تعاليم القرآن». وقد وضعتُ منهجًا لكتابته عن «عصر النبي ﷺ وبيئته قبل البعثة» اقتباسًا من القرآن أيضًا. وقد شرعتُ في إتمام هذا المنهج حال ما نزلتُ إلى القلعة، وكنتُ أقرأ لعرفان ونجيب بعضَ المقتبسات والتعليقات في المواضيع الأربعة فأسمع منهما ارتياحًا وتشجيعًا وخاصة عرفان الذي كان يُطنب فيما كتبتُ مادةً وأسلوبًا ويقول: إن

الشباب في أمسّ الحاجة إلى مثل ذلك حيث يتعرفون على القرآن من هذا الأسلوب.

ولا أُنكر أنّ ما كنتُ أسمعه جعلني أستمرّ في العمل في المزة، وزاد في القلعة بعدها إلى أن يسّر الله وأتممتُ في القلعة مسودات ثلاثة كتب بلغتْ صفحاتُها ألفين، وكانت في أسلوبها طريفة كل الطرافة، لم يُسبق إليها، لأن آيات القرآن كانت مادتها الوحيدة تقريبًا. وهذه الكتب هي: «عصر النبي ﷺ وبيئته قبل البعثة» وبلغ ما كتبتُ من المسوّدات ستمئة صفحة، و«فصل من السيرة النبوية» وبلغ ما كتبُ ثمانمئة صفحة، و«تعاليم القرآن» وبلغ ما كتبتُ ستمئة صفحة.

إعادة أخي [محمد علي]* من تدمر

وقبل إرسالي إلى سجن القلعة أُعيدَ أخي من تدمر على شرط الإقامة الجبرية في دمشق وإثبات وجوده ثلاث مرات يوميًّا في دائرة الأمن العام، وقد أعادتْ إعادتُه السكينةَ في نفسي بالنسبة له وبالنسبة للنساء والأولاد في البيت.

إرسالنا إلى سجن القلعة

وفي صباح السبت المصادف لتاريخ ٢٤/ ١٠/ ١٩٣٩م أُرْسِلْنا إلى سجن القلعة الذي كان يُسَمّى السجن الملكي، وأظن أن الكلمة كانت تعني «المدني»، وكنا تعرّفْنا على مديره أو مستشاره الإفرنسي الذي كان يزور المزة من حين لآخر، وقد التمسنا من مدير المزة أن يوصي هذا المستشارَ لوضعنا في مكان مناسب. كما أن زهيرًا **وأخي [محمد علي]*** حينما عاد، سَعَيَا بذلك لدى هذا المدير.

ولما دخلنا ساحةَ السجن ورآنا المديرُ أَمَرَ بوضعنا في العنبر (٢) متر وقال لنا: إنه يضعنا في أحسن عنبر عنده، واستدعى عريفَ هذا العنبر ـ وهو من المسجونين فيه ـ ووصّاه خيرًا بنا، وأرسل أخي ما نحتاج إليه من فراش وأدوات.

وصف العنبر

ودخلنا العنبر فإذا هو مظلم لا يكاد يُرى ما فيه ومن فيه إلا بصعوبة، وفيه نحو أربعين سجينًا، منهم بعض رفاقنا في القضية. وقد ظهر لنا أن معظم من فيه من طبقة حَسَنَة المستوى نوعًا ما، وقد فَرَشَ بعض المساجين فَرْشَتِي وفَرْشَة فهمي أبي سعود في الطاق أو الدائرة التي ينام فيها العريف وعرضُها متران ونصف، فكنا ننام ثلاثتنا فيها، وفهمنا فيما بعد سبب قول مدير السجن: إنه يضعنا في أحسن عنبر عنده، فإن العنابر الأخرى مزدحمة جدًّا وفيها ما هو أشد ظلامًا، والطبقة التي في عنبرنا أنظف على العموم من غيرها. وقد احتفى بنا العريف واسمه حكمة [الجرّاح]، ولم نلبث أن استأنسنا في منزلنا الجديد وزالت عنا وحشته وخلعْنا بدلاتِنا ولبسنا البيجاما التي ظلت لباسَنا طوال مدة إقامتنا في سجن القلعة، وكانت كذلك طوال إقامتنا في سجن المزة.

زيارة أخي* الأولى لي وحالته المثيرة

في صباح الثلاثاء جاء أخي [**محمد علي**]* لزيارتي، ولا أنسى انفجاره بالبكاء على شبّاك الباب الذي وقفنا أمامه من الداخل حينما

رأى العنبر وظُلمته وازدحامه، وعبثًا حاولت تسكنيه وتطمين نفسه، حتى لقد ثرتُ عليه على ما أبداه من ضعف أمام أمر واقع لا مناص منه ولا غضاضة منه، ولم يستطع أن يبقى طويلًا، وسارَعَ إلى محامٍ وأتى به إلى السجن ليتوسط مع المدير أو المستشار ـ والكلمة الأخيرة هي اللقب الرسمي له ـ في وضعي في مكان أحسن والعناية بي. وجاء معهما إلى العنبر وقابلاني وأراهما ما عليه العنبر من نظافة وقلة ازدحام بالنسبة لغيره، ثم وعدهما خيرًا بالعناية، وفعلًا فإنه بعد يومين نقل من العنبر عشرين سجينًا ولم يبق فيه إلا نحو عشرين كانوا أحسن الموجودين طبقة ونظافة، وخصص لي ولفهمي أحسن الطاقات في العنبر نورًا وهواء، وفيها شبّاك مطل على الساحة، وأمر السجانين من الدَّرَك ـ وكانوا عربًا ـ بِتَرْكِي حُرًّا في ساحة السجن المُعَدَّة لمشي المسجونين فترة المشي المقررة وعدم إلزامي بالدخول حين انتهاء المدة.

وسمح لي باحضار ما طلبتُ من كتب ودفاتر وكرسي ومنضدة صغيرة أضعها على رصيف في ساحة الممشى لأقرأ وأكتب حينما أشاء في الهواء الطلق، وكان الطقس خريفًا جميلًا.

نقل فهمي [أبو السعود] إلى عنبر داخلي وسببه

ثم انفردتُ في الطاق، فقد نقل المستشارُ زميلي فهمي إلى أحد العنابر الداخلية بسبب رعونة وثرثرة بدت منه.

ولقد كان أُتي **بنبيه العظمة*** ورفاقه من بيروت بعد الحكم عليهم وقبل نزولنا إلى القلعة ووُضعوا في عنبر من عنابر السجن الداخلية،

فلما علم بمجيئنا أرسل بعضَ الهدايا وورقةً بالترحيب ثم أرسل ورقةً يقترح فيها أن أطلب الانتقال إلى عنبره لنكون معًا، ويظهر أن الورقة مرت على إدارة السجن وقرأها المستشار وأمر بتسليمها لي وأخذ جوابي عليها حتى تكون الإدارة على علم بما يجري من مكاتبات بيننا، ولما جاء الرسول ومعه الورقة التقطها فهمي وقرأها ثم قال له: سلِّم على البيك وقل له: إننا سنسعى في تنفيذ اقتراحه، وظن المستشار الذي بلغه ذلك أن المخابرة هي بين فهمي وبين **نبيه***، وكان عَلِمَ من قبلُ أن فهمي كثيرَ الكلام طويلَ اللسان، فأمر بنقله إلى عنبر **نبيه بك*** في السجن الداخلي، ويُعْتَبَرُ عنبرُنا أحسن لأنه في الهواء الطلق وغير مزدحم بالناس وغير ملاصق بعنابر عديدة.

وعلمتُ فيما بعد أن فهمي أساء الظن بي وتوهَّمَ أني أنا الذي سعيتُ لإبعاده عني استغلالًا له، رغم ما كان لا بد أنه عرفه من أخلاقي وترفُّعي عن الوشايات والأذى، ولكن الرجل رقيع سخيف على ما أشرتُ إليه سابقًا، وقد عرفتُ بعد أنه ابْتُلِيَ بالنميمة بين الناس، ويتناولهم ويكذب عليهم حتى صارت هذه الأخلاق معروفة عنه لدى المسجونين في أيام قليلة، وقد علمتُ أن **نبيه*** زَجَرَهُ على كثرة كذبه ومغيبته للناس وما يختلقه عليّ وعلى غيري، وعلمتُ أنه انتقد سماح الإدارة لي بامتياز التنزُّه والبقاء وحدي في الساحة، وقد كان ذلك سببًا لمنعنا مدة من الزمن من هذا الامتياز.

موافقة الشيخ يوسف الجباوي على القيام بمهماتي

بعد أن انفردتُ في الطاق اتفقتُ مع الشيخ يوسف الجباوي

المقدسي المحكوم في قضيتنا على القيام بأودي في السجن وتهيئة طعام وأغراض ونظافة إلخ، وبذلك تأمَّنَتْ راحتي، وعدتُ أستغرق فيما كنت بدأته في المزة من حفظ القرآن والكتابة في المواضيع الثلاثة، والشيخ يوسف هذا كان درس في الأزهر سنة أو سنتين وحفظ القرآن أو كثيرًا منه وساعدني هذا على الاستمرار في الحفظ والتذكر.

وقد أُتي إلى عنبرنا ببعض مسجونين من طبقة نظيفة متعلمة نوعًا ما، فصار العنبر بذلك أحسن حالًا ماديًّا ومعنويًّا، وصارت إدارة السجن تخصه بعنايتها وتأتي بمن تراه نظيفًا ومستواه حسن من المسجونين المستجدين وتنزله فيه وتنقل إليه بعض السجناء القديمين النظيفين مَنًّا عليهم بأنها تأتي بهم إلى العنبر الممتاز، حتى لقد صار هذا العنبر وسيلة لجر المغنَم والربح لإدارة السجن ومستشاره بواسطة عريفه.

تسجيلات عن أحوال السجن المتنوعة

وقد سجلتُ في دفتري بعد ما تقدم كثيرًا مما رأيتُ وسمعتُ وعلمتُ من أحوال سجن القلعة وبنائه وإدارته ونظمه وحياة المسجونين المتنوعة فيه وصورًا لشخصيات تعرّفتُ عليها فيه، فرأيتُ أن أُبقي ما دوّنت لأن فيها تاريخًا وصورًا من حياة عشتها وصورًا أخلاقية واجتماعية متنوعة، ولكل ذلك فيما أظن فائدة من جهة وهو متسق مع عنوان المذكرات من جهة أخرى.

بعد هذا التمهيد أشرع في إيراد ما سجلت.

شيء عن القلعة ويخصص قسم منها للسجن

إن هذا السجن سُمِّيَ بسجن القلعة لأنه في قلعة دمشق القديمة

الكبرى، وقد أُدخل على بعض أقسامها إصلاحات لتُكَوِّنَ هذا السجن الذي يَتَّسِعُ لنحو ألف سجين. وهذه القلعة ـ مثل سائر قلاع المدن الكبرى ـ في بقعة مرتفعة مُشرفة على المدينة والغوطة، مُعَدَّة للدفاع عن المدينة والحصار فيها، وهي واسعة، والسجن هو بعض أقسام منها، وكان ذلك منذ العهد العثماني، وكان يقيم في باقي الأقسام جند ودَرَك ولا يزال إلى الآن في بعض الأقسام فريق من الدَّرَك، وفيه بعض دوائر عائدة للدَّرَك.

والقلعة قديمة الأصل أُدخل عليها تعديلات وإضافات في أدوار عديدة، ففيها الطراز الروماني ويكاد يكون أساسها، وفيها الطراز العربي القديم، وفيها الطراز المملوكي، وفيها الطراز التركي الأوسط، وفيها الطراز التركي الحديث، وتبدو هذه الطرازات في كل قسم من أقسام القلعة تقريبًا.

ومدخل بوابتها الكبرى المؤدية إلى سوق العصرونية عظيم، وعليه كتابة تاريخية، وهذا يدل على أن القوات والدول التي تداولت ضَمَّ الشام ـ أو دمشق ـ قد اصطلحت على اتخاذ القلعة مركزًا لجندها، وأحيانًا لحكومتها. وكانت كلما دخلت قوة ودولة رمَّمَتْ وأصلحت فيها، وليس هذا شأن قلعة دمشق فقط بل هو شأن جميع قلاع المدن الكبرى.

وقلعة دمشق تكاد تكون في وسط المدينة ومركزها، وهي الجامع الأموي الكبير والسوق المركزي الكبير «سوق الحميدية» اليوم ومتفرعًا

إلى سوق مدحت باشا اليوم وما حوله، كل ذلك يؤلِّف مركز المدينة ووسطها. ومثل هذا في حلب من حيث مركز القلعة وما يقع في منطقتها من الأسواق الرئيسية والمسجد الكبير والأحياء القائمة فيها، مع التنبيه على أن قلعة دمشق عامرة بالسكان سجناء ودوائر درك، وقلعة حلب تكاد تكون أنقاضًا.

السجن الداخلي والسجن الخارجي وحالتهما

وسجن القلعة قسمان داخلي وخارجي. والداخلي معدٌّ للمحكومين بأحكام طويلة على الأغلب، والمسجونون في هذا القسم لا يكادون يرون من الدنيا الخارجية غير السماء من الساحة المكشوفة، التي يقضون فيها ساعتين بمشيهم في الصباح والمساء بين جدران العنابر المرتفعة، وفي هذا القسم عدة عنابر، منها ما فيه سبعون سجينًا ومنها ما فيه مئة، بل ومنها وما فيه أكثر، وأحيانًا أقل.

ومن هذه العنابر ما أمكن إصلاحه فصارت تدخل إليه الشمس والضوء، ومنها ما يزال كالإسطبلات القديمة محروم من الشمس والضوء، وأحد هذه العنابر يسمى «الجورة» لأنه سرداب تحت الأرض يُنزل إليه بدرج طويل وليس له أي شباك في جدرانه، وقد فتح في سقفه بعض الفتحات، ولكنها لا تكاد تبدد ظلامه الدامس في النهار فضلًا عن الليل. وفي هذا القسم عنبر جعل مستشفى للمرضى المسجونين الذين لا يحتاجون إلى عمليات، ومدة طويلة. وفيه كذلك محل للطبيب والصيدلية وفيه مطبخ السجن وفيه عنبر خُصص لمسجوني الأحداث أيضًا.

أما القسم الخارجي فهو المُعَدّ لذوي الأحكام الخفيفة والموقوفين رهن المحاكمة وفيه عنابر علوية وعنابر سفلية ويحشر في بعض هذه العنابر أيضًا خمسون ومئة بل وأكثر، وهذا ما جعل لعنبرنا امتيازًا في وقت ما لأنه لم يكن فيه إلّا ثلاثون أو أقل، ونادرًا أكثر.

وللعنابر العلوية بعض الشبابيك التي تأخذ ضوءًا أو شمسًا وتُطل على بعض المناظر الخارجية، أما السفلية فهي لا تفرق عن الإسطبلات القديمة من حيث الطلاء والرطوبة وعدم رؤية الشمس بالرغم من توسيع شبابيكها أو أبوابها، فهذه الشبابيك تطل على الساحة المكشوفة وسط جدران العنابر.

وعنبرنا الذي أقمنا فيه نحو ستة أشهر هو أحد هذه العنابر السفلية، والفرق الوحيد بين هذا القسم والقسم الداخلي هو أن المساجين في هذا القسم يَرَوْنَ منظر المدينة أحيانًا من شبابيك العنابر العلوية ثم من ساحة المشي المشرفة على المدينة وعلى ساحة القلعة الكبرى خارج بوابة السجن ويشاهدون حركة سير ذهاب وإياب، وهم كذلك على صلة بمنظر حركة السجن من غادِين ورائحين.

وبالرغم من الإصلاح الموضعي المحدود في العنابر ـ وخاصة في العنابر السفلية في السجن ـ وبالرغم من مد أرضية العنابر بالإسمنت وعمل فيها دكات مرتفعة نوعًا ما للنوم، ورفارف فوقها للأغراض والحاجات، فإن أكثرها لا يصلح حتى لوضع الحيوانات فضلًا عن البشر وسجن الناس فيها مهما كان ذنبهم، وهو وحشية ظالمة يضاف

إليها وحشية حشر الأعداد العظيمة فيها، حتى لا يكون فيها محلٌّ لقدم، ولا يستطيع النائم أن ينقلب من جنب إلى جنب وسط هذا الزحام إلَّا بصعوبة زائدة، ولك أن تتصور ما يكون في هذه العنابر المظلمة الخانقة المزدحمة هذا الازدحام من كريه الروائح وشديد الضجة وقذارة المكان والسكان، ولا سيما إذا لاحظت أن كل سجين لديه تقريبًا بريموس بترول وأن في وسعه أن يأتي بلوازم الطبخ، وأن يطبخ وأن يقلي بالزيت والشحوم الأخرى، وما يكون من هذا من أكوام الزبالة، والغبار الذي يملأ جو العنبر فوق ظلمته ورائحة خانقة زائدة.

ومن الغريب أن بعض الحكومات السورية صرفت أكثر من خمسين ألف ليرة ذهبية على إنشاء فندق كبير في بلودان للمصيفين ولم تفكر في إنشاء سجن يصلح للبشر وقد لا يكلف ربع أو ثلث هذا المبلغ. والإفرنسيون بِدَوْرِهِم يرون هذا السجن الخانق المظلم القذر، وهم كل شيء في البلاد، ويزعمون أنهم أرقى منا وجاؤوا إلى إرشادنا وتحسين أحوالنا، ولم يفكروا بإنشاء سجن حديث صالح.

الحياة في السجن بالنسبة للموسرين والفقراء

وحياة السجن ونظامه غريبان وفيهما مفارقات عجيبة، فالسجين الموسر يستطيع أن يأكل ما يشاء وأن يجلب طعامًا من الخارج، من السوق أو من بيته كلَّ يوم وبالقدر الذي يهوى، ويستطيع أن ينام على عدة فرشات يأتي بها من الخارج وأن يفرش تحته من الأبسطة ما يشاء، وأن يقتني من أدوات الزينة والطعام والأناقة ما يشاء، وأن

يلبس ما يشاء، وأن يدخن، وأن ينفق ما يشاء، وأن يستخدم من المساجين الخدم الذين يريدهم من أهل عنبره، أما السجين الفقير فإنه في حرمان فظيع، من حيث الغداء والثياب والمنامة واللوازم الأخرى.

وترتيب إطعام المسجونين من إدارة السجن بائس جدًّا، فهو رغيفان كل يوم، ويوزَّع معهما ومرة واحدة في اليوم، يومًا شيئًا مطبوخًا بائسًا حساء بصل أو عدس وحمص، ويومًا خضار غير مطبوخة، أي شيء من البندورة أو الكوسا أو الباذنجان، ويومًا فاكهة، أي عنب أو برتقال أو بطيخ أو خيار. والحساء بدون لحم، ومرة في الأسبوع يوزَّع حساء فيه قطعة لحم لكل سجين. وعلى تفاهة وسخف هذا الترتيب فإنه لا يكاد يفي بحاجة الغذاء حتى لأقل طبقات الناس وأفقرهم.

أما النوم فليس للفقير إلا دكة الإسمنت الناشفة، فإن كان معه عباءة فرشها تحته، وإذا كان عنده غيار من ألبسة وضعه تحت رأسه مخدَّة تغطى به.

أما الثياب فهي ثيابه الشخصية مهما كانت ومهما قذرت. ولا تعطي إدارة السجن ثيابًا للفقير ولا بطانيات. وهكذا يذوق الفقير ـ بالإضافة إلى ما يناله جسمه وروحه من ضرر المكان وظلمته ورطوبته وزحامه وقذارته ـ عذابَ الحرمان من الطعام واللباس والفراش، وهو يرى الموسر يتمتع بكل ما يشتهي من كل ذلك. ولا يصح أن يقال إن

الفقير في هذا الحرمان هو كذلك خارج السجن، وأن الموسر يتمتع بما يشتهي كذلك خارج السجن، فالسجن محلّ حكومي، والحكومة مسؤولية عن حياة الناس الذين هم فيه، والسجن ليس هو دار انتقام وتعذيب وحرمان وإنما هو للإصلاح والتهذيب.

انفراد سوريا بالنظام السابق ذكره

وهذا النظام في سجن سوريا فريد كما قلنا، ففي سجون فلسطين والعراق ومصر ترتيب معقول أكثر، فالطعام فيه من الحكومة على أساس الكفاية للجميع، ويُعطى للجميع بطانيات تكون واحدة يفرشها السجين تحته وأخرى غطاء له، ويكون لباس خاص للجميع يعطى من الحكومة، وليس فيها تفريق بين فقير وموسر، والجميع ينالون الحد الأدنى المعقول من الغذاء واللباس وأسباب النوم بمقدار واحد.

وهناك نظام سجن امتياز للمثقفين والسياسيين، حيث يكون لهم أسرّة ومنامة أحسن وغذاء أفضل على حساب الحكومة أيضًا.

والحالة في سجن المزة أحسن بكثير من حيث الطعام والنوم على ما ذكرنا. ومن المؤسف أن هذه الحالة لم يفكر في تحسينها أحد من الحاكمين السوريين والمتسلطين الإفرنسيين.

ومن أنظمة هذا السجن العجيبة نظام الزيارة. فالسجن يفتح أبوابه على الإطلاق لكل الناس مرتين في الأسبوع، وساعتين في كل مرة، للنساء ساعة وللرجال ساعة، فيدخل من يشاء من أقارب السجين وأصدقائه بل وغرباء متفرجون أيضًا وأولاد، ويتكوم الزوار متزاحمين

على شبابيك وأبواب العنابر من وراء القضبان الحديدية التي يقف المساجين خلفها من الداخل فيرون بعضهم ويتحدثون مع بعضهم بقدر ما تسمح كُتَل الناس وزحامهم من الخارج وكُتَل المساجين وزحامهم من الداخل. والمشهد يوم الزيارة عجيبٌ مضحكٌ ومبكٍ في آن واحد، وكان هذا اليوم شديدًا عليّ بالرغم عما كان أُنسي بزيارة أخي المستمرة، لأن هذا الزحام والضجة يبلغان أشدهما من جهة ولأني كنت أرى شيئًا من الشبه بين المساجين من وراء القضبان وبين الحيوانات الضارية في حدائق الحيوانات التي يأتي الناس للتفرج عليها من وراء القضبان من الخارج أيضًا.

وفي هذه الزيارات يأتي الزوار لذويهم بما يشاؤون من طعام مطبوخ وغير مطبوخ وفواكه وحلويات وثياب ودخان ومصروف، ويأخذون ما عند مسجونيهم من ثياب وسخة للغسيل. ولا تلبث العنابر بعد هذه الزيارات أن تمتلئ بمختلف أنواع المأكولات والمؤن وتمتلئ نتيجة لذلك بالأقذار والنفايات والزبالة إلخ.

ويظهر أن إدارة السجن أدركت أن هذا النظام يمكن أن يتسرب به للمساجين أشياء ممنوعة أو أنها عرفت فعلًا ذلك، فرأت أن تُدْخِلَ بعض التغيير عليه، فجعلت الزيارة في كل مرةٍ خاصة بجنس، فيكون للرجال مرة في الأسبوع، وللنساء مرة في الأسبوع، ووضعت على أبواب العنابر وشبابيكها مشبكات حديدية جديدة من الخارج ليكون الاتصال اليدوي بين المساجين والزوار متعذرًا. وأثار هذا التغيير استياء وهياج المسجونين حتى أنهم أضربوا في بعض العنابر عن

الطعام، واشتبك بعضهم مع الدرك فضَرَبوا وضُرِبوا ولم ينته الموقف إلا بعد إعلان الإدارة عدولَها عن التغيير في مواعيد الزيارة وأبقتها على حالها، ولكنها نفذت تصميمها على الشبك الحديدي على أبواب ونوافذ العنابر.

السماح للمسجونين باقتناء أدوات الطبخ وصنع الأكل

ومن أنظمة السجن الغريبة السماح للمسجونين باقتناء أدوات الطبخ من طناجر وغلايات وأطباق وأباريق الشاي والقهوة وبريموسات الكاز والسبيرتو حتى يكاد أكثر المساجين يقتنون هذه البريموسات ويوقدونها مرة أو أكثر في اليوم ليهيؤوا طعامهم وقُوتهم وشايهم كل حسب قدرته.

وهكذا تكون العنابر ـ بالإضافة إلى ما عليه من ظلمة ورطوبة وزحام وقذارة ـ مطابخ أيضًا، ويكون بذلك الوشيش والضجيج والروائح والنار بذلك الضيق والأذى، ومادام نظام الطعام في السجن وترتيبه على الوجه البائس بالنسبة لحساب الإدارة، فحركة الطبخ في العنابر ونظام الزيارات والسماح بإدخال كل ما يراد من مأكولات مطبوخة وغير مطبوخة أمر لا مندوحة عنه، وفيه بعض التفريج على المساجين، وكأنما جعل ذلك معدلًا للبؤس في ترتيب الغذاء السجني. ومن هذا الباب سُمح بوجود دكان بقالة في السجن أيضًا. ففي قسمي السجن الداخلي والخارجي دكانان تؤجرهما إدارة السجن بأجر سنوي

يبلغ ألف ليرة يباع فيها للمسجونين كل شيء تقريبًا، وخاصة لوازم الطعام وتفرعاته.

حمامات السجن

وفي كل قسم من قِسْمَي السجن حمّام يسمح لكل سجين أن يستحمّ فيه مجانًا مرة كل أسبوع بالماء الساخن وهو مرتَّب ترتيبًا لا بأس به. وكانت لي فرصة خاصة بالاستحمام بالماء الساخن أكثر من مرة في الأسبوع، وبأخذ حمّام بارد كل يوم تقريبًا أيام الصيف كما أشاء، والمساجين يدخلون الحمّام كل اثنين أو ثلاثة في مخدع واحد من مخادع الحمّام، ويطلب منهم التعجيل ليتمكن جميع سكان العنابر من زيارة الحمّام وجعل دَور بينهم حتى ينال كلهم حمامًا ساخنًا في الأسبوع. وإذا كان في السجن شيء حسن فهو الحمّام البارد والساخن معًا.

ومع أن الحمّام مجّاني كما قلت فإن الذي يحب أن يستحمّ بأناة لا بدّ له من أن يدفع شيئًا إكرامية للمشرفين على الحمّام، وكان نصيب المشرفين من ذلك يوميًا ليرتين وثلاثة، وكانت الإكراميات قروشًا وفرنكات معدودة وكانت إدارة السجن تشارك المشرفين فيما ينالهم على ما كان محسوسًا.

شيء عن عريف عنبرنا حكمت الجراح وسلوكه وتفاهمه مع الإدارة وأساليبه الاستفزازية

وكان متولي الحمّام في قسمنا هو عريف عنبرنا حكمت الجراح، الذي كانت علاقاته حسنة مع إدارة السجن، وخاصة مع مستشاره الإفرنسي، وكان هذا العريف نائبًا (وهي رتبة عسكرية للجنود) في

الفرقة الأجنبية التابعة للجيش الإفرنسي، واتُّهم بسرقة كميات من السلاح من عنابر الجيش بالتآمر مع بعض المتولِّين لأمر هذه العنابر من الضباط والموظفين الإفرنسيين وبيعها، وقد ثبت ذلك وحوكم هو ورفاقه في محكمة عسكرية وطُردوا من الجيش وحُكم عليهم بأحكام متنوعة، وهو السوري الوحيد بينهم، فسُجن في سجن القلعة. ومما قيل: إنه باع كمية من السلاح المسروق لثورة فلسطين وكمية أخرى لبعض عشائر الأكراد في منطقة حلب، وكان هذا الرجل مجردًا تقريبًا من كل معنى الأخلاق والشرف منغمسًا في الشهوات واللذات، وليس له هم إلا الحصول على دراهم واختراع الأساليب بسبيلها لقضاء شهواته. وقد استطاع ـ على ما فهمت ـ أن يحصل على ألفين وخمسمئة ليرة في السجن خلال سنة واحدة بوسائله المتنوعة، وكان المحسوس هو أن بينه وبين المستشار الإفرنسي تفاهمًا على هذه الوسائل وشراكة فيما يحصل منها، وكان من هذه الوسائل تعيين العرفاء في العنابر. والعريف في العنبر يصبح ذا وجاهة وتعود عليه منافع متنوعة مادية. وكانت العرافة من أجل ذلك موضع تنافس وطمع. فكانت إدارة السجن تتخذ ذلك وسيلة للابتزاز وتجعل حكمت واسطة ويكون له نصيبه، وكان من تلك الوسائل نقل المساجين من عنبر إلى عنبر حيث كان بعضهم يود ذلك ويرشو إدارة السجن بواسطة حكمت بسبيله، وكان هناك بعض أعمال في السجن يحب بعض المساجين أن يتولوها ويعلموها فكان ذلك وسيلة أخرى للرشو بواسطة حكمت وهذه الأعمال مثل الإشراف على الحمّامات والنظافة وتناول ما يأتي

للمسجونين من الخارج في غير أيام الزيارة من مأكول وغير مأكول، ومثل الخدمة في المستشفى..

كان حكمت يبتكر الأفكار والوسائل وطرق الرشوة ويبلغها للمستشار فيوافقه وتسير الأمور وفق المرسوم، ويأتي المال لهما وتقضى حاجات المحتاجين للوجاهة والراحة أو المنفعة المادية بدورهم.

حشيش وعرق وقمار في السجن

وقد لحظتُ أنّ بعض المساجين يستعملون الحشيش ويشربون العرق ويلعبون القمار بالورق والنرد، وكان لحكمت يد في تسهيل هذه الأمور والمشاركة فيها وإغضاء الإدارة عنها. وكل ذلك من شأنه أن يكون وسيلة رشوة وابتزاز، وأحيانًا تنكشف بعض هذه الأمور فتتظاهر إدارة السجن بالاهتمام، وتكبس العنابر وتقوم بالتفتيش ثم تسكن الحركة، ويعود التسهيل والإغضاء والرشوة وتكون هذه الحركة مثل هزة رسن كما يقال.

وإلى هذا كان حكمت عينًا للمستشار على المساجين وإدارة السجن حيث ينقل إليه الأخبار وكثيرًا ما يكون في أخباره تلفيق وافتراء وتكون وسيلة للابتزاز والرشوة من المساجين وكل هذا جعل لحكمت وجاهة في السجن ولدى إدارة السجن.

وإذا كان حكمت استطاع أن يحصل في سنة على ألفين وخمسمئة ليرة فلا شك في أن المستشار بواسطته حصل على أضعاف ذلك. ولقد كان له ولحكمت وسيلة ابتزاز من البقّال حيث كان أحيانًا يمنع من بيع

الحلوى والفول المدمّس وكان هذا مما يروج فيدفع الرشوة لرفع المنع، وكان أسعار البقّال وسيلة أخرى حيث يسمح له بما يشاء أحيانًا ويضيق عليه أحيانًا لأجل الابتزاز.

وكان في السجن محلَّات للحلاقة وحلَّاقان مستأجران لهما فكان هذان المحلان وأعمال الحلاقة منعًا وتوسيعًا وتضييقًا وسعرًا ومن وسائل الابتزاز لحكمت والإدارة بواسطته.

وكان متعهد توريد الخبز ومواد الأكل الأخرى وسيلة للابتزاز والرشوة أيضًا، وكان يعود ذلك على المستشار مبالغ كبيرة.

كيف كانت إدارة السجن في يد الإدارة المدنية

وقد كانت إدارة السجن قبل استلامه من قبل الدرك في يد موظف مدني سوري هو حسام الدين الصلاحي الذي مر اسمه في مناسبة قضيتنا، وكانت الإدارة فوضى جدًّا والرشوة والإغضاء مع المساجين أكثر بكثير من الحال الحاضرة، وقد ساءت الحالة إلى الحد الذي جعل الحكومة تسلم إدارة السجن إلى الدرك، وصار السجانون دركًا والمشرفون ضباطًا من الدرك. ورأت السلطات الإفرنسية أن يكون المشرف أو المستشار إفرنسيًّا، فعيَّنت له هذا المستشار الذي كان في الدرك الإفرنسي في رتبة «شف» أو «شاويش» فرفعت درجته إلى ملازم أول أو «ليوتنان» وهو على ما يظهر من لهجته وتربيته من الريف الإفرنسي، وعلى ما يظهر من عقله وكلامه قليل الثقافة، ولكن شعوره لفرنسيته جعله يرى نفسه كالملك على عرش دولة السجن وجعله يتسلط في هذه الدولة إلى أبعد حدود التسلط.

والمدير الرسمي للسجن ضابط درك سوري في رتبته، ولكنه لا يملك من إدارة السجن شيئًا، حتى لا يستطيع أن ينقل سجينًا من عنبر إلى عنبر إلا بإذن وموافقة هذا الملك ـ المستشار الإفرنسي ـ الذي يحميه دائمًا. وهذا الالتفات الشاهاني لا يناله إلا وجهاء المسجونين أمثالنا.

سلوك السجانين الدرك العرب

والسجانون درك سوريون، ومنهم من يحاول أن يكون حسن المعاملة عطوفًا نحو المساجين، ومنهم من يصطنع العجرفة واللؤم اصطناعًا، وأكثرهم ترضيه بسيكارة أو بتقدمة تافهة من مأكل وحلوى وفاكهة وبعض الفرنكات، ومنهم من يطلب ذلك طلبًا، ومن المناظر التي كنا نضحك منها: انتفاخ هذا المستشار في مشيته وحديثه وفيما يصدره من أوامر وتعليمات كأنما هو مارشال. وكثيرًا ما كنت أُشَبِّهُه في أطواره بجمال باشا القائد السفاح التركي. وما أسخفه حينما كان يُسَلِّم عليه المساجين فكأنما هو ملك يتقبّل خضوع رعيته واحترامهم. والسعيد السعيد الذي يتلقّى جوابًا بهزّة رأس أو رفع طرف الكرباج.

حياتي الخاصة في سجن القلعة

وبما كان عليه السجن من حالة استطعتُ أن أؤمّن راحتي وحياتي كأحسن ما يمكن، ففي الشهر الأول اختصصتُ بأحد السجناء الدمشقيين فكان يهيئ لي طعامي وحوائجي، ثم أحضرتُ إلى عنبري الحاج يوسف الجباوي ـ كما ذكرتُ قبل ـ وهو مقدسي محكوم في

قضيتي، فقام على خدمتي بنشاط وارتياح، وكُفيتُ من هذه الناحية كفاية تامة. وكان طعامي يأتيني يوميًّا من البيت، وأرسل البيت إليَّ لوازم الشاي والقهوة ونواشف متنوعة للفطور والعشاء.

حديث أخي واهتمامه وتهدئتي له

وكان أخي **محمد علي*** قد جعلني شغلَه الشاغل، حتى كنتُ أخجل منه وأشفق عليه لِمَا أحاطني به من اهتمامه وحديثه، ولِمَا كان يُظْهِرُه من أَلَمٍ وقلق نفسيّ بالرغم من كثرة تطميني له وإلحاحي عليه بأن يتمعّن قليلًا ليرى أني أكثر راحة منه، ويرى أنه ليس في سجني - في الظروف التي كانت تكتنف الناس وتبعث فيهم القلق والاضطراب الدائم - شيء يوجب الحزن والألم، ولن أنسى يوم رآني لأول مرة وراء شباك العنبر المظلم وكيف انفجر باكيًا وذهب وسعى حتى أتاح لي ما ذكرتُه في نبذة سابقة من امتيازات في السجن ساعدتني على الكتابة وعلى الراحة، وكان مع ذلك مشتدًّا من الحزن والمضاضة، وبذلتُ جهدي حتى أُسرّي عنه وأُهدِّئ روعَه، وطلبتُ منه أن يتمعّن قليلًا ليرى أني أكثر راحة وطمأنينة منه ومن سائر إخواني في هذا الظرف الذي يكتنف من هم خارج السجن من أمثالنا من قلق وتحسُّب يجعلهم في كرب شديد.

هدوء في الظاهر واستمرار السعي في الجهد

ومازلتُ ألحُّ عليه حتى هدأ روعه - أو تظاهر بذلك - وبعد أن

رآني فعلًا مرتاحًا ومتمتعًا بامتيازات وعناية هو الذي أتاحهما لي، لأنه ظل دائم الانشغال بي دائم الجهد في سبيل السعي لإطلاق سراحي.

توسيط نصوح الحاج حسين [المغربي] مع المستشار فيما جاء لي من عناية مقابل الهدايا

وعلمتُ فيما بعد أن أخي استطاع أن يجد واسطة إلى المستشار وهو نصوح بن الحاج حسين المغربي الذي كان يعمل هو ووالده مع قادة الثورة من المشايخ وهم من أهل الجولان وله بعض المداخلات مع الإفرنسيين، فصار يقدِّم أخي بواسطته إلى المستشار بعضَ الهدايا وظل يواصل ذلك، فكان من ذلك ما نلناه من الرعاية والامتيازات.

صلف هذا المستشار معي مرة مع ذلك

ومما سجّلتُه في دفتري بعد هذا أن المستشار الإفرنسي رغم ما كان يناله من تقديمات ورغم ما كان يعرف من مركزي وقضيتي فإنه لم يمنع نفسه عن العجرفة معي وإشعاري دائمًا بأني سجين ورعية في دولته، ولقد أحببتُ مواجهته مرة في حادث جرى في العنبر، فلما دخلتُ عليه ولم أرفع عن رأسي الطاقية اغتاظ وأخذ يخاطبني بلهجة قاسية متعجرفة ويعتبني على عدم رفع طاقيتي، وحاولتُ أن أُفْهِمَه أن رفع غطاء الرأس عندنا يدل على عدم الاحترام ولكنه لم يفهم، وكان هذا الموقف سببًا في حرماني مدة ما من حرية التجول، وكان يظن أن ذلك سوف يغيظني ويكون وسيلة لهدايا جديدة، ولكن لم أبالِ وبقيت على سجيتي حتى هدأتْ ثورتُه وأعاد لي حريتي، ولعله تلقّى من أخي هدايا جديدة.

انصرافي منذ الأيام الأولى إلى إتمام حفظ القرآن وكتابة الرسائل القرآنية وأوّلهُا «عصر النبي ﷺ وبيئته قبل البعثة»

ومنذ الأيام الأولى من سجن القلعة عدتُ إلى حفظ الآيات القرآنية، فاستمررت في حصص الحفظ من جهة، وباشرتُ بكتابة مسوّدات لكتاب «عصر النبي ﷺ وبيئته قبل البعثة» وقد اشتدّ نشاطي وطمأنينتي في هذه المشغلة بعد أن سمح لي بالبقاء خارج العنبر وبالمنضدة والكرسي، وكانت الأيام خريفًا، وكان أخي يحضر لي بعض الكتب العلمية والمجلات والروايات، فقسمت أوقاتي بين الكتابة والمطالعة والحفظ، وهكذا خلقتُ لنفسي جوًّا ومشغلة مريحة ولذيذة حتى صرت آلَفُ حياة السجن وكدت أنسى ما يمكن أن يوجد في النفس من ألم وانقباض، وصار موضوع الكتابة بخاصة شغلَ ذهني الشاغل، وكثيرًا ما كنتُ أبات وذهني مشغول في موضوع فأُصْبِحُ في الصباح الباكر فأُشْعِلُ المصباح وآخُذُ في إتمام الموضوع أو تدوينه أو مراجعته، ولم يمضِ شهران تقريبًا حتى انتهيتُ من تسويده للمرة الأولى وبدأت في تسويده ـ أو بالأحرى في تبييض المسودات وترتيبها ـ فلم أشعر إلا وقد صار كتابًا كاملًا في موضوع تامّ وأسلوب وطريقة طريفين.

أرسلتُ المسودات إلى الدكتور قسطنطين زريق وإعجابه بالموضوع

وكان زهير جاء لزيارتي فأرسلتُ الدفاتر التي كتبتُها إلى الدكتور قسطنطين زريق ليطّلع عليها رغبةً في معرفة ما يمكن أن يكون لأسلوبه وموضوعه ومادّته من تأثير ووقع، وقد تصفح الدكتور الدفاتر وأعادها

إليّ مع رسالة يُثني فيها على الكتاب وموضوعه ويُبدي ارتياحَه من الوجهة العلمية، ومع الأسف لم أجد الرسالة بين أوراقي.

انشغالي بعده بكتابة «تعاليم القرآن»، وهو الذي سميته «الدستور القرآني»

وبعد أن انتهيتُ من الكتاب الأول، أخذتُ أعيد النظر فيما كتبت من موضوع «تعاليم القرآن في حياة الإنسان الدنيوية» في سجن المزة، وقد أعدتُ كتابة ما كتبتُ متوسعًا في كل فصل وبحث وباب، ومكثتُ فيه نحو شهرين، فإذا أنا أجد أني كتبتُ كتابًا كاملًا في نحو أربعمئة صفحة أو تزيد، وكان ما كتبته في القلعة يكون شيئًا جديدًا عما كان عليه في المزة، وهو الكتاب الذي سميته باسم «الدستور القرآني في شؤون الحياة»[(١)].

ثم بدأت أُعيد النظر في مسودات الموضوع الثالث التي كتبتُها في المزة عن «سيرة النبي ﷺ من القرآن»، وكنتُ في المزة كتبتُ ثلاثة فصول منه، هي فصل اليهود وفصل الجهاد وفصل المنافقين.

وقد استلهمتُ موضوع هذه الفصول من روح الحركة الفلسطينية وجهادها، ففي فلسطين كانت فئة المنافقين تمثّل أسوأ أدوات التآمر على المصلحة العامة، وتتواطأ في ذلك مع الإنكليز وتتربص بحركة الجهاد والقائمين عليها الدوائر، وبين هذه الفئة والمنافقين في عهد النبي ﷺ مشاركات كثيرة في المواقف والمظاهر والخصائص. واليهود

---

(١) طُبع هذا الكتاب لأول مرة في دار إحياء الكتب العربية في القاهرة سنة ١٩٥٦م، والأول: «عصر النبي ﷺ وبيئته قبل البعثة» طبع لأول مرة بواسطة دار اليقظة في دمشق سنة ١٩٤٨م بعد عودتي من هجرتي إلى تركيا.

أصحاب دور رئيسي في قضية فلسطين وفي صِلاتهم بالفئة السابقة ويلعبون في هذا وذاك دورًا شبيهًا بالدور الذي لعبه اليهود في عهد النبي ﷺ، فرأيتُ أن تكون الفصول الثلاثة نواة لكتاب السيرة النبوية، وقد وقع في يدي كتاب «شرح المواهب [اللدنية] في السيرة النبوية» للنبهاني، وفيه من المبالغات في شخصية النبي ﷺ ما يتعارض مع نصوص القرآن وطبائع الأشياء، فاستخرتُ الله وأخذتُ أكتب مسوّدات فصول الكتاب إلى أن تمت الأولى في خلال ثلاثة أشهر، ثم عدتُ إلى تبييض المسودات ونسختُها في شهر واحد فأصبح في يدي خلال عشرة أشهر من وجودي في سجن القلعة ثلاثة كتب كلها عن القرآن وسندُها الرئيسي القرآن، وصارت سلسلة طريفة حقًّا ـ ولا فخر ـ في ثلاث حلقات، الأولى عن النبي ﷺ وبيئته قبل البعثة، والثانية عن النبي ﷺ وسيرته في مكة والمدينة، والثالثة في تعاليم ومبادئ وتشريعات وتوجيهات وتلقينات القرآن في الحياة السياسية والاجتماعية والأخلاقية والأُسَرية والبشرية، مما جعلني أغتبط وأحمد الله كثيرًا على أن يسّر لي إتمام هذا العمل في مدّة وجيزَة وجعل لي فيه مشغلة لذيذة تسبّبتْ فيها ظروف السجن وآلامه.

وقد كان هذا العمل فريدًا في بابه وأسلوبه ومنهجه لم يسبق أن فعل مثلَه أحدٌ، إذ أن المصدر الرئيسي بل الوحيد لهذه الكتب الثلاثة هو القرآن الكريم وما أخذتُه عن المصادر القليلة الأخرى، إنما كان لتأييد استنباطي ونظرتي أو لتوضيح بعض النقاط التاريخية واللغوية والمناسكية.

استحضاري كتبًا في التفسير والحديث والتاريخ واستعانتي بها

وبهذه المناسبة أقول: إني استطعتُ أن استحضر عددًا من كتب التفسير، ومنها أجزاء كاملة لجميع القرآن ومنها ما هو أجزاء مفردة لتحقيق بعض النقاط والاطلاع على أسلوب المُفَسِّرِين ومنهجهم، مثل الطبري والزمخشري والخازن والرازي وأبي السعود والبيضاوي والنسفي، وقد استحضرتُ كذلك بعض كتب أخرى استعنتُ بها على عملي، مثل تاريخ الطبري الكبير وكتاب أعلام الموقعين لابن قيم الجوزية وسيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وصحيح البخاري وغيرهم مما لم يعد في ذاكرتي، حتى كان عندي في السجن شبه مكتبة، وكأنما أنا في غرفة مكتبة أُطَالِعُ وأُقَيِّدُ وأُدَوِّنُ وأُقَابِلُ إلخ.

شيخ الإسلام وتلميذه كانا مسجونَين في القلعة في القرن السابع للهجرة، واشتغاله مثلي في القرآن

ومن عجيب الصدف أن ابن القيم يقول في كتابه الذي وضعه في السيرة النبوية والذي اطلعت عليه فيما اطلعت في السجن: أنه قد سُجن هو وأستاذه ابن تيمية في سجن القلعة في دمشق، وكان حبسًا منفردًا، وأنه اشتغل في سجنه بالقرآن وحفظه، وأنه كتب بعض كتبه في هذا السجن. والذي يخطر لي أن الإمام ابن تيمية وتلميذَه الفاضل هذا قد سُجِنَا بسبب ما كانا يبديانه من الآراء والاجتهادات المخالفة لِمَا كان عليه جمهور العلماء في عهدهم، أي في القرن الهجري السابع.

وكانا من فحول علماء المسلمين وأكثرِهم استنارة وفهمًا، فكانا

يشجبان الحشويين من العلماء وجمودهم والسَّير في طريق التقليد الأعمى والتفريع وتفريع التفريع والانصراف عن الجوهر ومصدره الرئيسي من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ وسيرة السلف الصالح، وإعطاء الوزن الأكبر لمن جاء بعدَهم من أئمة المذاهب وتابعيهم وتمسّكهم بما جاء عن هؤلاء دون تدقيق ولا تحقيق ولا منطق، وبصورة يكاد العقل يكون معها لغوًا، ومن هنا جاءهما البلاء، إذ وشى بهما خصومُهما وكان الخصوم هم من أصحاب الكلمة والنفوذ، فزُجّ بهما في السجن[١].

تكرار إعادة النظر في الكتب وتحيُّنها بالمراجعة والتعديل

هذا ومن المفيد أن أقول: إن الكتب الثلاثة المذكورة لم تبقَ على حالها التي وضعتُها فيها للمرة الثانية، فقد ظللتُ وأنا في السجن أُعيد نظري فيها وأُدخل عليها من الملاحظات والاستدراكات والتعديلات والتوسيعات إلى أن خرجتُ من السجن وأصبح كتاب «عصر النبي ﷺ» نحو ستمئة صفحة، وكتاب «فصول السيرة» نحو ثمانمئة صفحة، وكتاب «تعاليم القرآن» نحو ستمئة صفحة.

أثر عملي في نفسي وشعوري

وقد شغلتْ هذه الكتب من نفسي جزءًا عظيمًا واهتمامًا كبيرًا رافقاني إلى ما بعد السجن، بل لعلهما يرافقانني إلى أن يسّر الله

(١) هذا ماكتبتُه في دفتري، وقد اطلعتُ فيما بعد على أسباب سجنهما، وهو تقريبًا مطابق لما ورد في الباب الذي ذكرتُ.

طبعَهما بعد الحرب، بل لعلهما يرافقانني بقية أيام حياتي، مع الشعور بلذة هذه المشغلة وفائدتها وطرافتها وما يمكن أن يكون لها من وقع. أقول هذا ولعلي أبالغ فيه، ولعلي جارٍ مع المثل: «كل فتاة بأبيها مُعْجَبَة» وما أقول لأن هذه الكتب أصبحت قطعة من نفسي وجزء من كياني العقلي والذهني، ومن الصعب أن يرى الإنسان غير ما أرى فيما يكون قطعة من نفسه وجزءًا من كيانه العقلي والذهني.

كيفية إتمام حفظي القرآن في القلعة وتعليقات وتنبيهات في صدد ذلك

ولقد كانت تمّتْ نعمة الله عليّ في إتمام حفظ القرآن بعد أربعة أشهر من مجيئي إلى سجن القلعة، وكنت حفظتُ في [سجن] المزة نحو ثلثه وحفظت بقيته في القلعة. وكان حفظي في [سجن] المزة غير راكز تمامًا لأني كنت وحدي ولم يكن من يسمع لي، أما في القلعة فقد كان الحاج يوسف الجباوي مرافقي في السجن يسمع لي يوميًّا ما أحفظ من جديد وحصة مما كنتُ حفظتُه قبلُ. وقد صدف أن وجدتُه هو الآخر كان قد حفظ القرآن وكان قد ذهب إلى مصر خصيصًا للتخرج في حفظ القرآن وقراءته على القراء، فكان هذا فرصة حسنة لي ساعدتْني في رغبتي ونشاطي، ومن غريب الصدف أن آخر سورة حفظتُها هي سورة يونس التي آخر آياتها: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾. وكان السجناء في هذه الأيام يكرّرون إشاعات العفو بسبب وبغير سبب فكان لي في هذه الآية إلهام بوجوب الانتظار والصبر مدة أخرى، كما كان لي فيها إلهام بالاستمرار على

مشروع الكتب الثلاثة التي كنتُ شرعتُ فيها، فزاد هذا الإلهام طمأنينتي وجَلَدي من جهة وغيرتي ونشاطي في العمل من جهة أخرى.

ومما أذكره أن أمر العفو عني وخروجي من السجن قد كان في وقت كنتُ قد انتهيتُ فيه تقريبًا من الكتب ونظري فيها للمرة الأخيرة تقريبًا، وكان هذا من توفيق الله وتمام نعمته، إذا لو خرجتُ قبل ذلك بمدة لكان من المحتمل أن تشغلني الشواغل عن الاستمرار في العمل وإتمامه.

أما سبب كون سورة يونس آخر السور التي حفظتُها، فقد كنتُ بدأتُ بالحفظ من جزء عم فصاعدًا، لأني رأيتُ أن أحفظ السور القصيرة لأنه الأيسر والأخف والأدعى إلى النشاط في الحفظ والاستمرار عليه، وخفتُ إن بدأتُ بالحفظ من البقرة فنازلًا أن يكبر عليَّ الأمر فأكسل وتفتر همتي، وقد شبّهت بدء الحفظ من السور القصيرة كالذي يَسْبَحُ في بِرْكَة صغيرة ليتعلَّم السباحة فلا خوفَ عليه من الغرق ولا خطر، أما إذا تعلم السباحة في البحر العميق فإنه يتعرض للخطر من اتساع المدى وما يُحْدِثُهُ في النفس من قلق وخوف، ولعلّي كنتُ مصيبًا في رأيي، غيرَ أن الذي لحظتُه كذلك أن السور المدنية أكثر انسجامًا وارتباطًا بمواضيع آياتها وسلاستها من السور المكية، وكان هذا يسبّب لي في ذات الوقت ارتباكًا ويجعل حفظي مضطربًا، وقد لمستُ هذا في سجن القلعة حينما أخذتُ أُعِيدُ محفوظاتي في [سجن] المزة وأكثرها سُوَر مكية، فاقترح الحاج

يوسف أن أحفظ البقرة فيما بعد إلى سورة يونس حيث كنتُ حفظتُ إلى سورة هود، فأخذتُ باقتراحه ويسّر الله.

وهكذا أكون قد حفظتُ القرآن للمرة الأولى في مدة ثمانية أشهر، وهي مدة قصيرة جدًّا ولا أظن أن هذا يتيسر لغيري إلا ما ندر والحمد لله. وقد رتبتُ على نفسي بعد إتمام الحفظ حصة يومية أتلوها غيبًا على الحاج يوسف، ولا بد من هذا لحافظ القرآن، بل لا بد له من حصة كبيرة مبلغ أربعة أو خمسة أجزاء في اليوم إذا أراد أن يظل حافظًا للقرآن، ومجرد إهمال الحافظ الحصة اليومية عدة أسابيع لن يلبث أن ينسى ما حفظه ويصبح في حاجة إلى جهد جديد للحفظ.

ومن الحق أن أذكر إلى هذا أن حفظ القرآن ليس سهلًا مهما بدا حجمه صغيرًا، وليس هو بالصغير مع ذلك، ومن أسباب هذه الصعوبة خواتم كثير من الآيات وتشابه هذه الخواتم، ومن أسبابها كذلك عدم وحدة الموضوع والسياق في كثير من السُّوَر، حيث تتعدد المواضيع في سُوَر ولا يكون ترابط بينها. ولعل حفظ سورة يوسف كان أهون من غيرها لأن موضوعها واحد، وآياتها مترابطة السياق. ووحدة الموضوع من الأسباب، أيضًا تشابه بعض الآيات في السُّوَر مع شيء من التغاير، فبينما أنت تقرأ في سورة إذ تنتقل إلى سورة أخرى بسبب هذا التشابه.

ما ساعدني على حفظ القرآن وعلى فهم معانيه

ولعل مما ساعدني على حفظ القرآن في هذه المدة القصيرة كثرة إدامتي النظر فيه وتقلبي صفحاته ونقلي آيات كثيرة المرة بعد المرة في

سياق ما كنتُ اشتغل فيه من الكتب، ولربما كنتُ تلوتُ آيات القرآن أو أكثر مرتين أو ثلاث مرات، وربما تصفّحتُ القرآن عشرين مرة أو أكثر من أوله إلى آخره لأجل جمع الآيات حسب مواضيعها، وهذا وذاك طَبَعَ ـ ولا ريب ـ كثيرًا من الآيات في ذاكرتي.

وقدر فتح الله بذلك أيضًا ذهني وبصيرتي وصرتُ أنفذ إلى معنى الآيات وهدفها وما فيها من موضوعات وإشارات تاريخية وما تحتويه من مبادئ ودقائق وقواعد، وكان ذلك أيضًا من أسباب جلاء كثير مما يبدو غامضًا من أسلوب وترتيب آيات كثيرة من الناحية اللغوية والسبكية أيضًا، ومع أني لا أدّعي أني أحطتُ القرآن كلّه من هذه النواحي فإني أرجو أن أكون قد ألممتُ بروحه ومواضيعه وكثير من دقائقه وأساليبه وإشاراته إلمامًا حسنًا، وأظن أن في كتبي الثلاثة شواهد ناطقة على هذا، مع الإشارة إلى أني استفدتُ في هذا الصدد فوائد عظيمة من كتب التفسير التي استطعتُ أن أجلبها وأطّلع عليها بل أعترف أنها كانت مُعينة رئيسية لي في ذلك، أقول أيضًا أن حفظي للقرآن لم يكن خاليًا من بعض الأخطاء والأغلاط في الحروف والكلمات وبخاصة في المتشابهات منها.

شعوري بالفرق بين الحفظ في الصغر وفي الكبر

وظل ذلك أمدًا طويلًا وما أزال أغلط وأُخْطِئ بعضَ الشيء، وقد مر على حفظي وتلاوتي نحو أربعين سنة وقد يكون من أسباب ذلك أني حفظتُ على كبر وكانت المعاني وهي التي تبرز لي فكان ذلك مما يجعلني أبدّل كلمة بكلمة تكونان في معنى أو مترادفتين، وأظن أن

حفظ القرآن في الصغر يكون أكثر رسوخًا في حروفه وكلماته وآياته لأن الصغير يلتزم النص دون المعنى.

خاطر كتابة تفسير كامل لطريقة طريفة أُتَوِّج به كتبي الثلاثة

وبهذه المناسبة أقول: إنه خطر لي في أخريات أيام السجن مشروعًا أُتَوِّجُ السلسلة القرآنية وهو كتابة تفسير كامل للقرآن على طريقة طريفة أيضًا، فأفسر السُّوَر حسب ترتيب نزولها بدلًا من البدء من تفسير الفاتحة ثم البقرة وما بعدها كما عليه جميع المفسرين، يكون فيه سلسلة مرتبة لصفحات سيرة الدعوة والحياة النبوية، فهذه أولى خطواتها إلى آخرها ترتيبًا زمنيًّا بقدر الإمكان، هذا أولًا، وثانيًا أفسر الآيات والعبارات القرآنية بعضها ببعض بقدر الإمكان مبتعدًا عن الروايات غير اليقينية والقوية وعن الحكايات والقصص التي قُدِّمَتْ في سياق الآيات، وثالثًا أهتمّ في سياق التفسير لإيراد الوقائع التاريخية والظروف الاجتماعية قبل البعثة النبوية وفي أثنائها، ورابعًا أهتمّ لتجلية مبادئ وتعاليم القرآن، فيكون هذا التفسير إنهاء للسلسلة القرآنية، وتكون السلسلة اختصارات وتبويبات، حتى إني كتبتُ هذه الخواطر وأنا في السجن وأرسلتُها إلى عرفان الجلاد الذي نقل إلى سجن حلب مع رفاقه.

تحقيقي ذلك الخاطر في هجرتي في تركيا

وأقول الآن وأنا أكتب هذه الصفحات في دار هجرتني الثانية المؤقتة في الآستانة وفي أواخر شهر كانون الأول سنة ١٩٤١م: إني رأيتُ في وقتي هنا من الفراغ ما جعلني أعود إلى فكرتي هذه وأبدأ في

محاولة لتحقيقها. ولقد بدأتُ فعلًا منذ أربعة أشهر وكتبتُ إلى الآن ثلاثة عشر دفترًا صغيرًا منها تفسير نحو ثلاثين سورة قصيرة. وقد ظهر لي أنه عمل قيم مفيد، وأني قد أنجح منه نجاحًا حسنًا بتوفيق الله وإلهامه.

اشتداد ثقل سمعي في [سجن] المزة

وفي سجن المزة صرت أشعر بعد قليل من مجيئي إليه أن سمعي ازداد ثقلًا عن ذي قبل ولعل هذا نشأ من بقائي نحو شهر في غرفة منفردة لا أتكلم ولا أسمع إلا في الساعتين القسرية في الممشى مع فهمي أبي السعود، فلما نُقل فهمي إلى غرفتي ظهر لي الفرق واضحًا في ثقل سمعي، فكان هذا سببًا لتقليلي من الكلام لأن الحراس كانوا ينتقدوننا كل ما رفع أحدُنا صوته في الحديث.

استمرار ترقي الطرش وما كان من فائدة ونعمة الله علي به

واستمر هذا الترقي في الطرش طوال مدة السجن، ومن الحق أن أقول: إن هذا كان له فوائد كبيرة، فمن جهة جعلني أنصرف إلى القراءة والكتابة والتفرغ لهما، ومن جهة كُفِيتُ ثرثرة السجناء ومخالفتهم، ولقد كنتُ إلى هذا منزعجًا من الضجة التي كانت تحدث في العنبر من جراء احتشاد العدد الكبير في العنبر الذي كانت أكثريتهم عامية سخيفة ضعيفة التربية والذوق والأخلاق.

ولقد كنتُ أَحْمَدُ اللهَ كثيرًا على نعمة الطرش كلما حاول الحاج يوسف الجباوي أن يحكي بعض نوادر السجناء وآدابهم وضجاتهم ومناقشاتهم ومنازعاتهم.

وقد كان طرشي من جهة وانصرافي للقراءة والكتابة من جهة وتحفظي في المخالطة والمعاشرة من جهة واسمي ومركزي من جهة مما جعل السجناء يحترمون لي عزلتي ويُظهرون لي الاحترام والرعاية التامّتين. على أني كنت أضطر حينًا بعد حين إلى التحدث إلى بعض المسجونين والاستماع إليهم ودعوتهم إلى الطعام، في حين أن هؤلاء كانوا نوعًا من أحسن الموجود طبقة وتربية وعقلًا.

صور متنوعة عن المسجونين وعن الذين عرفتهم في عنبري وبعض قصصهم الطريفة

وقد رأيتُني أسجّل صورًا كثيرة عن المسجونين الذين تعرّفتُ عليهم في العنبر، وهم في الحقيقة يمثّلون مختلف فئات سكّان السجن عمومًا. وها أنا أشرع في إثبات ذلك فأقول:

فئات المساجين

إن المسجونين أشكال وأنماط وهم من حيث العموم من طبقة العمال والفلاحين وعامة الناس وقليل من طبقات أخرى من المدنيين من تجار وصنّاع وسياسيين، ومن الخطأ الظن بأن سكان السجن يمثلون طبقات الشعب المختلفة، فهم باستثناء القليل من الحثالات ومن طبقة المجرمين على اختلاف أنواع الجرائم من سرقة واغتصاب واختلاس واحتيال وضرب وقتل ونصب وتهريب ومخدرات إلخ. ومع أن جرائم المحكومين قد نوقشت في المحاكم وقُدِّم عليها شهود وبيانات ووقائع الحوادث وآثار عملية لجرائمهم في أموال الغير وأعراضهم وأبدانهم ودمائهم، فالقليل من المسجونين يعترف بأن

الحكم عليه بالسجن كان بحق، وأكثرهم يدَّعون بأنهم ظُلموا إما بواسطة النفوذ أو الهوى أو الرشوة إلخ هذه الموالات.

أنشودة الخلاص والعفو عند المساجين

وللمساجين على العموم أُمنية مشتركة واحدة وهي الخلاص من السجن وهذا طبيعي، ولكنهم يشتركون في هذا الصدد بأمنية واحدة وهي الخلاص من السجن مثل انتهاء مدة الحكم بطريق العفو، ومطلب العفو يتكرر في كل وقت ومناسبة، ويتخيلون في صدده الأخيلة المناسبات، فلا يمر أسبوع إلا وشائعة العفو تدور في أجواء السجن وعلى ألسنة المساجين، فرمضان وسيلة لهذا المطلب، وعيد الفطر وعيد الأضحى وسيلة، والمولد النبوي وسيلة، ورأس السنة وسيلة، وعيد ثورة فرنسا وسيلة، وعيد استقلال سوريا من جديد وسيلة، وفي كل مناسبة أمل وترقُّب للعفو وخوض فيه، حتى لقد استولى هذا المطلب على نفوسهم إلى درجة عجيبة، حيث كان يأمل فيه ويترقب لنفسه أشد المسجونين جرمًا وأقلهم انقضاء مدة، بل صدف أن جاء شخص موقوف تحت المحاكمة فدوت مرة شائعة العفو فلم يمنع نفسه أن تساءل عما إذا كان هذا العفو سيشمله مع أنه لم يُحاكَم ولم يُحْكَم عليه.

ولقد تعرفتُ على كثير من المساجين وعرفتُ العجائب من حالات بعضهم.

ومن هؤلاء شخص فلسطيني الأصل اسمه محمد العائدي كان في الدرك الفلسطيني ثم رحل إلى حوران وأقام في درعا واشتغل في

تجارة وزراعة والتزامات ونجح نجاحًا لا بأس به حتى صار من وجهاء درعا، وهو عاميٌّ ولكنه ذكي خفيف الروح، وقد أَلَّف أثناء الثورة لجنةَ منكوبين وجمع إعانات وكان يساعد المجاهدين الرائحين والغادين بين فلسطين وسوريا وشرق الأردن، حتى أنه أعطى القائد **يوسف أبو درة*** فرسًا لا يقل ثمنها عن مئتي جنيه. وقد اتُّهم هو ورفاق له بتهمة العداء والتآمر ضد السلطة الإفرنسية في قضية ملفقة، وقُبض عليهم وأُتي بهم أولًا إلى [سجن] المزة حينما كنتُ فيه وقد ضُربوا وعُذِّبوا بكل قسوة حتى اضطروا إلى توقيع محاضر التحقيق في مركز الدرك الإفرنسي، ومن رفاقه محمد الرجا وكان رئيس بلدية درعا، وقد قال لي: إن التحقيق معهم في الدرك الإفرنسي وأمام المُسْتَنْطِق الإفرنسي وفي المحكمة العسكرية تَطَرَّق إلى ما كان نشاطه في سبيل ثورة فلسطين ومساعداته للثوار بالسلاح والمال.

ويظهر أن الإنكليز ضغطوا على السلطات في ظروف تجهُّم الحالة الدولية وخوّفوها من جهة ثانية بأن درعا من المراكز المهمة بالنسبة لسوريا، فجعلهم هذا يقبضون عليهم ويحاكَمون بتهم ملفقة، وقد حُكِمَ بالسجن ست سنوات ومحمد الرجا خمس سنوات ورفاق آخرون له بمُدَد متنوعة، وقد جيء بالعائدي والرجا إلى عنبرنا الممتاز، وقد دفعا ما يجب من إكراميات وهدايا. وكنا نقضي مع العائدي بعض الأوقات ونسمع منه بعض النوادر والنكبات، وهو خفيف الروح كما قلتُ أولًا.

وقد قص علينا قصة له وهي عجيبة من العجائب، فقد تعرَّف على

شخص من رجال الطرق الصوفية كان شيخًا في طريقته وكان له أتباع ومريدون في أنحاء سوريا ودخل هو في طريقته، وظهر لهذا الرجل بعض الوقائع التي تدل على وصوله إلى مرتبة عالية في القدرة الروحية ـ على ما زعمه العائدي ـ وقد كان الشيخ يحدثه عن الرياضة الروحية وما تبيح عنها من قوة المكاشفة والنفوذ الروحي في الشخص الذي ينجح فيها، إلى أن بدت فيه رغبة في ممارسة هذه الرياضة وقويت الرغبة، وطلب من الشيخ أن يهيئ له الأسباب، وطلب الشيخ منه الوعد والصبر والثبات، وطلب منه إخلاءه من أي مسؤولية عن كل ما يمكن أن يلحق به ضرر عقلي أو صحي من جرّاء ممارسة الرياضة، فأعطاه على ذلك المواثيق الغليظة، وحينئذ أجابه إلى طلبه.

وكانت الرياضة الروحية ثلاث درجات: دنيا ومدة ممارستها شهران، ووسطى ومدة ممارستها أربعة أشهر، وعليا ومدة ممارستها سنة كاملة، وقد بدأ في ممارسة رياضته تحت إرشاد الشيخ وإشرافه، فاعتكف في غرفة صغيرة وقطع كل صلة بينه وبين الدنيا ومعاملاتها وأفكارها ورغباتها وشهواتها، وأخذ يقلل أكله وشربه تدريجيًّا إلى أن انتهى به الأمر إلى الانقطاع تقريبًا عن تناول أي شيء عدا الماء، وكان يصلي في الليل والنهار ويهتف باسم الله اللطيف: «يا لطيف يا لطيف» بدون انقطاع، غير أنه حينما أخذت قواه تخور انقطع عن صلاته واقتصر على الهتاف بـ «يا لطيف». وكان دائمًا مستقبلًا للقبلة، وكان الشيخ يزوره من حين إلى آخر ويتعهد قواه وسير الرياضة.

وهكذا وصل الأمر به بعد الشهر الثاني وخاصة بعد الشهر الثالث

إلى الإعياء ثم الغيبوبة الدائمة، إلا ما كان يتردد فيه من نفس ويتكرر على لسانه من هتاف «يا لطيف» وأصبح لا يكاد يرى شيئًا ولا يشعر بشيء، وقد قضى هذه المدة الطويلة في الظلام، فلما انقضت المدة المقررة جاء الشيخ لفك رباطه وأخذ يعالج أمر غذائه بالتدريج فأخذ يستعيد وعيه وإحساساته رويدًا رويدًا. ولما عادت إليه قوته بعض الشيء لم يلبث أن خلع ثيابه وأخذ يسير عريانًا فاقد الرشد ولم يعد يستطيع أن يمارس عملًا ولا يتصل بأهله وأولاده، وظل هكذا مجنونًا أو كالمجنون يهذي هذيان المجانين ويثور ثوراتهم ويتحرك كحركاتهم وإشاراتهم، ثم أخذ بعد مدة ما يشعر بشفافية في نفسه وصفاء في ذهنه ويعود إليه وعيه، وصارت نبراته تؤثر على سامعيه وصار في قدرته كشف ما في ضمائرهم وسرائرهم ومعرفة أعمالهم التي يعملونها من وراء حجاب، وقد ظل على ذلك مدة غير قصيرة ثم عاد إلى حالته السابقة قبل الرياضة، فعاد إلى أهله وأعماله.

مما قاله لنا أن شيخه قد مارس الرياضة من الدرجة العليا وأنه صار شديد شفافية النفس والقوة الروحية والمكاشفة والتأثير على سامعيه، وأن الشيخ لا ينقطع عن ممارسة الرياضة حتى يظل محتفظًا بكل هذه البوادر الروحية.

شيء عن الرياضة الروحية

والذي نعرفه أن مسألة الممارسة الرياضية والوصول بوسيلتها إلى شفافية النفس وما يسمونه: «قوة المكاشفة» مسألة قديمة كتب عنها الصوفيون وغيرهم وذكروا شروطها وآثارها، وكذلك نعرف أن عند

الهنود نوعًا من الرياضة الروحية يمارسها أناس يُسَمَّون «الفقراء» ويَصِلُونَ بواسطتها إلى قوة روحية عظيمة تساعدهم على الإتيان بالخوارق من التأثير الروحاني وقراءة الأفكار والتنويم والتخيل بالطيران في الهواء ووقف بعض النفس والبقاء مدة طويلة جدًّا في صندوق مغلق والدوس على النار وغرز الدبابيس والنصال إلخ، على ما يُحكى عنهم في أمور تكاد لا تصدق.

استطراد إلى ذكر نور الدين الجاوي المنوِّم وقارئ الأفكار

وأذكر في هذه المناسبة إلى أني التقيت مع جمع من الإخوان في دمشق بأحد المشتغلين بقراءة الأفكار والتنويم المغناطيسي في دمشق وهو نور الدين الجاوي، وقال: إنه ذهب إلى الهند وبقي فيها ثلاثة أعوام يمارس الرياضة الروحية على يد بعض كبار «الفقراء» وأنه اكتسب بقوة هذه الرياضة قدرة صار بها يقرأ الأفكار ويُنَوِّم الآخرين تنويمًا مغناطيسيًّا ويأتي بما يُدهش من الخوارق في هذا الباب، حتى أنه صار يستطيع أن يُنَوِّم نفسه وأن يوقف نبض قلبه، وأجرى أمامنا بعض التجارب المدهشة من قراءة أفكارنا والإجابة على ما كنا نلقيه من الأسئلة ومن قراءة ما نحمله من أوراق مكتوبه مستورة ونكتبه من سؤالات بأي لغة كانت.

أبو رشاد الشركسي وقضية سعدي الكيلاني في الهند العجيبة

وممن تعرفت عليهم في السجن رجل شركسي اسمه أبو رشاد وكان وكيلًا في مزرعة سعدي الكيلاني الدمشقي وسافر معه في رحلته إلى الهند سنة ١٩٣٦م، وكانت الجرائد أشارت إلى خبر هذه الرحلة،

وطلبتُ منه أن يقص علينا بعض تفاصيلها، والذي بقي في ذاكرتي من ذلك ـ وقد مر على الكلام سنتان ـ أن سعدي وقع في أزمة مالية فرأى أن يقوم بزيارة إلى الهند لما يعرف عن مسلميها من احترامهم العظيم لعبد القادر الكيلاني الصوفي الشهير وذريته والمنتسبين إليه احترامًا كبيرًا يقرب في بعضهم من العبادة والتقديس، وقد استغل أبناء الأسرة الكيلانية في العراق والشام هذه العاطفة استغلالًا كبيرًا، فأنشأ بعضهم الصِّلات مع مسلمي الهند، ومنهم من رحل إليهم وأقام عندهم، ومنهم من يرحل إليهم من حين إلى آخر على سبيل الزيارة، وكان الهنود يغدقون على من يرحل إليهم أو يتصل بهم من الكيلانيين الخيرات والهدايا والثروات والأوقاف الكثيرة التي يتمتع بها الكيلانيون العراقيون خاصة بنصيب كبير منها حيث أن عبد القادر الكيلاني مدفون في بغداد وله مقام عظيم مشهور وهم سدنته والمشرفون على آثاره ومبراته ومسجده.

والأسرة الكيلانية العراقية كبيرة ذات فروع ولها مركز عظيم وثروات عظيمة، وفيهم نقابة الأشراف، والأسرة التي فيها هذه النقابة تعرف بأسرة النقيب، وقد ذكرتُ قصور ونخيل أسرة النقيب في البصرة في مناسبة رحلتي إلى بغداد والرياض.

وقد رأى سعدي الكيلاني هذا أن ينتفع بهذه العاطفة لعله يخفف من ضيقه وأزمته، فاعتزم الرحلة إلى الهند وأخذ معه أبا رشاد الشركسي تابعًا ورفيقًا وقد أطلق ذقنه ولبس الجبة والعمامة والقنباز ووصل الهند على هيئة شيخ من مشايخ الكيلانيين، فلم يلبث أن أخذ

يقابَل بالإقبال والاحترام وصار يسمى «البير» أي شيخ الطريقة الكبير، وكان ينتقل من مكان إلى مكان فيُستقبل أحسن استقبال ويُخصص له المنزل اللائق ويأتي إليه الناس من كل صوب للتبرك به والاستشفاء بدعائه والاستماع إلى نصائحه وإرشاداته.

ووصل في تنقلاته إلى مقاطعة شمالية قريبة من الحدود الأفغانية، وكان المسلمون فيها أشد غفلة من غيرهم، فلم يلبث أن صار فيهم موضع تقديس شديد، ولقي لديهم التبجيل والتكريم، وانتشر اسمه بينهم فصاروا يأتون إليه وفودًا يدعونه إلى تشريفهم ويتسابقون إلى نيل رضائه وتقديم الهدايا له، واستمرأ هذا الإقبال فأخذ يتدخل في شؤونهم ويدرس أمورهم وقضاياهم وعلاقاتهم بالإنكليز والقبائل الأفغانية، وكان هناك فئة هندية إسلامية ثائرة بقيادة ثائر اسمه «فقير ايبي» وكانت أخبار ثورته تنشر في الصحف من آن لآخر. وكان أهل المنطقة متعاطِفين معه، فاندمج سعدي بعض الاندماج في الموقف فأثار ريبة الإنكليز من جهة ورغبة فيهم من اختراق نفوذه في عرقلة حركة الثورة وتعاطف المنطقة معها من جهة أخرى، فكانت لقاءات بينه وبعض رجال الإنكليز في بعضها تحبيب وفي بعضها تخويف وتهديد، وأخيرًا ذهب إلى اجتماع مع قائد إنكليزي ولم يلبث تابعه الشركسي الذي بقي في المنزل أن تلقى منه كتابًا قال له فيه أنه اضطر إلى مغادرة بلاد الهند على متن طائرة وطلب منه العودة إلى دمشق، وعلم بعد ذلك أن الإنكليز أعطوه مبلغ خمسين ألف جنيه وطلبوا منه الرحيل.

وقد كنا قرأنا في بعض الصحف تصريحًا للثائر «فقير ايبي» عن سعدي والدور الذي لعبه في صدد ثورته وعلاقة القبائل الشمالية بما يمكن أن نفهم منه أن سعدي قام إما بدور المثبط عن الثورة وقائدها، فكافأه الإنكليز بهذه المكافأة وسهّلوا له سبيل العودة الآمنة، وإما بدور توهم الإنكليز أن من المحتمل اتساع نطاق الثورة إذا بقي سعدي في المنطقة فجعلهم هذا يمنحونه المكافأة ويبعدونه بالتي هي أحسن تاركًا ما تلقاه من هدايا ونذور ومنها النقدي ومنها العيني ومنها ما هو أبقار ومواشي، وقد أُسقط في يد أبي رشاد وخاف من عاقبة سيئة وقال للجماعة أنه تلقى كتابًا من السير سعدي يدعوه فيه إلى مقابلته، ثم سافر وتمكن من مغادرة الهند هو الآخر.

وكان أبو رشاد هذا يلبس جبة قصيرة مزركشة وعمامة مزركشة على طاقية مزركشة ويقول: إن هذه الكسوة أُعطيت له من نظام حيدر آباد حينما زاره سعدي، وأن سعدي لقي من هذا النظام احترامًا وحفاوة كبيرين. وكنا قد قرأنا بعض الإشارات إلى رحلة سعدي ومغامراته، وأظن أن ما ذكره أبو رشاد صحيح واقع. وكان هو متزوجًا بسيدة ألمانية. فلما أعلنت الحرب العالمية الثانية كان هو من أوائل من اعتقلتهم السلطات مع زوجته وأرسلتهم إلى معتقل في صيدا جمع فيه رعايا الألمان. ثم نُقل إلى تدمر ثم إلى سجن المزة أثناء وجودنا فيه وأُلحقت به زوجته بعد قليل، وظلا مُعْتَقَلَين في [سجن] المزة إلى أن انكسرت فرنسا وعقدت هدنة مع ألمانيا بزعامة بتان فأطلق سراحهما وسراح المعتقلين من الألمان معًا.

السجين القبضاي الحلبي حسين الخربوطلي وقضية سجنه وتبجحاته

ومن الذين كانوا في عنبرنا رجل من حلب اسمه حسين الخربوطلي، وكان مفتشًا في بلدية حلب، وله اتصالات بشباب وقبضايات حلب، وكانت الكتلة الوطنية في حلب تعتمد عليه وتكلّفه ببعض الأعمال من مظاهرات واجتماعات، فلما استقالت حكومة الكتلة وقامت المظاهرات قامت مظاهرات في حلب أيضًا فاعتقلته السلطات فيمن اعتقلتهم وعذّبته وضربته إلى درجة الخطر حتى شاع موته وكان ذلك سبب هياج وإضراب، وقد سيق إلى بيروت وحوكم في محكمة عسكرية وحُكم عليه بالسجن خمس سنوات وأُرْسِلَ إلى دمشق ليقضي مدة سجنه في القلعة.

وكان هذا الرجل أيضًا مريضًا بداء الزعامة والعَظَمة دائم الحديث عن زعامته وشعبيته في حلب وما كان لحبسه من أثر فيها، ويرفع نفسه إلى درجة [إبراهيم] **هنانو*** و[سعد الله] **الجابري*** بل ويكاد يقول أن زعامته كانت أمتن وأقوى، وأن كلمة منه أو إشارة كافية لقلب حلب رأسًا على عقب.

وكانت أحاديثه هذه لجميع من يراه في مناسبة وغير مناسبة، وكان يتصنع الجد والوقار ويعزم الناس إلى فراشه ويشبعهم الشاي والقهوة ويحدثهم بأحاديثه إلى درجة الإبرام، حتى صار الناس يَلْمَحُون مبالغاته ويرون أنه مريض بها.

تعرفنا على الحاج محمد القطب وشيء عنه

ومِمن تعرفنا عليهم في العنبر الحاج محمد قطب من دمشق، وكنتُ رأيتُ هذا الرجل في مدرسة **الشيخ كامل القصاب*** في دورها الجديد. وكان يتعاطى التجارة، وقد سجن بسبب قضية تجارية، ولقد كان يشتغل في صنف الأقمشة الحريرية بخاصة وقد خزن منها كميات كبيرة وهبطت الأسعار هبوطًا سريعًا ومستمرًّا فذاب رأسماله الذي كان يُقَدَّر بعشرة آلاف ليرة ذهبية وذابت معه أموال الدائنين له من أقاربه وغيرهم، فأدى ذلك إلى إعلان إفلاسه، ثم اتفق مع الدائنين الغرباء على تسويات وسطية، وقد اتهمه أقاربه الدائنون بالاحتيال في الإفلاس وأقاموا قضية ضده واستصدروا أمرًا بتوقيفه.

ولقد كان والده من العلماء الدينيين ومن الحُفَّاظ والقراء معًا، فنشأ نشأة علمية دينية حيث تلقى علومًا شرعية عن أبيه وعلماء آخرين وتَفَقَّه وصار على درجة لا بأس فيها من العلوم الشرعية وبخاصة في الفرائض وفي فقه الشافعي.

وقد تلازمنا معًا خلال المدة التي قضاها في السجن وهي أربعة أشهر، وقد ساعدني فأحضر لي من مكتبة بيته بعضَ كتب التفسير التي استعنتُ بها على ما كنتُ أكتبه من المسائل القرآنية، وكنا نتشاور في مشاكل المسلمين وأمراضهم وخاصة في موضوع القضاء والقدر، ومع أنه ليس غبيًّا إلا أن طابع المشايخ التقليدي طبعه فجعله جامد الذهن والفكر نوعًا ما في العُقَد العقائدية، وكثيرًا ما كنتُ أقيم عليه الحجة

من القرآن فيأخذ يحاور وأحيانًا يعجز ويسكت، وكانت مباحثاتنا وسيلة لإدخال بعض الأفكار والحجج والفصول في كتاب «تعاليم القرآن» الذي صار «الدستور القرآني» حين طبعناه رغبة في دفع حجج أمثاله في تصحيح الخطأ في نظرتهم للقرآن وفهمهم إياه، ومن أمثلة ذلك أنه كان يقول: إن الله خالق أعمال الإنسان بنص القرآن، ثم يورد آية الصافات: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾، ولما نبّهته إلى أن هذه الآية أُورِدَتْ حكايةً لقول إبراهيم لقومه وليس تقريرًا ربانيًّا في المعنى الذي أراده؛ بوغت بغتة مُسْكِتة. ومما أذكره عنه أنه كان يتورع عن أكل خبز السجن وغيره مما توزعه إدارة السجن من لحم وفاكهه أحيانًا، وسألته عن سبب ذلك فقال: إن المال الذي تُشْتَرى به هذه المأكولات جُمِعَ بطرق غير شرعية من مكوس وغيرها، وحاججناه وقلنا له: إنك أنت تدفع المكوس والضرائب للدولة وأنت تتعامل مع المصارف وهو يشتغل بالربا فتكون متناقضًا فيما تقول! فأخذ يتمحّل ثم عجز عن الكلام.

والشيخ محمد القطب هذا عضو في جمعية العلماء التي أنشاها **الشيخ كامل [القصاب]*** ومعلم في المدرسة حينما أعاد فتحها بعد عودته من فلسطين، وقد كان عاتبًا عليه فقد أرسل إليه وهو في السجن يرجوه بالسعي في أمر توقيفه ـ الذي كان كما يقول تجنيًا ـ لِمَا بينهما من صداقة وصلة عمل ولِمَا يعرف من نفوذ بكلمة الشيخ فلم يفعل شيئًا، وكان يتوقع منه زيارة على الأقل فلم يره، وأرسل يعتذر عن ذلك بحجة أنه لم يزرني وكنتُ سابقًا له في السجن وبيني وبينه صداقة

وثيقة فيكون ذلك منه منتقدًا وثقيلًا كما قال لي، ولم يمنع نفسه من غمز الشيخ وكونه يهتم بمصالحه ومركزه وأنه يستغل صداقاته **[للملك عبد العزيز] ابن السعود*** ومساعداته له إلخ.

ومنذ أن حضر الحاج محمد القطب إلى عنبرنا صارت تقام الصلاة جماعة، حيث دعا إلى ذلك وأجبناه وكان يهرع أكثر الموجودين إلى الاشتراك، وهكذا صارت تُصَفّ الصفوف للصلاة خمس مرات في اليوم في طاقتنا التي شاركنا فيها حتى أطلقنا عليها اسم «المسجد».

ولقد كان في العنبر خمس طاقات أو قناطر، وكان في إحداها طاولة زهر وجماعة يلعبون بها ومنها جماعة آخرون يلعبون ورق الشدة فكنا نُسَمّي هذه الطاقة «المقهى»، وكان [هناك] طاقة فيها جماعة يتعاطون الحشيش فسميناها «المَحْشَشَة»، وكان [هناك] طاقة للعريف تُنْصَب فيها كل مساء مائدة الخمر والمازوات ويضرب فيها بعضهم على عود ويغنّي فكنا نسميها «الحانة والمرقص»، وكان هناك طاقة مظلمة ينام فيها شاب سهل العركة معتاد على ذلك فكان بعضهم يزورونه في الليل فسميناها «الكرخانة».

تعرفنا على أبي بكري حسن خيتو*

ومن الذين تعرفت عليهم وحَسُنَتْ معاشرتي معهم شخص من دوما اسمه **حسن خيتو أبو بكري*** وهو وكيل **لفخري البارودي***.

تعرفنا على عبد الحميد عربي كاتبي*

وممن تعرفتُ عليهم في العنبر الأول شاب دمشقي اسمه **عبد الحميد عربي كاتبي*** وهو موقوف بقضية تهريب جمركي.

تعليقاتنا على مجرى الحرب وعواطف الناس مع الألمان ضد الإنكليز والإفرنسيين

وصار ورود الجرائد وسيلة للتعليقات السياسية وكان يقرأها أكثر من واحد في العنبر وكان هوى معظمهم مع الألمان ينتظرون ويتمنون انتصارهم على الإنكليز والإفرنسيين نظرًا لما تعانيه البلاد العربية في آسيا وإفريقيا من هاتين الدولتين الغاشمتين، ففيهما نضال شمال إفريقيا ومعظم البلاد العربية في آسيا وقد بلت بريطانيا فلسطين ببلاء عظيم هو جرثومة سرطان خبيث لجميع بلاد العرب حالًا ومستقبلًا، ولم يعانِ العرب منِ الألمان شيئًا وإذاعاتهم تبشر بمستقبل حسن لبلاد العرب ومهما كان فيهم أعداء لهذا السرطان الخبيث على الأقل، وانكسار الدولتين لا بد من أن يأتي بالفرج لبلاد العرب. على كل حال، من المسجونين من كان يتمنى الانكسار لهما على الفرج لهم في السجن أيضًا انطلاقا من أنشودة العفو.

وكان زوار السجن يأتون بالأخبار والشائعات المتنوعة أيضًا وكان معظمها سياسية وعن الحرب ومستقبلها وتعبر عن هوى الناس في انتصار الألمان وانكسار فرنسا وبريطانيا.

تعرفنا على موفق الطباع*

وممن تعرّفتُ عليه شاب اسمه **موفق الطباع*** من دمشق.

محاكمة قضية اغتيال بهيج الخطيب وإشراك نبيه العظمة* وآخرين فيها

وقد وجدتُ من تسجيلات الدفتر تسجيل محاكمة تهمة اغتيال بهيج الخطيب التي كان قد اعتُقِلَ بسببها نجيب الريس وعرفان الجلاد على ما شرحته قبل. وقد شمل التحقيق والمحاكمة **نبيه العظمة*** و**منير الريس*** وكانا مَحْكُومَين في محكمة بيروت العسكرية وقد نُقلا مع غيرهما من رفاقهما إلى عنبر السجن السياسي الذي نُقِلْتُ إليه فيما بعد، حيث تشعّب التحقيق حتى شمل **نبيه العظمة*** و**منير الريس*** و**عادل العظمة*** و**مهدي مرتضى*** و**محمود البيروني*** و**شفيق سليمان*** و**أبا الهدى اليافي*** والحاج أديب خير وأحمد شرباتي وخالد القنواتي والدكتور سعيد فتاح الإمام وعبد الهادي المعصراني والدكتور رشدي الجابي وغيرهم، بالإضافة إلى نجيب وعرفان ومَنْ كان معهم من أهل حماة، وقد أحس بالشَّرَك بعضُ هؤلاء فاختفوا ومنهم من استطاع أن يذهب إلى العراق وظلوا غائبِين أو مختفين إلى أن انكسرت فرنسا وصدر عفو عن المسجونين السياسيين، وقد أُخِذَ **نبيه*** و**منير*** ورفاقهم المُتَّهَمِين مجدَّدًا من العنبر السياسي إلى [سجن] المزة وحُقِّقَ معهم وحوكموا جميعًا، الحاضرون وجاهيًّا والفارُّون غيابيًّا وحُكِمَ عليهم جميعًا، وكان نصيب **نبيه*** عشرين سنة جديدة، وأكثرهم بمدد مثل هذه أو قريبًا منها، وأظن أن منهم من حُكِمَ بالإعدام، ثُمَّ بُدِّل حكمه إلى المؤبَّد وأُرْسِلوا جميعهم بعد الحكم إلى سجن القلعة وأُنْزِلَ بعضُهم في العنبر الجديد، ومنهم **نبيه*** وعرفان الجلاد، ثم نُقِلَ **نبيه*** و**منير***

وبعض رفاقهما إلى سجن حلب بسبب كثرة مشاغباتهم على مستشار السجن وطلباتهم كما قيل حيث سُجِنا في سجنها.

اعتقال الفلسطينيين بعد إعلان الحرب وبعض المعتقلين وما جرى معهم

كانت سلطات الأمن في سوريا عقب إعلان الحرب تضامنًا مع الإنكليز أخذت تضيق على الفلسطينيين وتعتقلهم، وقد اعتقلت عددًا كبيرًا وظلوا موقوفين أيامًا بدون توجيه تهمة في القلعة، فأثاروا شغبًا وأضربوا عن الطعام وكادت تصبح مسألتهم مشكلة في السجن، ثم أخذت السلطات تفرج عنهم وتأمرهم بمغادرة سوريا حالًا، وحكمت على بعضهم بالسجن بتهمة دخولهم بدون جواز سفر وعلى بعضهم بتهمة حيازة سلاح، وأُعْطِيَتْ أسماءُ الموقوفين إلى القنصل الإنكليزي فأرسلها إلى فلسطين وأَرْسَلَتْ سلطات فلسطين تطلب تسليم بعضهم بحجة أن عليهم قضايا وشكايات، وحينما نزلنا من سجن المزة إلى القلعة كان قد بقي من الحشد نحو عشرين، منهم محكومون ومنهم موقوفون مطلوبون من سلطات فلسطين، وكان من هؤلاء أربعة من سيلة الظهر، منهم ثلاثة مُتَّهَمون بحادث سطو على بنك في يافا وواحد كان شابًّا سجينًا في سجن الإصلاحية في طول كرم، وفر منهم فائز النمر البوليس من بورين الذي فر من الخدمة ببندقيته والتحق بالثورة ثم جاء إلى دمشق، ومنهم واحد من القدس اسمه البدوي أسود اللون محكوم بسنتين بتهمة حمل المسدس وفار من السجن، وواحد من عتيل واثنان من صفد محكومون بسبب الثورة والسلاح وفارون أيضًا،

وقد أرسلت السلطات أوراق طلبهم إلى محكمة إفرنسية لدرس مشروعية الطلب وقررت نتيجة للدرس تسليمَهم، وقد أُرْسِلوا مخفورين إلى الحدود وسُلِّموا إلى سلطات أمن فلسطين باستثناء فائز النمر الذي استطاع أن يفلت من الحارس قبل التسليم ويفر ويختفي.

وقد ظلت سلطات أمن سوريا تطارد وتعتقل الفلسطينيين بعد نزولي إلى القلعة أيضًا، وممّن اعتقلتهم وأتت بهم أخي **محمد علي*** بعد أن أُطْلِقَ سراحُه من منفى تدمر، وصالح عون الله وكان مساعدًا لي، وأخوه رؤوف، ونايف صبح أحد الوجهاء والوطنيين في صفد، وشاب من عكا من بيت النعانة، ونجيب أبو الرز من بلعا و**كامل الحطاب*** وهو شاب متحمس فقط، وأبو بكر البرقاوي، وواحد من الرملة اسمه جبر، وعربي الإبراهيم أخو أبي إبراهيم الصغير الشيخ توفيق، وواحد من عتيل اسمه الأشقر قطيع اليد، وشاب من طبريا. وصالح العون الله اعتُقل نتيجة شكوى ضده من شرق الأردن بتهمة تهريب سلاح، وقد بقي ثلاثة أشهر ولم تُقَدِّم شرق الأردن أوراقَ تهمة ضده، وجرت مساعٍ خارجية فأُطلق سراحه. وأخوه رؤوف وأخي **محمد علي*** اعتُقِلا لأن ابن النعانة قال: إنهما أعطياه مالًا للسفر إلى بغداد، نتيجة ضربه وعذابه، وقد حُكِم على رؤوف ثلاثة أشهر بسبب عدم وجود جواز معه، أما **أخي [محمد علي]*** فقد أُطْلِقَ سراحُه بعد يومين والتقيتُ به وأخبرني أنه في حالة إزعاج شديد، فجواسيس الأمن العام الإنكليزي يلاحقونه كظله ويُحصون عليه الأنفاس لترجيحهم أنه يقوم مقامي في النشاط والحركة، والفلسطينيون الذين

بقوا في دمشق يلاحقونه للسبب نفسه ويطلبون منه المساعدة على الحياة وعلى السفر إلى بغداد.

فرار كامل الحطاب*

ومما حدث أن السلطات حاكمت **كامل الحطاب*** بتهمة عدم وجود جواز سفر وحكمته ثلاثة أشهر، وقد سعى لدفع الغرامة بدلًا من السجن وقُبِلَ منه وأُفْرِجَ عنه، ولكن السلطات اعتقلته ثانية بحجة طلبه من قِبَل السلطات الإنجليزية وقررت المحكمة تسليمَه فعلًا، ولكنه غَافَلَ حارسَه في ظرف عودته من المحاكمة وفَرّ ولَحِقَ به الدرك واعتقله ثانية، وأُخِذَ إلى القلعة فضُرب وعُذِّب وحُبِسَ في زنزانة ثم أُرْسِل إلى عنبر الجورة، وكان فراره في ظروف انكسار فرنسا وعقدها الهدنة ولضياع السلطات الإفرنسية أحكامها فكان ذلك من أسباب عدم تسليمه للسلطات الإنكليزية، ثم أُطْلِقَ سراحُه.

خطبة هتلر منذرًا بشرب الشاي في فرسايل والويسكي في لندن

ومما يجدر ذكره أن هتلر خطب بعد الزحف الألماني الذي ضعضع فرنسا وبريطانيا وجعل الأولى تنهار وتستسلم والثانية تفرّ مذعورة إلى جزرها، وقال: إنه سيشرب الشاي في فرسايل بتاريخ ١٥ حزيران عام ١٩٤٠م، ثم يقيم حفلة ويسكي في لندن بتاريخ ١٥ آب عام ١٩٤٠م، فتحقق إنذاره تقريبًا، إذ سقطت باريس في النصف الأول من حزيران.

شعور الشماتة بفرنسا

ولقد كان المساجين وبخاصة متنوريهم يتتبعون أنباء الحرب بلهفة

وهيجان، وكان شعور الشماتة بما حل في فرنسا من هزيمة قويًا مناسبًا مع ما كان ظهر منها في سوريا من صلف وما كان من غدر وتراجع عن معاهدة الاستقلال ورجوع إلى ممارسة الانتداب.

وتوقعنا أن يكون لانهيار فرنسا أثر في تطور الموقف السياسي في سوريا وأثر كبير في بريطانيا وموقفها السياسي في بلاد العرب، وهذا كان على كل حال قوي الاحتمال في حالة انتصار الألمان الذي كان هو المتوقع، وقد رأينا رد فعل الهزيمة على المستشار الإفرنسي ومفتش الدرك الإفرنسي في القلعة، حيث كان وجهاهما يقطران مرارة وتجهمًا، فما كان مني إلا أن هتفت بالآية الكريمة: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ .

ما أثاره انهيار فرنسا في نفوس الناس من شماتة واستبشار

ولقد كان لخبر انهيار فرنسا وعقد الهدنة رد فعل إيجابي غير يسير في نفوس المساجين وفي نفوس الأهالي عامة على ما كان ينقله الزوار ومما أثار في الناس من الشماتة والاستبشار، وكان لهما رد فعل سلبي في الإفرنسيين حيث خَبَتْ غطرستُهم وخيلاؤهم، وكان ذلك في الوقت نفسه مما أثار أنشودة العفو في المساجين وفتح باب الأمل الواسع وبخاصة السياسيين والمحكومين في المحاكم العسكرية، حتى أن مستشار السجن وموظفيه كانوا يظنون أن هذا واقع في محله، وكان المتوقَّع أن يكون ذلك في مناسبة عيد الثورة الإفرنسية الكبرى في ١٤ تموز الذي يأتي بعد ثلاثة أسابيع، وأخذت الأخبار من الخارج عن ذلك ويؤيد بعضُها بعضًا بخاصة بالنسبة للمسجونين السياسيين أو

العاديين، ولا سيما أن حكومات العراق ومصر والسعودية راجعت المرة بعد المرة بشأنهم، وقد أخبرني أخي [**محمد علي**]* أن هذا الأمر يكاد يكون حقيقة وأنه نُقِلَ عن لسان بعض كبار المسؤولين الإفرنسيين فصدق وصرنا ننتظر يوم ١٤ تموز.

المساعي المتنوعة من لدن مصر والعراق والسعودية في صدد إطلاق سراحِي وسراح المسجونين السوريين السياسيين

وفي دفتري تسجيل طويل في هذا الشأن وبخاصة في شأني لم أَرَ بأسًا بإثباته، ويبدأ التسجيل هكذا:

منذ أن اتجهت نية الإفرنسيين إلى محاكمتي ومنذ أن حُكِمَ على **نبيه العظمة*** ورفاقه للمرة الأولى بعد اعتقالي ـ وكان ذلك بعد إعلان الحرب ـ تيقنًا أن مصيرَنا قد ارتبط بمصير الحرب، وأن هذا الاتجاه هو اتجاه ترهيبي رُئِيَ أنه لا بد منه بسبب ظروف الحرب من جهة ولأجل إخماد حركة فلسطين الثورة من جهة أخرى تضامنًا مع الإنكليز مما أملتْه المشاركة في الحرب، وكنت أقول هذا لأخي [**محمد علي**]* ولكن هذا لم يمنع أخي من الأمل والعمل في سوريا ولبنان حينًا بعد حين من جهة، ولم يمنع إخوانَنا وأصدقاءنا في مصر والعراق أيضًا من الأمل والعمل لدى المقامات الإنكليزية على اعتبار أن مصر والعراق حليفتان للإنكليز، وأن من مصالح إنكلترا وحليفتها فرنسا أن تكسب قلوب العرب وأن تكف عن إثارة نفسهم وتعكيرها.

ولقد كان أخي [**محمد علي**]* يخبرني بما يصل إليه من أخبار وما

يقوم به من مساعٍ بقصد تطميني، فأجيبه بأن ذلك في نظري غير مُجْدٍ وأطمئنه بطمأنينتي النفسية وراحتي.

ولقد كانت وزارات خارجية مصر والعراق والسعودية قد راجعت وكتبت وكانت تأخذ جوابات فيها وعود مُبْهَمَة وتطمينات أصولية، لأن النية متجهة إلى الإبقاء على هذه الظاهرة الترهيبية في الحقيقة ونفس الأمر، ولقد اطلعنا على كتابات كانت تكتبها جرائد مصر وأخبار كانت تنشرها عن مساعي إخواننا ومذكراتهم وعن مساعي مصر بناء عليها وعمَّا وصلت إليه تلك المساعي، وكل ذلك ظل كما حسبنا عقيمًا غير مُجْدٍ في ظروف الحرب، ولكنه ترك ولا شك شيئًا من الأثر في الملفات الإفرنسية في سوريا وباريس، بل لقد رأينا السلطات الإفرنسية في بيروت تنشر بيانًا في صدد الحكم الثاني على نبيه* ورفاقه ذكرت فيه أنه ثبت بالدلائل الكافية اتصال المحكومين بالمصادر المحورية وعزمهم على مساعدتها وعلى تسليح الأهالي والقيام بحركات ثورية تنفيذًا للمآرب المحورية الأجنبية. وكان البيان داعيًا لسخريتنا الشديدة، لأنه كَذِبٌ بدون ريب من جهة، ولأن الاستعانة بالأجانب لأجل كفاح الفرنسيين وإزعاجهم والقضاء على سلطانهم إن أمكن ليس خيانة ولوثة وطنية إن صحت من جهة ثانية، فالوطنيون في كفاحهم طلاب حرية واستقلال، وقد اتفق العرب مع الإنكليز في الحرب الماضية وتعاقدوا على حريتهم واستقلالهم وأعلنوا الثورة على الحكومة العثمانية، فلما رأوا منهم الغدر والنكث قاتلوهم، فإذا جدّوا للاستعانة عليهم بالأجانب فإنما يسعون في سبيل حريتهم واستقلالهم

أيضًا، وقد كانت سخريتنا منبعثة خاصة مما يقوله الإفرنسييون ويحاولون أن يصوروه خيانة أن العمل إذا صح فهو خيانة للأجنبي الغاصب وهي خيانة شريفة مشروعة، بينما كانت التهمة في خيانة الإفرنسيين لوطنهم والتآمر مع هتلر والارتشاء منه تتجاوب أصداؤها في مجلس النواب الإفرنسي.

وهذه عادة اعتادها الإنكليز والإفرنسيون ويسير عليها كل مستعمر حينما يرى حركات من الوطنيين ضد استعماره وسلطانه. والغالب أن المستعمرين الذين ينشرون ذلك يريدون أن يعلموا أهل وطنهم ليثيروا في نفوسهم الحماس ثم الحقد والعداء ضد الوطنيين ويزيلوا ما يمكن أن يكون من مظاهر الإنصاف والإشفاق في نفوسهم. وقد اعتقدنا أن هذا البيان قد نشر كرد غير مباشر على ما تكتبه صحف مصر والعراق وتذكره من مساعي ومراجعات حكومات مصر والعراق والسعودية حتى يصوّر الإفرنسيون أنفسَهم معذورين إذا أصدروا مثل هذه الأحكام أو أظهروا شيئًا من الإرهاب والتشديد وإذا سجنوا بعضَ الوطنيين المناضلين وأهملوا مراجعات الحكومات العربية في شأنهم.

اعتقالات جديدة للإرهاب مثل إحسان الجابري* وعادل أرسلان* ورفاق لهما

على أن مسلك التشديد لم يقتصر على الذين حُوكموا وسُجنوا بل كانت السلطات الإفرنسية تعتقل وتنفي بعضَ الوطنيين بأساليب وصور متنوعة، فقد بَلَغَنا ونحن في السجن خبر اعتقال **إحسان الجابري*** وجميل إبراهيم باشا زَعِيمَي حلب، وعبد الواحد هارون زعيم

اللاذقية، واعتقلت **الأمير عادل أرسلان*** وهاني أبا مصلح **وعارف النكدي*** وهم من رؤوس وخيرة أبناء جبل الدروز في لبنان وأرسلتهم إلى تدمر، وهؤلاء الثلاثة أُتِيَ بهم من لبنان إلى دمشق، ولما كان الليل قد أدرك فقد أُرسِلوا إلى سجن القلعة ليقضوا في إحدى الغرف المجاورة لغير السياسيين، ونسجل أن اعتقال هؤلاء الثلاثة لم يطل إلا أيامًا حيث انكسرت فرنسا وتهادنت مع ألمانيا فأُرجعوا إلى بلادهم أحرارًا.

فلما انهارت فرنسا وعقدت الهدنة مع الألمان صار الأمل في العفو معقولًا لأن الحرب دخلت في حكم المنتهية بالنسبة لفرنسا كما كان ظاهرًا، فتجددت المساعي في سبيل إطلاق سراحنا وسراح المحكومين السياسيين السوريين، وأحذت تجد استجابة إيجابية هذه المرة.

ومما علمناه أن بعض المتصلين برجال الهدنة من الألمان والطليان الموجودين في سوريا بذلوا مساعيهم معهم أيضًا، وأن هؤلاء استجابوا وأخذوا يُظهرون عطفًا ويؤيدون المسعى، وقد أخذت الإشاعات تتجدد بيننا عن صدور عفو عام أو خاص عن المحكومين السياسيين وعن السياسيين المحكومين من المحاكم العسكرية في مناسبة عيد الثورة [في] ١٤ تموز وأن هذا العفو معقول ومنطقي بعد انعقاد الهدنة، حتى كادت هذه الشائعات في حكم اليقين وتنسب إلى رجال فرنسا الكبار في سوريا.

وبينما الأمر كذلك اغتيل **الدكتور عبد الرحمن الشهبندر*** في دمشق، وكان أول ما ورد على ذهننا احتمال تأخر تنفيذ العفو في عيد الثورة بسبب ما أحدثه الحادث من رجة وهيجان في دمشق، وكان الأمر كذلك حيث تأخر إطلاق سراحنا وسراح المسجونين السياسيين نحو شهرين آخرين على ما سوف نذكره بعد.

قضية مقتل [عبد الرحمن] الشهبندر*

ونستطرد إلى شرح سيرة هذا الاغتيال وقد وجدناه مفصلًا في دفاترنا، وكان ذلك في أوائل تموز [عام] **١٩٣٩**م، ولقد كان الدكتور غادر سوريا إبان الأزمات التي قامت بين حكومة الكتلة الوطنية والحكومة الإفرنسية التي أعلنت تراجعها عن المعاهدة وعزمها على إجراء دراسات جديدة لمعاهدة جديدة، وكان ذلك نقضًا للعهد وعودة إلى عهد الانتداب، وكان **الشهبندر*** وجماعة المعارضين معه يحملون على حكومة الكتلة لتساهلها فصار الموقف وطنيًا نضاليًا، وجعل **سعيد حيدر*** الذي كان منهم يعتبر ذلك فرارًا من الميدان الوطني ويقسم لي أنه لن يكلمه بعد الآن.

وقد عاد **الشهبندر*** بعد انسحاب **هاشم الأتاسي*** وعودة الممارسات الانتدابية إلى سابق عهدها وتعيين حكومة مديرين برئاسة بهيج الخطيب، وظل يحمل على الكتلة دون أن يكون له موقف نضالي في هذا الظرف الذي يقتضي ذلك، فكان موقفًا عجيبًا آخر.

الرجة الشديدة من مقتل الشهبندر*

ولقد كان للحادث ـ كما قلنا ـ رجة شديدة في الأوساط الإفرنسية

والأوساط الحكومية وأوساط البلد أيضًا. فجماعة **الشهبندر*** وجريدة الأيام ـ وهي منهم ـ أخذوا يهاجمون جماعة الكتلة، واعتبروا الحادث مؤامرة مدبرة منهم، وجماعة الكتلة استعدت للدفاع عن نفسها ورجالها.

وكان صفوح المؤيد يتولى وكالة محافظة دمشق فشمّر عن ساعديه وأخذ يتآمر على اعتقال أكبر عدد ممكن من شباب الكتلة المعروفين باتصالاتهم برجالاتها الرئيسيين، حتى أنه ذهب إلى بيت **عفيف الصلح*** ـ وهو من رجال الكتلة البارزين ـ وجره إلى دائرة الشرطة حافيًا في ثياب النوم لتشخيصه من قِبَل بعض المُتَّهَمِين في المؤامرة وأسمعه الكثير من بذيء القول والشتائم.

واندمج بهيج الخطيب رئيس الحكومة في الشغب والتآمر على جماعة الكتلة لأنه كانت هناك مساعٍ من جانب **شكري القوتلي*** وبعض إخوانه لتبديل الحكومة وتخليصها من أيدي بهيج وطغمته اغتنامًا لفرصة انكسار فرنسا وكانت توشك أن تنجح لولا وقوع هذا الحادث، فرأى الفرصة سانحة لضرب رجالات الكتلة والتخلص منهم بدوره، وقد أيده بعض الموظفين الإفرنسيين المحليين في هذا الاندماج وعاضدوه كرهًا برجال الكتلة وحكومة الكتلة، لأنهم كانوا في حكومة بهيج هم الحكومة والحُكَّام، وكان بهيج وحكومته آلات في أيديهم، ولم يكونوا يتمتعون بعُشْرِ ذلك في حكومة الكتلة.

ولقد بُدئ بجلب الذين اعتُقلوا إلى القلعة بعد وقوع الحادث

بساعات، ولم يأتِ المساء إلا وكان في القلعة منهم نحو خمسين، وقيل: إنه كان في دائرة الشرطة نحو خمسين أو ستين آخرين، ومِمَّن أُتِيَ بهم: حسن الخياط وحسني تللو وراتب القضماني **وبشير القضماني*** وصبحي القضماني أبوهما وغيرهم ممن لم تبقَ أسماؤهم في الذاكرة، وكان يُخْشَى أن يقع اصطدام بين أنصار الكتلة وأنصار **الشهبندر*** بمناسبة الجنازة، فاحتاطت السلطات الإفرنسية لهذا الأمر احتياطيًا عظيمًا وأوكلت أمر النظام لدوريات من الجيش وجمعت جميع خيالة الدَّرَك ومُشاتهم ووزعتهم في الطرق والجوادّ، وأبقت قسمًا منهم في القلعة للاحتياط للطوارئ.

واهتم الشهبندريون لتكون الجنازة مظاهرة كبرى وحشدوا لها كثيرًا، وساعدهم بهيج الخطيب على الحشد، واستغلوا الظرف فرأو أن يُدْفَنَ في مقبرة السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى جانب **ياسين الهاشمي*** وتم ذلك لهم.

تنصّل رجال الكتلة واستعدادهم للدفاع

وقد اضطر رجال الكتلة الكبار للانقباض وأخذوا يتنصلون من الجريمة وفعلت كذلك الجرائد الموالية للكتلة أيضًا، ولكن صوت جرائد المعارضة كان عاليًا وكان فيه كثير من الغلو والشعوذة والاستعلاء والعدوان، وأخذت الأقوال تتردد بأن هذا الحادث حَالَ دون العفو الذي وصلت التعليمات بشأنه إلى المندوب السامي، ورأينا هذا معقولًا لأن السلطات التي كانت تعتقل جماعة الكتلة بالعشرات

ما كانت لتخلي سبيل المسجونين من هذه الجماعة وهم أكثر الذين كانوا ينتظرون العفو وكان من المنتظر أن يشملهم.

قول ظريف لي بأني كنت سأُعْتَقَل ولو لم أكن سجينًا

وقال لي قائل على سبيل التظرف: إنك لو كنتَ حرًّا [لَكُنْتَ] من أوائل المُعْتَقَلِين لِمَا بينك وبين رجال الكتلة من تواثُق وصداقة، بل قد تكون من أول المتهمين، لأن بيت **الشهبندر*** الذي قُتل فيه كان في الطابق الثاني من البيت الذي كنا نسكنه في شارع الشعلان، ولأن احتمالات تسخيري لفدائيين فلسطينيين في الاغتيال كانت تَرِدُ على بال الشهبندريين الذين يعرفون شدة التوافق بيني وبين رجال الكتلة. وصار لا مناص من الانتظار مدة أخرى إلى أن تهدأ عاصفة الحادث ويصبح في الإمكان تجديد السعي وتحريك تنفيذ أوامر العفو.

القبض على القاتل ورفاقه وهوياتهم

وبعد يومين من الحادث شاع أن السلطات قبضت على بعض الأشخاص الذين باشروا الاغتيال، وفعلًا فقد أُتِيَ بشخصين ووُضعا في زنزانتين كل واحدة لحدة. وكان أحدهما معمَّمًا ولكنه شاب، وكان الآخر فتًى حدثًا، وكانوا يؤخَذون يوميًّا إلى الاستنطاق والتحقيق، ثم اعتُقل اثنان آخران.

وعلمنا من الصحف ومن أفراد الدرك أن السلطات عرفت طريقة التنفيذ والأشخاص الذين باشروه وكانوا أربعة، استأجروا سيارة واشتروا سلة تفاح وأتوا في السيارة إلى الشارع الذي يسكن فيه **الشهبندر*** وهو شارع الشعلان والمُلْك للنشواتي، فأبقَوا واحدًا منهم

في السيارة وصعد الثلاثة إلى طابق **الشهبندر*** ودخلوا، ثم دخل اثنان منهم لغرفة المعاينة وبقي ثالثهم في غرفة الانتظار، وقدَّم الاثنان سلة التفاح للدكتور هدية بقصد تأنيسه، إلى أن فرغت غرفة المعاينة وغرفة الانتظار من الناس. وزعم أحد الاثنين أنه مريض، فأخذ الدكتور في معاينته، وفي أثناء ذلك أخرج الثاني ـ واسمه أحمد عصاصة ـ مسدسًا وأطلق الرصاص على الدكتور فأصاب منه مقتلًا، ثم خرجا والتحق بهم الثالث، وقد رآهم خادم الدكتور وشخص آخر كان جاء للمعاينة عند الدكتور، وهددوهما بالمسدس فأخليا لهم الطريق، ثم انطلقوا من السيارة وسارت بهم قليلًا ثم طرأ عليها عطب فاضطروا إلى النزول منها ورآهم بعض العمال.

الأوصاف دلت عليهم

وقد كانت السيارة وسائقها وعصبها وبائع التفاح والسلة وسائل لمعرفة الأشخاص واعتقالهم أخيرًا، ومما قيل: إن السائق ذهب إلى دائرة الشرطة وأخبرها بما وقع، واعتُقل السائق وعُذِّب ولكنه أكد أنه لم يعرف ركاب سيارته وأنهم استأجروها لإيصالهم إلى الربوة وطلبوا منه أن يذهب بهم إلى الصالحية أولًا لأن واحدًا منهم يريد المعاينة قبل الربوة عند **الدكتور الشهبندر***، وأنهم حينما رجعوا أمروه بالسير تحت تهديد المسدس. واستنطق المحققُ بائعَ التفاح فقال لهم: إن الأربعة اشتروا سلة تفاح ولكنه لا يعرف هوياتهم، وأعطى بعضَ أوصافٍ لهم، فساعد بذلك على القبض على بعضهم وهم مختفون في بعض المنازل، ومن المقبوض عليهم عُرفت هوية الباقين ولوحقوا

وقبض على اثنين آخَرَين، وظل عصاصة القاتل فارًّا لمدة أيام، ثم قُبض عليه في بيت في بستان في الغوطة بوشاية ومساعدة بعض معارضة من قباضيات الميدان.

وبعد القبض عليهم أُطْلِقَ سراح أكثر المُعْتَقَلِين وأُبْقِيَ نحو خمسة عشر منهم.

وكان التحقيق يجري في دائرة الشرطة تحت اشراف كوتيو ـ الذي كان يتولى إدارة الشرطة ـ مع كل من قبض عليه أولًا فأولًا، وقد قُبض على شخص ليس له علاقة بالتنفيذ وله علاقة بالتدبير اسمه محمد الحفار وهو من قبضايات دمشق وليس من عائلة لطفي الحفار الشهيرة.

وفي أثناء جريان التحقيق تقدم آل الشهبندر بمذاكرة ادعاء شخصي اتهموا فيها **جميل مردم*** **وسعد الله الجابري*** ولطفي الحفار **وشكري القوتلي*** بترتيب مؤامرة الاغتيال، وكان سجل في محاضر التحقيق إفادات جاء فيها ذِكْرُ هؤلاء الأركان، وتقدَّم مُخْبِرُون يُدْلُون ببعض الشهادات وإخباريات متنوعة فيها بعض القرائن على علاقاتهم بهذه المؤامرة، فكان هذا سببًا لدعوتهم من قِبَل المحقق العام وتسجيل إفاداتهم، وقد دحضوا ما عُزِيَ إليهم وزيّفوا الأقوال والإخباريات المُقَدَّمَة ضدهم وقالوا: إنها ملفَّقة كاذبة بقصد الإيحاء بتهمهم وتصوير القضية كقضية حزبية.

ويظهر أن كوتيو لم يَرَ أن يتورط كثيرًا ويذهب بعيدًا، فلم يأمر

باعتقال الأركان ترك أمرهم لسَيْرِ التحقيق العدلي، وبعد إتمام التحقيق ونزول سُلَّم التحقيق إلى المُسْتَنْطِق العدلي الذي أعاد التحقيق ثانية حسب الأصول وكان يُجْرِي تحقيقَه في السجن ليتمكّن من إجراء المواجهة بين الموقوفين.

وكان جاء في إفادة القاتل عصاصة إشارة إلى شابّين، قيل: إن أحدهما له صلة **بجميل مردم*** وكان يجتمع به ويحرّضه على العملية ويعده بالمال والنجاة على لسان **جميل مردم*** **وسعد الله الجابري*** ولطفي الحفار، وثانيهما كان قابَلَه في سوق الحميدية حينما كان مرة مع القبضاي محمد الحفار، وأن هذا كلّم الشاب ثم التفتَ الشاب إليه وأثنى على همّته، وقد صُفّ المُعْتَقَلون الكتلويون أمام القاتل تحت إشراف المحقق وكنا نتفرج على هذا الاستعراض من عنبرنا، فأظهر أنه يشتبه **بالدكتور بشير القضماني*** وقال: إنه هو الذي أثنى على همّته، وقال: إنه لم ير الشاب الثاني بين المعروضين. وقد صدرت ورقة توقيف رسمية **للدكتور بشير*** بناء على هذا الاشتباه، ثم اعتُقل عاصم النائلي ـ وكان سكرتيرًا **لجميل مردم*** حينما كان رئيسًا للوزارة ـ بناء على إخباريات قُدِّمَتْ ضدّه من بعض أبناء شيخ الأرض من أنصار **الشهبندر***، ولما أُتِيَ به إلى السجن عُرِضَ في جملة شبان على عصاصة فتردّد أولًا ثم أبدى اشتباهه بأنه هو الذي كان يجتمع معه ويحرّضه باسم **جميل مردم*** **وسعد الله الجابري*** ولطفي الحفار، فصدرت في حقه ورقة توقيف.

وقد قيل لنا: إن التشخيص بينما كان يجري كان أحد أفراد

البوليس السري واقفًا إزاء عاصم وأنه أشار لعصاصة نحوه، وأن إدخال [بشير] **القضماني*** و[عاصم] النائلي كان عملًا تلفيقيًّا أُوحي به إلى القاتل مقابل وعود مؤكَّدة بالعفو عنه أو تخفيف مسؤوليته. وأن بهيج الخطيب قد اندمج في هذا الإيحاء والتلفيق، وأن القصد هو إثبات علاقة وثيقة ـ ولو بصورة غير مباشرة ـ **لجميل مردم*** خاصة في المؤامرة لعاصم النائلي سكرتيره الخاص **وبشير القضماني*** ابن أحد أخصاء **جميل*** والمتصلين به دائمًا.

وقد ظهر فيما بعد في أثناء المحاكمة أنه كان في التحقيق تلفيق وتلقين وشهود كاذبون بقصد إثبات علاقة **جميل*** وإخوانه بالمؤامرة، مما أثبت صحة ما قيل لنا أثناء التحقيق واتهام النائلي و[**بشير] القضماني*** وقرار توقيفهما، بل إن القاتل نفسه عاد في التحقيق الأخير، وفي المحاكمة، رجع عن أقواله وقال: إنها لُقِّنَتْ له تلقينًا وأنه ظلمهما بذكر اسميهما.

تعليق على اتهام [بشير] القضماني* والنائلي

والحقيقة أن ما ذُكر بالنسبة [**لبشير] القضماني*** كان غير معقول وكاذبًا، عدا عن أنه لا يترتب عليه أية تهمة ضده، وهذا ما جعل المُسْتَنْطِق الذي عُيِّنَ أخيرًا ـ بعد أن أحيلت القضية إلى المجلس العدلي ـ أن يمنع محاكمته، وكذلك ما ذُكر بالنسبة للنائلي، فالرجل كان يذهب للعراق بعد استقالة **جميل*** وجاء قبل الحادث بنحو شهر مريضًا، بينما التاريخ الذي ذكره القاتل بأنه اجتمع به فيه كان قبل وصوله من العراق كما ثبت من جواز سفره، غير أن المُسْتَنْطِق لم يقرّر

منع محاكمته وإخلاء سبيله لأن جماعة **الشهبندر*** قدّموا شاهدًا من محرّري الأيام شهد بأنه رأى النائلي يتحدث مع القاتل في الشارع، فاضطر المُسْتَنْطِق أن يبقيَه في القضية وأن يقدّمه إلى المحكمة، وظهر في المحكمة أن شهادة هذا الشاهد كاذبة وتلفيق، فبرّأت المحكمةُ النائليَّ ولا سيما قد اعترف القاتل نفسه بتلفيق الإفادة التي كان أدلى بها ضده.

إحالة القضية إلى المجلس العدلي الاستثنائي ومدى ذلك

ولقد ذكرنا آنفًا أن القضية أُحِيلَتْ الى المجلس العدلي وقد أُلِّفَ خصِّيصًا لهذه القضية، لأن بهيج الخطيب والإفرنسيين ـ الذين تآمروا معه على مناهضة الكتلة وتشريد رجالها ـ قد تسير المحاكمة العادية على غير ما يريدون، فرأوا أن يحيلوا القضية إلى مجلس عدلي خاص تذكر القوانين أنه يُؤَلَّف لرؤية القضايا الخطيرة التي يكون لها تأثير في أمن البلاد ونظامها الدستوري والاجتماعي ولا يلتزم عادة بالقوانين المَرْعِيَّة. وقد أصدر مجلس حكومة المديرين مرسومًا قال فيه: إن قضية مقتل **الشهبندر*** قد أثَّرت في البلاد تأثيرًا عظيمًا وأصبح تأثيرها على أمن البلاد ونظامها مُحْتَمَلًا وقد يترتب على ذلك أحداث خطيرة، فقرروا إحالتَها لمجلس عدلي، وأُلِّفَ من ثلاثة قضاة إفرنسيين، وسُحِبَتْ القضية من المُسْتَنْطِق العاديّ وأُوْدِعَتْ إلى مُسْتَنْطِق جديد، وصار النائب العام أي مُدَّعي الادعاء الرسمي ضابطًا وكان سوريًّا.

وقد أثار ذلك قلقًا شديدًا فينا وفي الكتلة وأنصارها الذين يؤلِّفون

أكثرية الوطنيين والمواطنين، وصرنا نُرَجِّح أن النية متجهة الى تجريم رجال الكتلة وإلصاق التهمة بهم والحكم عليهم.

تحريك قضية سلاح قديمة ذُكِرَ فيها شكري القوتلي* وتحذيري له بذلك

وشعرنا بهذا ونحن في السجن، لأن الإفرنسيين حرّكوا قضية سلاح قديمة كان ورد اسم **شكري القوتلي***، فيها وهي القضية التي حُكِمَ فيها حمكت الجرّاح عريف عنبرنا الذي سبق الكلام عنه وتعريفه. ويظهر أن اسم **شكري*** ورد في جملة من وردت أسماؤهم في التحقيق، لأن التحقيق دار حول احتمالات محلات بيع السلاح المسروق ومكانه، وقد استدعت إدارة الدَّرَك الإفرنسي حكمت ورفيقًا له محكومًا معه في القضية وأخذت تُوَجِّه إليهما بعضَ الأسئلة عن علاقة **شكري***، وعلمتُ ذلك من حكمت فأرسلتُ خبرًا إلى **شكري*** واهتمّ للأمر واتصل بالمندوب السامي الجديد دانز، وكان وصل قبل قليل، وأصدر هذا أمرًا بعدم نبش القضايا القديمة، وأرسل إليَّ **شكري*** تطمينًا بذلك.

ولقد كان بهيج الخطيب والإفرنسيون المتآمرون معه مغتاظين حاقدين عليَّ من **شكري***، حتى أنهم شجعوا نزيهًا المؤيد ووالدَه أثناء محاكمة قضية **الشهبندر*** على الاعتداء على بيت **شكري القوتلي*** وكان ذلك بعد خروجنا من السجن، وقد بقي المُعْتَقَلون غير الكتلويين وغير المُتَّهَمين بقضية **الشهبندر*** ومنهم: حسن الخياط وحسني تللو ورفاق لهما موقوفين في سجن القلعة نحو شهر بدون سؤال ولا أوراق توقيف، وكان أمرًا غريبًا حقًّا، وكثرت مراجعتُهم وتذمراتُهم بدون

جدوى، وكان يقال لهم: إنهم موقوفون على مسؤولية كويتو، وكانوا موقوفين في عنبر داخلي فنقلوا إلى عنبرنا الخارجي العُلوي فامتلأ العنبر ضجيجًا وحركة، وتسلَّينا معهم، وكان حسن ينام في طاقتي وكانت ناموسيتي تُخَيِّمُ عليه وعليَّ، وكان الطعام يُرْسَل إليهم من الخارج وبكثرة، فكانوا يَدْعون أفواجًا من سكان العنبر. وكان حسني تللو خاصة خفيف الروح وصاحب نكتة برغم ضخامة جسمه، فكان يُغْدِق على العنبر نكاته ودعاباته فيثير فيه المرح والضحك.

وأخيرًا أخذت السلطة تطلق سراحَهم زمرة بعد زمرة حتى خرج الجميع عدا **الدكتور بشير القضماني*** الذي ظل موقوفًا بموجب ورقة التوقيف، إلى أن قرر مُسْتَنْطِق المجلس العدلي منعَ محاكمته وإخلاءَ سبيله.

رؤيتي [أحمد] عصاصة من العنبر الجديد الذي انتقلتُ إليه وصفاته

ولقد انتقلتُ بعد قليل إلى عنبر السياسيين فصرتُ أرى أحمد عصاصة قاتل **الشهبندر*** حيث كان مسجونًا في غرفة عُلوية على انفراد مجاورة للعنبر، وهو شاب لم يكد يبلغ الثلاثين من عمره، وتظهر على وجهه أمارات التدين والفتوة والشجاعة، وكان **سيف الدين المأمون*** الذي كان في العنبر السياسي تَعَرَّفَ عليه وكان يتبادل معه الأحاديث حول الحادث، وقد أخبرني أن عصاصة قال له: إن بهيج الخطيب وصفوح المؤيد قابلاه وأخذا يشوِّقانه على قول الحقيقة ويلهمانه إدخال **جميل مردم*** ولطفي الحفار و**سعد الله الجابري*** في القضية، ويطمئنانه بأن جزاءه سيكون حفيفًا أو ينال عفوًا إذا أباح بالدافعين له،

وسيوسَّع عليه في السجن ويعامَل ببعض الامتيازات، وأنه انخدع وسجَّل بعضَ إفادات مما ألهماه إياه، ثم ندم، وأنه يعتزم تصحيح ذلك بإفادة جديدة، وكان في الحقيقة يعامَل معاملة حسنة نوعًا ما، ويُسمَح بزيارة أهله له خلافًا لرفاقه المُتَّهَمِين معه وبصورة ممتازة عنهم، وقال مثل ذلك بالنسبة لإفادته عن عاصم النائلي، ونفى أن تكون له أية علاقة بالقضية، وكذلك بالنسبة **للدكتور بشير القضماني***. ومما قاله **لسيف الدين*** وقاله هذا لي: إن بواعثه كانت دينية ووطنية ومؤامرة تمت بينه وبين الذين ذهبوا معه الى عيادة الدكتور وأشخاص آخرين متدينيين من القبضايات أيضًا، وأن المؤامرة لم تكن مقتصرة على **الشهبندر*** بل كانت تتناول بهيج الخطيب **وجميل مردم*** على اعتبار أن الثلاثة هؤلاء هم رؤوس الشر والفتنة في البلاد، وأن الواجب الديني والوطني يوجب التخلص منهم.

ومما أخبر **سيف الدين*** به وأخبرني هذا به: إنه كان في فلسطين وساهم في ثورتها، وأنه كان مع الذين اعتصموا بالحرم القدسي من شباب القدس وبقوا فيه مدة من الزمن متمرِّدين على السلطات ومتحدّين لها وملقين الرعبَ والإزعاجَ في قلوبها، وأنه كان في جماعة العمل الإرهابي. وكان يعمل مع يوسف الشرفا ورفاقه، وأنه قبل الثورة الفلسطينية كان يشتغل في فلسطين في محل مفروشات لوالده.

ذكره اسمي وأنه يعرفني، وأنا لا أعرفه حقًّا

وأنه كان يعرفني أو يراني في دمشق، وأنا لم أذكر أني رأيته أو

سمعت به في الحقيقة، لعل ما قاله صحيح فتكون الروح الثورية التي اتَّقدت فيه قد قبسها من فلسطين وبثها في رفاقه الذين كانوا أصغر منه سنًّا وكانوا واقعين تحت تأثير فتوّته. وكان طعامه يأتيه أحيانًا من بيته في غير أيام الزيارة، وتَصَادَقَ مع بعض أفراد الدرك فنال رعايتهم.

واستطاع بهذه الواسطة أن يستخدم سجينًا لتنظيف غرفته، واستطاع بواسطة هذا الخادم أن يرسل مع الصبي الذي يأتيه بالطعام الذي كان يستلمه منه الخادم بعضَ الرسائل التي يخبره فيها عمَّا يجري معه في التحقيق. وقد أخبرني **سيف الدين*** أنه اتصل بهذا الخادم وأقنعه بإطلاعه على الرسائل قبل إرسالها. وأنه أحضر له مرة رسالة كتبها عصاصة إلى **الشيخ محمد الأشمر*** ونسخها وأطلعني **سيف الدين*** على نسختها، وهي عجيبة خطيرة، ذَكَّرَهُ فيها بقضية وبوعد له بأن يبذل كل جهده لإنقاذه. وذَكَّرَه بأنه قد سار وفق تعليماته وإرشاده، وذَكَّرَه بما كان يسمعه منه من إرشاد وتعليم في أثناء رحلته معه لزيارة قبر النبي ﷺ. والرسالة ـ وإن كانت مقتضبة ـ فإن الذي يقرأها يعتقد أن **للشيخ [محمد] الأشمر*** ضلعًا بقضية مقتل **الشهبندر***، وأن هناك أموالًا مُودَعَة تحت يده، كما يمكنه أن يفهم منها أن **للشيخ [محمد]*** أصبعًا في اعتقال أحمد [عصاصة] أيضًا. وورد في الرسالة إشارة الى شخص اسمه أبو صياح، وأن التعليمات والإرشادات كانت تُبَلَّغ لأحمد عن **الشيخ [محمد]*** بلسانه. ولستُ أدري هل كان ما جاء في هذه الرسالة حقيقة أم أن أحمد كتبها إلى **الشيخ [محمد]*** بقصد آخر؟ وأظن أن **[سيف الدين] المأمون*** ظل يحتفظ بها. ومما أذكره أن

[سيف الدين] المأمون* أخبرني أن عصاصة قال له أشياء عن **الشيخ الأشمر*** وعلاقته بالقضية وعلاقته بالقبض عليه أيضًا.

وأنه ذكر اسم **الشيخ [الأشمر]*** في التحقيق، وأن مدير الشرطة استدعاه ووجَّه إليه بعض الأسئلة، وفهمنا حدوثَ هذا من غير طريق عصاصة، مما يمكن أن يدل على صحة ما أخبر به **المأمون*** وجاء في رسالته، ولكن ذكر **الشيخ [الأشمر]*** انطوى بالمرة من ساحة التحقيق والقضية، ولا نعرف الأسباب الدافعة والأسباب المانعة.

محاولة [أحمد] عصاصة الفرار وعدم نجاحه

ومن عجيب ما حدث أن عصاصة اعتزم الفرار من السجن وأخذ يخطط لذلك ويتراسل مع أهله، واستطاع أن يجلب مسدسًا يستعين به في عزيمته، كما استطاع أن يصنع مفتاحًا لباب غرفته، ولكن مشروعه لم يتحقق لأن بعض أفراد الدرك شعروا به وأخبروا، وجاء مدير السجن إلى غرفته فبحث عن المسدس، وكان في ذلك الوقت خارجَها للفسحة، فركض وجاء إلى عنبرنا وحاول أن يعطي المسدس **للدكتور [سيف الدين] المأمون*** ليخفيه له، ولكن مدير السجن لحق فورًا به وتمكّن من الاستيلاء على المسدس في يده وهو في عنبرنا السياسي. وكان لهذه الحادثة دويّ في السجن دلّت على مقدار ضعف الربط والضبط فيه. وقد شُدِّد على أحمد بعد هذه الحادث حتى صار فراره مستحيلًا.

ذكر حادث فرار من السجن بالمناسبة ونجاحه

وعلى ذكر الفرار من السجن، أقول: إننا شهدنا حادث فرار تم

فعلًا من قِبَل ثلاثة أشخاص كانوا مُتَّهَمِين بتهمة مهمة وكانوا في عنبر فوقاني موقوفين، وكان له شبابيك مطلة على السطح، والسطح مطلّ على طريق مهجور وراء القلعة، وارتفاع الشبابيك عن السطح نحو سبعة أمتار، وارتفاع السطح عن الأرض أربعة أو خمسة أمتار، وقد أحضروا مبردًا فبردوا حديد أحد الشبابيك ونجحوا في إحدى الليالي وخرجوا واحدًا بعد واحد، وقفزوا إلى السطح مجازفة ونجحوا فيها، ثم قفزوا من السطح إلى الطريق، ولم يُعْرَف فرارُهم إلا في الصباح حينما كانوا مفقودين من السجن.

أنباء التحقيق في أواخر أغسطس / آب

ونعود إلى سيرة قضية **الشهبندر*** فنقول: إن التحقيقات انتهت في أواخر شهر أغسطس / آب [عام] ١٩٤٠م لدى مُسْتَنْطِق المجلس العدلي التي تجددت لديه وقرر هذا المُسْتَنْطِق منع محاكمة **شكري القوتلي*** و**بشير القضماني*** ومحاكمة كل من **جميل [مردم]*** و**سعد الله الجابري*** ولطفي الحفار، وهم غير موقوفين، وباقي المتهمين بما فيهم [عاصم] النائلي موقوفين.

وعرف **جميل*** ورفيقاه بالقرار وسارعوا حالًا إلى مغادرة سوريا فلم يصبح الصباح حتى كانوا اجتازوا حدودها إلى العراق، ويظهر أنهم حسبوا حساب حقد السلطة الإفرنسية عليهم وخافوا أن يبدو لها بذل الجهد لتبديل القرار، وجعل المُسْتَنْطِق يقرر محاكمتهم موقوفين وليس هذا بعيدًا على الإفرنسيين الذين كان تآمرهم مع بهيج الخطيب وآل المؤيد ظاهرًا مكشوفًا. ومما قيل أيضًا: إن القرار كان لتخويف

جميل* ورفيقيه وإيصاله إليهم كان لإبعادهم عن مسرح السياسة السورية وبقاء الحكم في يد صنيعة الإفرنسيين بهيج الخطيب.

تأثير القرار على النائلي

ولما علم عاصم النائلي بالقرار وعلم بمنع محاكمة **بشير القضماني*** وهو موقوف اضطرب اضطرابًا شديدًا وأُغمي عليه وبقي ساعات في بكاء وكآبة شديدة، وقد عرفنا أنه شاب دَمِث حَسَن الأخلاق والطويّة، ليس فيه خبث ولا دهاء وليس فيه الحيوية التي لمسناها في **الدكتور القضماني***، وقد ظهر أن دمجه فيها تلفيق وافتراء قُصِدَ به دمج **جميل مردم*** خاصة لأنه كان سكرتيره حينما كان رئيسًا للوزراء، وقرر أحمد عصاصة ذلك بصراحة، وتاريخ عودته من العراق الثابت على جوازه تجعل التلفيق فظيعًا صارخًا وبعد إعلان قرار الاستنطاق أخذت الأفكار تهدأ وأخذت الأحاديث تتجدد في صدد إطلاق سراح المسجونين السياسيين وأنا من الجملة، وكانت هذه المرة صحيحة، حيث تحقق الأمر بعد أيام.

ورأيت أن أتابع ما سجلته في قضية **الشهبندر*** دون قطع بحادث إطلاق سراحي.

الاستعداد للمحاكمة وعودة التوتر والخوف من الاصطدام بين جماعة الكتلة والشهبندر*

ومما كان مسجلًا في هذا الموضوع أن السلطات أخذت بعد مدة قليلة من خروجنا من السجن تستعد لإجراء محاكمة المُتَّهَمِين، وأخذت الحالة في دمشق تتوتر بعض التوتر، فنزيه المؤيد وإخوته تبنّوا

هذه القضية بشدة، انضم إليهم جماعة الهيئة الشعبية أي أنصار **الشهبندر*** أو حزبه، ومنهم نصوح بابيل وزكي الخطيب وهاني الجلاد وكثيرون من شباب وكهول متحركين في دمشق متظاهرين ضد رجال الكتلة الوطنية وأنصارهم واعتبارهم مسؤولين عن دم **الشهبندر***، وقد استطاعوا أن يستصدروا قرارًا باتهام ثم محاكمة **جميل مردم*** **وسعد الله الجابري*** ولطفي الحفار مع المتهمين بالاغتيال.

شكري القوتلي* يتولى أمر الدفاع عن رفاقه ويوكل محامين من لبنان

ولقد تبنى **شكري القوتلي*** أمر الدفاع عنهم، وتَضَامَنَ رجال الكتلة وأنصارها معه، فبدت دمشق جبهتين متعاديتين كل منهما يصقل سلاحَه ضد الآخر، ووصل الأمر إلى تجهيز كل منهما جماعة من شبابهم بالعصي والسلاح، وأخذ الناس يتوقعون اصطدامًا بين الجبهتين، بل فعلًا كان يقع مهاترات وشتائم.

واشتبك مرة فريز الملك ورفيق له من شباب الكتلة مع نزيه المؤيد وبعض رجاله في جسر الصالحية وتضاربوا وأُصيب فريز بضربات جارحة ألزمته الفراشَ أيامًا.

عدوان آل مؤيد على بيت شكري* وموقفه الرزين بعدم توسيع الأمر

وعلى أثر ذلك جاء نزيه المؤيد وإخوته وأبوهم وبعض أتباعهم إلى بيت **شكري القوتلي*** ورشقوه ببعض الحجارة وأخذوا يسبّون ويشتمون بألفاظ قبيحة، وتجمّع في بيت **شكري*** بعض الأنصار ورجال الأحياء وأبدوا الرغبة في الانتقام من هذه الإهانة، ولكن **شكري*** فضّل عدم توسيع الأمر. ولقد شوهدت في سياق هذه الحادثة

وغيرها أمارات تدل على ضلوع كويتو و بهيج الخطيب، وكان ما تقوم به أجهزة الحكومة من تدابير لحفظ الأمن ومنع الصدام فارغة هوائية، بل تدل على أنها مشترِكة في التآمر والتهييج ضد الكتلة ورجالها وضد **شكري القوتلي*** الذي تمثّلت فيه زعامة الكتلة في هذا الظرف الحرج.

انعقاد المجلس العدلي في بناية البرلمان

وأخيرًا جاء موعد المحكمة وتقرَّر أن يعقد المجلس العدلي جلسات في بناية البرلمان السوري زيادة في إسباغ الخطورة على القضية، ولم يُجْدِ الاحتجاج الذي قدَّمه رئيس المجلس ضد هذا التصرف شيئًا، وقد أُحضر من بيروت بضعة محامين ليتوكلوا عن **جميل** [مردم]* ولطفي [الحفار] **وسعد الله [الجابري]*** و[عاصم] النائلي، ولم ير **شكري [القوتلي]*** من الحكمة أن يُشْرِكَ معهم [أحمد] عصاصة ورفاقه، فأحضر محامٍ خاص لبناني أيضًا ليتوكل عنهم وهو المحامي لحود، وكان مشتركًا مع محاميي الدفاع الآخرين بطبيعة الحال.

محامي الادعاء فؤاد القضماني وزكي الخطيب ومحمد الخطيب

وتوكل عن الادعاء الشخصي لأسرة **الشهبندر***: فؤاد القضماني وزكي الخطيب ومحمد الخطيب. ودخل في جملتهم فيصل الشهبندر ابن الدكتور، وبدأت الجلسات تنعقد في جو مكهرب متوتر داخل القاعة وحول البناية، وكان يُتَوَقَّع كل يوم بل في كل ساعة حدوث اشتباكات وصِدامات بين أنصار الطرفين.

وقد أظهرت المحكمة منذ البدء حيادًا تامًّا وميلًا إلى تحري الحق

والعدل، وأخذت تستمع لإفادات المُتَّهَمِين أولًا وشهادات الشهود ثانيًا بهذه الروح، وعمد المُتَّهَمُون بالقتل إلى عدم تعيين أي منهم بمباشرة القتل والى المراوغة في الإفادات في بادئ الأمر، وأخذ الناس يُخَمِّنُون تخمينات متنوعة من وراء هذا الموقف، وأخذ محامو الادعاء يُضَيِّقون الخناق عليهم ويحاولون استنباط التآمر الأعلى الحزبي وكون هؤلاء ليسو إلا آلات تنفيد، وجاؤوا بشهود لإثبات هذه النقطة والبرهنة على صداقة النائلي بعصاصة، وعلى نيات **جميل*** ورفاقه ضد **الشهبندر***.

تناقض الإفادات وأصابع بهيج وكويتو وصفوح

غير أن الناس ـ وفي جملتهم المحكمة ـ أخذوا يسمعون تناقضًا من الشهود ويلمسون تضييقًا وتحريضًا يرون أيدي كويتو وبهيج [الخطيب] وصفوح المؤيد وراء ذلك، وظهر أن بعض المتهمين بالمباشرة أُغْرُوا ببعض الوعود لإدلاء إفادات غير صحيحة، وأن بعضهم أُخِذُوا إلى بيت بهيج من أجل ذلك، وأن بعض إفادات أدلى بها عصاصة لم تُدَوَّن في محضر الشهادات، وأخذ يبدو من المحكمة بعض الألفاظ وأمارات تدل لمسهم لكل ذلك. فتبدَّل الجو من قلق على عاصم النائلي والزعماء الثلاثة الغائبين إلى الطمأنينة.

وأخيرًا أحضر الشيخ محمد الكتاني المغربي لأداء شهادة عما لديه من معلومات عامّة عن المُتَّهَمين ـ لأنه قيل: إنهم كانوا من المتردِّدين عليه السالكين لطريقته الدينية ـ فأدلى ببعض بيانات فيها ثناء على أخلاقهم وسلوكهم وغيرتهم الدينية.

وحينئذ طلب فؤاد القضماني محامي الادعاء منه أن يوجه إلى مريديه النصيحة والوعظ ليقولوا الحق، فوجّه نصائح مؤثرة إليهم وخشعت أثناء ذلك الأصوات ورؤي عصاصة يبكي ثم هتف: إني سأقول الحق إني أنا القاتل، فهتف فيصل الشهبندر قائلًا: أنا مستعد للعفو عنك إذا قلت الحق. فأسرع الرئيس تحت تأثير ذلك إلى دعوى عصاصة للكلام فقال مقسمًا بالله بأن ما يقوله هو الحق وهو أنه هو الذي قتل **الشهبندر*** مندفعًا بعامل الغيرة الدينية لأنه هو ورفاقه اقتنعوا بأنه ضار بالدين والوطن وأنه لا يعرف النائلي ولم يجتمع به، وأنه لم يكن له أي صلة **بجميل مردم*** مباشرة وغير مباشرة، وليس **لجميل*** ولا **لسعد الله الجابري*** ولطفي الحفار أي علاقة تآمرية في الأمر، وأن ما سبق منه من إفادات تتناقض مع هذا هو غير صحيح، وأغري عليه إغراء ظنًّا بأن فيه نجاته، وأنه في نيته ونية رفاقه قتل زعيمين آخَرَين مُشْتَرَكَين مع **الشهبندر*** في إبراز الضرر في الدين والوطن. واستدعى الرئيس رفيقًا من رفاق عصاصة اسمه الشيخ صالح ـ وهو من طلاب العلم الديني ـ للكلام فأيَّد كلام عصاصة واعترف أنه هو الذي أفتى عصاصة بجواز القتل وفضيلته واتفق معه على تنفيذ هذه العملية الجهادية.

وقد نقل لنا بعض الذين شهدوا الجلسة أن جوَّها كان في أثناء هذه الاعترافات عجيبًا، وأن الناس كانوا وكأنهم في مشهد روحاني أخاذ.

وكان هذا الموقف فصل الخطاب في القضية فأصدرت المحكمة

قرارًا ببراءة النائلي وجميل مردم* وسعد الله الجابري* ولطفي الحفار وبإدانة عصاصة ورفيقين من رفاقه بالإعدام، ورفيقين آخَرَين كان لهم صلة بالتآمر والنية بالسجن.

عدم رضاة المؤيد والشهبندر* عن القرار وإصرارهم على تهمة رجال الكتلة

ومن تحصيل الحاصل أن نقول: إن هذا لم يُرْضِ أبناء المؤيد وشيعتَهم فأخذوا يطعنون بالحكم ويرون فيه إخفاء للمجرمين الحقيقيين، ولم يؤثِّر فيهم الجو الروحاني الذي أثَّر في المحكمة وشهودها وظلوا مُصَمِّمين على القول: إن **الشهبندر*** قد قتل بمؤامرة من رجال الكتلة، وقد كرر هذا القول بصراحة في حفلة مرور سنة على قتل **الشهبندر*** أقيمت في دمشق في عهد رئاسة الشيخ تاج [الدين الحسني] ـ وكان هو حاضرًا فيها ـ وطالبوا الشيخ أن يبحث عن دم صديقه المهدور.

شيء عن العنبر السياسي في السجن

وقد مر ذكر العنبر السياسي وانتقالي إليه، وقد وجدتُ تسجيلًا طويلًا لذلك فلم أرَ بأسًا في إثباته، لأن المدة التي قضيتُها فيه جزء من حياتي في السجن وفيها صور طريفة.

ولقد باشرتْ إدارة السجن بعد مدة من مجيئي إلى القلعة بعمل دَرَج إلى عنبر فوق عنبر مضيء مُشْمِس وشبّاكه مطلّ على المدينة، وقيل: إن الإدارة تبني هذا العنبر لتُنْزِل فيه الطبقة المثقفة والسياسيين والمستوى الرفيع نوعًا لأنها كانت ترى أن من غير اللائق أن تكون

هذه الطبقة في العنابر المظلمة الفظيعة، وقد أتمّت تهيئَتَه، وهو واسع وله دورة مياه حسنة وأمامه سطح عنبر تحتاني جعل مكان الفسحة للمسجونين فيه. وقد نُقِل إليه أولًا **نبيه العظمة*** ومنير **الريس*** و**سيف الدين المأمون*** و**مهدي مرتضى*** و**محمود البيروتي***. وكنا نراهم من عنبرنا ونتبادل البسمات والتحيات بالإشارة. ومنه أُرْسِلَ **نبيه*** و**منير*** للمزة للمحاكمة الثانية وأُعيدا إليه مع آخَرِين ممّن حوكموا في قضية اغتيال بهيج الخطيب، ثم نُقل **نبيه*** و**منير*** إلى حلب. وقد حرص أخي [**محمد علي**]* على نقلي وسعى، وصَدَرَ أمر ثم تغيَّر بحجة أن قضيتي هي غير قضية الموقوفين فيه، فلم أُبَالِ لأني كنت مرتاحًا في عنبري وأتمتّع بحرية التجول والكتابة خارج العنبر.

انتقالي إلى هذا العنبر

ثم جدّد أخي [**محمد علي**]* المساعي فنجحت بعد سفر **نبيه***، حيث أرسل إليّ المستشار الإفرنسي يقول: إنه استطاع أن يأخذ إذنًا بنقلي، وقال ذلك **لأخي*** أيضًا، وكان **أخي*** يرسل إليه بعض الهدايا بواسطة نصوح الحاج حسين المغربي، وقد رجوت المستشار أن يسمح لزلمتي الحاج يوسف الجباوي بالانتقال معي لتوفير راحتي، فسمح بذلك.

وهكذا انتقلتُ إلى هذا العنبر وبدأتْ حياتي في السجن دورًا جديدًا شعرتُ فيه براحة وطمأنينة كافيتين، ولقيت من **الدكتور سيف الدين المأمون*** ورفاقه ترحيبًا ورعاية وخصوني بأحسن المحلات، وأخذنا نعيش معًا بشيء من النظام والترتيب لم يكن يتسنى

في العنبر الأول، فنتناول طعامنا على مائدة ونلعب الطاولة والورق ونتناول الصحف بسهولة ونستمتع بمنظر المدينة أكثر، ثم نعامَل من الحراس الدرك برعاية وخصوصية، ولا سيما في مواعيد الفُسحة، وكنا نخرج باكرًا ثم بعد الفطور ثم عند المساء. وكنا نستطيع أن نُخرج كراسينا التي سُمح لنا باقتنائها، فنجلس عليها ونتناول الشاي في الأمسيات كأننا أحرار في مصيف.

وكان انتقالنا لهذا العنبر في أواخر أغسطس / [آب] ١٩٤٠م.

انتظام كتاباتي في العنبر أيضًا

ومع أني فقدت ما كنتُ أتمتع به من البقاء الدائم خارج العنبر، فإني صرت في العنبر الجديد أستطيع أن أتابع عملي في كتب القرآن بانتظام وفراغ بال أكثر، وأقدر أن أقول: إن شغل الشهرين اللذين قضيتهما في هذا العنبر كان أكثر عملي إنتاجًا وإتقانًا.

وفي هذا العنبر صرتُ أتمتع بزيارة الأولاد وحتى بزيارة أم الحكم. ولقد كانت الزيارة ممتعة في سجن المزة حيث كان الجميع ـ عدا أمي وأختي ـ يأتون لزيارتي الحين بعد الحين، وكنتُ أستمتع بالزيارة لأنها كانت تجري في غرفة المكتب وبشيء من العناية، فلما نزلتُ إلى القلعة وسكنتُ في العنبر المظلم اتفقتُ مع أخي [**محمد علي**]* بمنع مجيء الأولاد لئلا يروني في هذا المكان الفظيع وتنطبع صورة أليمة فيهم، وكان ما كان من أمرهم أن بعضهم زارني مرة أو مرتين في غرفة الإدارة، وأن أمي وأختي جاءتا في سيارة إلى باب السجن، وسُمح لي بالخروج إليهما ومواجهتهما في السيارة مرة أو مرتين، فلما نُقلتُ إلى العنبر الجديد صرتُ

لا أرى مانعًا من مجيئهم، فصاروا يأتون للزيارة في الأسبوع مرتين وأحيانًا جميعهم، وكان أخي يحاول منعهم لكثرتهم: وطفة ونجاح وسلمى وردينة والحَكَم وليلى وشفق ومجاهد، فكان الكثيرون منهم يخرجون من البيت خلسة وبتآمر صبياني مضحك فلا يردّ رأسهم إلا باب السجن ينتظرون فتحه فيدخلون مع الداخلين، وكانت الزيارة موسمًا أو نزهةً لهم يحرصون على ألّا يُحرَموا منها، وكنتُ أُسَرُّ بهم وأمازحُهم وأداعبهم وأتعاطى الفطار معهم كما كنتُ أفعل في البيت، وأحيانًا كانوا يطلبون هدايا سجينة مثل جزادين خرز وأساور فضة كان يصنعها الصنّاع المسجونون، وكنت أجاريهم وأشجعهم على ذلك لأتسلى بهم ويتسلّوا بي.

حول المساعي المبذولة المتنوعة لأجل إطلاق سراحي

بعد إعلان قرار الاستنطاق في قضية [**عبد الرحمن**] **الشهبندر***
أخذت الأفكار تهدأ وأخذت الأقوال تتردد بإمكان السعي في موضوع العفو عني وعن رفاقنا في العنبر وإطلاق سراحنا، ثم علمتُ أن **شكري القوتلي*** أخذ ينشط في الأمر وكان نشاطًا منبعثًا أولًا من اطمئنانه من القرار من جهة وانسحاب **جميل** [**مردم**]* **وسعد الله** [**الجابري**]* ولطفي الحفار من الميدان من جهة أخرى، وكان يستهدف في نشاطه تجميع الناس حوله ليتمكن من الوقوف أمام فكرة تجريم أركان الكتلة والقضاء على اسمها وكيانها.

وكان من نشاطه: السعي لاستصدار العفو عن المسجونين السياسيين هو المظهر الأول لنشاطه وحركته، فهذا الموضوع يمكن أن يرتاح إليه الرأي العام، ويمكن أن يكسب به عطفًا وأنصارًا، ويمكن

أن يبرر الحركة والنشاط في الأوساط الوطنية ولا يدعو إلى التخوف والتوجس في الأوساط الفرنسية. وقد سار في هذا الموضوع شوطًا حسنًا، حيث اتصل برجال الحركة الوطنية في مختلف الأنحاء واستطاع أن يعقد بعض الاجتماعات المحلية، ثم استطاع أن يدعو وفودًا من مختلف الأنحاء إلى اجتماع في دمشق وأن يحدث دويًّا في صدد العفو عن المسجونين السياسيين ويثير الأفكار والأنظار إليه، وأن يجعل الصحف تتحدث في الموضوع وتشجعه بقدر ما كانت الظروف تسمح به، وأن يأخذ موعدًا من المفوض السامي الجديد دانز لمقابلة وفود البلاد والتحدث إليه في الموضوع، وتمت المقابلة بين وفد الوفود برئاسة **الأمير مصطفى الشهابي*** وبين المندوب، وطالبوه بإصدار العفو عن المسجونين السياسيين لأن الأسباب الحقيقية للحكم وإبقائهم مسجونين قد زالت، وهي كون فرنسا في حالة حرب، وقد أثّر هذا النشاط فعلًا في تحريك الموضوع، وصرّح المندوب بأنه سيعمل على تحقيق رغبات الأمة والبلاد بقدر ما يمكنه.

وقد كان شهر رمضان إبان اشتداد هذه الحركة، وأخذت تأتينا الأخبار بأن موضوع العفو يكاد أن ينضج وأن المسألة مسألة أيام، ثم قيل لنا: أن العفو سيكون في العيد. وأُرْسِلَتْ إلينا من البيت ثيابُنا قبل يوم العيد على اعتبار أننا سنخرج ونعيّد في بيوتنا، ولكننا أُبْقِينَا يوم العيد في السجن، وثاني يوم العيد جاءنا دركيّ فرنسي يسألنا عن عناويننا ويأخذ من قلم السجن أسماءنا، فكدنا نظن أن مسألة العفو

متأخرة ولا تزال في دور الطبخ، وكاد أهلنا ييأسون من خروجنا بالسرعة التي ظنوها وأُخْبِرْنا بها.

إطلاق سراحي وخروجي من السجن

وبعد مغرب ثاني يوم العيد جاء مدير السجن السوري الحلبي وبَشَّرَنا بالخروج وطلب أن نهيِّئ أغراضنا ونلبس ثيابنا، ولما تهيَّأنا أُخِذْنا إلى المكتب فإذا نحن في وسط حشد كبير من الدرك الإفرنسي ضباط وأفراد، فأُدخلنا إلى مكتب المستشار وهناك تلا علينا قائد الدرك ورقة جاء فيها أن المارشال وافق بمناسبة عيد رمضان على العفو عن المحكومين بسبب حوادث مظاهرات مارس / آذار **١٩٣٩**م وعن فلان الفلسطيني ـ وذكر اسمي ـ وقال: إن هذا العفو ليس مطلقاً وإنما هو تعليق لتنفيذ المدة الباقية من الحكم، وأن المُسَرَّحين إذا قاموا بأعمال سياسية غير مشروعة من شأنها أن تُحْدِثَ تشويشًا أُعِيدُوا الى السجن وأُلْغِيَ هذا التعليق، ثم طلب ألَّا تكون مظاهرات ولا استقبالات حافلة، وأن يذهب كل واحد منا مرفوقًا بدركي إفرنسي، وهكذا أُخْرِجْنَا من السجن ليلًا، ورَافَقَنِي دركي إفرنسي وركبنا حنطورًا إلى الصالحية حيث اهتدينا الى بيتنا الذي وصفوه لنا حيث كانوا قد تركوا بيت حي الشعلان إلى حي الحلبوني ثم تركوا بيت الحلبوني إلى هذا البيت الذي كان في حارة الشرف في شارع الصالحية الطويل قرب الشهداء، وكان دخولي للبيت مفاجاة سارّة ومثيرة حقًّا من الأولاد ولأخي بعد أن كانوا قلقوا واضطربوا من التأخير وخشوا أن يكون المسعى قد حبط.

الآخرون الذين أُطْلِقَ سراحُهم

والذين أُطْلِقَ سراحهم هم **سيف الدين [المأمون]*** و**محمود [البيروتي]*** و**مهدي [مرتضى]*** و**حسن دركل*** رفاقي في العنبر، وأُطلق سراح أربعة آخرين كانوا في عنبر آخر، منهم فريز الملك ورفقاؤه الذين ذهبتْ عني أسماؤهم. وفهمتُ أن أمر العفو شمل **نبيه العظمة*** وتسعة آخرين كانوا مسجونين في حلب، وأظن أن منهم نجيب الريس وعرفان الجلاد و**منير الريس***، وشمل الحاج أديب خير الذي ظل في مستشفى السجن، والمحكومون بالمظاهرات ليسوا هؤلاء، فهناك عدد آخر من الأهالي أيضًا، والظاهر أن ذهن الإفرنسيين انصرف إلى تسريح طبقة البارزين من المحكومين، وكان هذا مؤلمًا للنفس ويمكن أن يترك أثرًا غير مستحب في قلوب العوام وأن يجعلهم يظنون أن السعي إنما كان من أجل البارزين وأن الساعين لم يفكروا في محكومي الطبقة الأخرى، ولعل الإفرنسيين قصدوا بلؤمهم إقرار هذا المعنى في نفوس العوام أيضًا.

وقد اهتممتُ بعد خروجي لهذا المسعى شخصيًّا وأخذت أنبّه **شكري القوتلي*** وغيره من الذين نشطوا في المسعى إلى وجوب تجديد السعي وملاحقته لأجل تعميم التسريح لباقي المحكومين في المظاهرات والمفرقعات من السوريين، ثم لمن بقي مسجونًا في قضيتي التي اختصصتُ بالعفو دونهم، وهم فهمي أبو سعود والحاج يوسف الجباوي و**سعيد العبد الهادي*** ومحمد شبيب الكهربائي،

واستطعتُ حمل الناس على المراجعة من أجلهم وكتابة مذكرات بالمطالبة بتسريحهم والاجتماع بالمندوب السامي من أجلهم.

سخط فهمي أبو سعود لإطلاقي دونه

وقد بلغني أن فهمي أبا السعود سخط وانتقد وأخذ يوجّه إلي وإلى غيري الانتقاد لأنه أُهمل ولم يُطلق سراحه معنا، وقد أرسلت إليه رسالة لتطمينه وإفهامه أن ما جرى لا يد لنا فيه وأن السعي إنما كان للجميع وأن الاستثناء كان من السلطات الإفرنسية وأن المساعي تُبْذَل بجد ونشاط في سبيل إطلاق سراحه ورفاقه.

وجاءني برقية من المفتي [**الحاج أمين الحسيني**]* بالتهنئة وعلمتُ أن نسخة منها جاءت إلى فهمي أيضًا ولفتُّ نظرَه إلى ما فيها من دليل لأن المفتي كان من الساعين للجميع وظن أنه سُرِّحَ مع من سُرِّح، ولكنه ظل على سخطه وانتقاده، وظللتُ مع ذلك أسعى له وأحرّض من أعرفهم من إخواننا على السعي له ولرفاقه الآخرين حتى أمكن أن يُطلق سراحه بعد خروجنا بأربعة أشهر، ثم بعده الحاج يوسف الجباوي و**سعيد عبد الهادي***، وكان محمد شبيب الكهربائي قد خرج بسبب انتهاء مدته، ومع الأسف بقي السوريون في قضيتنا دون تسريح ولم تفدهم المساعي.

حفاوة الناس بالمُسَرَّحين

ولقد كانت رنة ابتهاج بخروج الذين خرجوا من السجن، وأخذت بيوتهم يؤمها الأصدقاء بل وغير الأصدقاء يهنئونهم ويظهرون سرورهم، وشعرنا جميعًا بأن ذلك أعاد للناس شيئًا من النشاط

والحيوية بعد فتور طويل يائس، وشعرنا أيضًا أن الأنظار أخذت تتجه نحو **شكري القوتلي*** وتعتبره الزعيم المرجو الطيب النفس والقلب الطاهر اليد واللسان والمجرَّد من الغرض، وقد أخذ **شكري*** يبرز خطوة بعد خطوة في مجال الانفراد في الزعامة مقدرًا ما ناله من اعتبار والتفات واتجاه من الناس.

تهنئة لي من المفتي ودعوة للانضمام إليه في العراق وإحجامي عن الاستجابة وأسبابه

وقد تلقيتُ من المفتي كتاب تهنئة حارة ويُظهر فيه أمله بالتحاقنا به إلى بغداد، وجاءني كتاب من زهير الذي كان أتم دراسته في الجامعة الأمريكية أثناء سجني ونال بكالوريوس في العلوم والآداب ثم ذهب إلى بغداد و اشتغل في التعليم في مدرسة عسكرية كمعلم تاريخ، ويذكر زهير في كتابه أن الإخوان ينتظرون قدومي ويبدي رأيه في رجحان بقائي في دمشق إذا كانت راحتي مؤمَّنة وقلبي مطمئنًا، بسبب ما طرأ على جو الفلسطينين في بغداد من تعكير ولغط، وما كان استبدّ من القيل والقال بينهم، وأظهر خوفه من انزعاجي من هذا الجو.

خلافات بين المجاهدين وبخاصة أبي إبراهيم الكبير وأبي علي

وكانت أخبار الخلاف والنزاع والقيل والقال وتَبَدُّل أطوار ونيات المجاهدين وغير المجاهدين قد وصلت إليَّ وأنا في السجن فأحزنتني وآلمتني، ومما بلغني أن خلافًا نشب بين أبي إبراهيم الكبير خليل عيسى ومعه جماعة، وبين أبي علي الشيخ سليمان زميله في زعامة المشايخ الثلاثية ومعه جماعته، وأخذ كلٌّ من الجماعتين يؤلِّب على

الآخر ويسعى بعضُها ضد بعض ويطعن في بعض، وكانت الأخبار والروايات تتناثر، ومنها ما فيه توجيه لوم على أبي إبراهيم وكون تحكُّمه وعناده العامل الأول فيما حدث، وكنت أنا أميل إلى تصديق ذلك لمعرفتي بعناد أبي إبراهيم ورغبته في التحكم، ولقد زارني أبو إبراهيم الصغير الشيخ توفيق الذي بقي مُعْتَقَلًا في دمشق ثم أُفْرِج عنه فذكر لي ما يُؤَيِّدُ ما كان يتبادر لي.

ومهما يكن من أمر فإني انقبضتُ من السفر إلى بغداد وتوقعتُ - كما قال زهير - إذا ذهبت أن أنزعج بهذه الخلافات وجرائرها على غير طائل، وفَضَّلْتُ البقاء حيث أنا ما وسعني البقاء وعدم مغادرة سوريا إلَّا إذا اضطرتني الظروف، واكتفيتُ بالاتصال بالمكاتبة مع المفتي [**الحاج أمين الحسيني**]* وتبادل الآراء والمعلومات عن الحالة السياسية.

أخبار عن اتصالات المفتي وجهده

ولقد كنتُ على يقين من أن المفتي لا بد من أنه أدرك ضرورة الاستعانة من ظروف الحرب وقام ببعض المساعي والاتصالات في صدد القضية، ولا سيما أن المظاهر كانت تدل على أن طالع الحرب باسمٌ لدول المحور، وكنتُ في هذا متفقًا مع **شكري القوتلي*** أيضًا، وقد جاءنا من المفتي تطمين بأن المساعي والاتصالات جارية، وأن فيها ما يدعو إلى الطمأنينة والتفاؤل، وكان **شكري*** متصلًا بدوره في هذا الصدد ببعض الجهات، فاستشرنا المفتي في استمراره في ذلك فجاء جواب فيه ترجيح لعدم التعدد في الاتصالات والمساعي، وأن

ذلك من مقتضى المصلحة العامة، مع تكرار التطمين وبعث التفاؤل، وقد كتب **شكري*** للمفتي بأنه قَبِلَ وجهةَ نظره ما دام هو يحمل المسؤولية ويضطلع بالعبء.

الخلاف بين المفتي وموسى العلمي وأسبابه حسب أقوال الطرفين، وتعليق على ذلك

ومما كان أننا تلقّينا من المفتي كتابًا يطلب منا أن نتحفظ إزاء موسى العلمي لأنه بدا منه في بغداد بعض تصرفات غير مرضية، وبعد قليل من كتاب المفتي جاء موسى إلى دمشق واجتمعنا به فوجدناه ناقمًا على المفتي لتكتمه في مساعيه ومواربته في موقفه واكتفائه باستشارة **إسحق درويش*** **والشيخ حسن أبا السعود*** ومنيف الحسيني وكمال حداد وتشغيل هذا في بعض الاتصالات، وقال: إن موقف المفتي هذا هو بالنسبة له وبالنسبة **لجمال الحسني*** أيضًا.

ومما قال لنا: إنه تحدث مع المفتي مرارًا بوجوب تنظيم المساعي السياسية ووضع برنامج واضح وتوسيع حلقة الاستشارات والتعاون فلم يأخذ برأيه، ومما قال: إن **نوري السعيد*** كلَّمَه هو **وجمال*** وعرض عليهما إرسال وفد أوربا وأمريكا للعمل لأجل القضية، وأبدى استعداده لمساعدة هذا الوفد، وأنهما حدَّثا المفتي بذلك فراوغ ووارب في جوابه، فاضطره هذا إلى الانكفاف عنه، وفعل هذا **جمال*** أيضًا.

وقد أسفتُ لهذا الموقف، وأرسلتُ رسالة شفوية للمفتي مع **موسى الحسيني*** ورجوتُه فيه تلافي الموقف بحكمته وسَعَة صدره.

ومما بلغني أن موقفه مع **جمال*** و**موسى*** هو موقفه مع **عز الدين الشوا*** الذي تَقَدَّم مرارًا وعرض نفسه لأية خدمة فلم يَلْقَ التفاتًا جدّيًا فاضطر هو الآخر إلى الانكفاف.

أخبار عن تفاهم بين رشيد عالي الكيلاني والمفتي ومساعيهما

ومما قاله موسى لي: إنه يريد استشارة **شكري القوتلي*** في صدد إرسال وفد إلى أوربا، وأنه يقترح أن يكون **جميل مردم*** كممثّل لسوريا في هذا الوفد، ولقد جاء كتاب من **طه الهاشمي*** إلى **شكري*** بطريق القنصل العراقي يذكر فيه فائدة الاتصال في أوربا وإرسال وفد يقوم بذلك، ويسأله رأيه في ذلك، ولقد كنا علمنا أن المفتي ورشيد عالي الكيلاني ـ الذي كان رئيسًا للوزارة ـ متفاهمان تفاهمًا تامًّا، وأنهما يخطوان بعض الخطوات المهمة، وأن **ناجي شوكة*** ذهب إلى الآستانة بسبيل هذه الخطوات، حيث كان هو الآخر مندمجًا في هذا التفاهم، فشعرت أنا و**شكري*** من ذلك أنه ليس **لطه الهاشمي*** ولا **لنوري السعيد*** ولا لموسى ولا **لجمال*** اطلاع على ما بين المفتي ورشيد من تفاهُم ولا على ما يجري من مساعٍ واتصالات، ورأينا أن إيفاده قد يكون متناقضًا مع هذه الخطوات والمساعي، وقد يظهر العرب بمظهر الفوضى والتعدد، وفي ذلك ضرر ظاهر، فاتفقنا على إجابة **طه*** بالتريث، وكذلك على ما يقترحه موسى. ويظهر أنه بعد أن تم التفاهم بين رشيد والمفتي وجرت مساعٍ واتصالات بسبيل ذلك رأيا أن يبقى الأمر سرًّا عن الجميع، وكان هذا هو سر موقف المفتي من **جمال*** وموسى و**عز الدين*** والذي أثار غيظَهم منه، وكنت أُفَضِّل أن

تكون حلقة استشارة المفتي أوسع وأنضج من حلقة **إسحق [درويش]*** **والشيخ حسن [أبو السعود]*** ومنيف [الحسيني]، وكنتُ أرى ألَّا يكون موسى [العلمي] وجمال **[الحسيني]*** خَارِجَين عن هذه الحلقة.

اتصال نيوكمب بجمال* وموسى وصداه وأثره في الخلاف مع المفتي

ولقد سمعتُ فيما بعد من **إسحق*** شرحًا لأسباب غيظ **جمال*** وموسى، ونسبة ذلك إلى بعض الخلافات والانتقادات المالية والشخصية في بادئ الأمر، ثم تجهُّم الجو بينهما وبين المفتي لأنهما أظهرا شيئًا من الضعف أو التساهل في محادثاتهما مع نيوكمب الإنكليزي الذي قدم إلى بغداد وأجرى اتصالًا معهما ومع **نوري السعيد*** وأخبرهم باستعداد السلطات الإنكليزية للسير في سياسة الكتاب الأبيض ولو بصورة محدودة أو عرجاء، واقترح على **جمال*** وموسى السفر إلى فلسطين للتفاهم مع سلطاتها على ذلك، وكان هذا بغير علم المفتي فضلًا عن موافقته، فأثاره ذلك عليهما وجعله يقف منهما الموقف الذي وقفه، وقد يكون فيما قال **إسحق*** شيء من الصحة ولكن أميل إلى القول: إن لتكتم المفتي واكتفائه بحلقته الثلاثية أثر فيما كان من سوء تفاهم بين المفتي **وجمال*** وموسى، ولقد تردّدا بعد ذلك من السفر إلى فلسطين تحسبًا من غضب المفتي من جهة ومن نكث السلطات وعدم جدّيتها من جهة أخرى، لأن نيوكمب لم يأت بشيء محدد يبعث في النفس اطمئنانًا.

المُلْحَقُ الأَوَّلُ

تَرَاجِم بَعْض الأَعْلَام الوَارِدَةِ فِي الكِتَابِ

بِقَلَمِ المؤلفِ





إبراهيم هنانو

كان رجلًا جادًّا ذا روح ثورية وأخلاق قويمة، وكان وحدويًّا استقلاليًّا مع شيء من الانفعال والحدة، وأظن أنه درس في مدارس الآستانة بعض السنين، ولست متأكدًا من أنه كان حصل على إجازة من مدرسة عالية، وقد أُعجبنا ببعضنا وأحببنا بعضنا وتوثقت الصلة الحميمة بيننا نتيجة لذلك، ولقد ضمته جمعية الفتاة إليها فكان ذلك من وسائل تقوية الصداقة، وقد تعاونا تمامًا في نطاق المؤتمر والجمعية، ولقد تقدم لهيئة الفتاة المركزية هو وصبحي بركات بمشروع حركة كفاحية مسلحة في منطقة الإسكندرون التي كان لصبحي بركات زعامة فيها، وقبلتِ الاقتراح وعهدتْ إلي بتدبير ما يمكن ويلزم من الأسباب التنفيذية حيث كنت سكرتيرًا للهيئة، فكان هو وصبحي يترددان علي بسبيل ذلك، فكان ذلك وسيلة أخرى للتواثق والتصادق، ولقد استطاعا أن يثيرا حركة كفاحية مزعجة للفرنسيين، وكان إبراهيم أشد ضلوعًا ومباشرة لذلك ووسع حركته إلى غير منطقة الإسكندرونة، ولقد استمرت هذه الحركة إلى ما بعد سقوط العهد الفيصلي واحتلال القوات الفرنسية لسورية الداخلية، فاشتدت السلطات الفرنسية في قمعها، وضيقت الخناق على إبراهيم حتى اضطرته إلى الفرار من سورية إلى عمان إلى شرق الأردن ثم إلى فلسطين والقدس، فقبضت عليه السلطات البريطانية لتسليمه إلى السلطات الفرنسية، وقد سلمته

فعلًا وسيق مكبلًا إلى بيروت، وأثرنا حركة احتجاج وتأييد له في فلسطين، وحاكمته محكمة عسكرية فرنسية في حلب، وقد دار الدفاع حول كونه رئيس دولة أم ثائر ثم أصدرت المحكمة حكمًا ببراءته بعد جلسات تاريخية، وقد أكسبته صفاته وحركته زعامة وطنية شعبية حتى غدا من أبرز رجالات الحركة الوطنية في سوريا في أواخر العشرينات، ثم صار زعيمًا للكتلة الوطنية التي قادت هذه الحركة وأبلت بلاء عظيمًا، وصار له مركز واسم محترمان، وظل كذلك إلى أن توفاه الله في سنة **١٩٣٥**.

ولقد زرت دمشق في سنة **١٩٣٢** فالتقيت به وجددت صداقتي معه ومع آخرين من رفاقه من رجال الكتلة الذين تعرفت عليهم، ومنهم هاشم الأتاسي وسعد الله الجابري، ومما أذكره كذكرى عن هذه الزيارة أني لما دخلت عليهم كانوا يعقدون اجتماعًا لهم في فندق فكتوريا فرحبوا بي وقالوا لي: اجلس واشهد اجتماعنا فأنت من أهل البيت، فشهدت اجتماعهم ثم دعوني معهم إلى الغداء في بيت أحدهم لطفي الحفار، وكان في منطقة سوق مدحت باشا، وكان بيتًا شاميًّا وأكلت معهم خروفًا محشوًّا مع بعض المعجنات والكبة والحلويات والفواكه الشامية. ١/ ٣٥٣



٢

أبو الهدى اليافي

من أسرة دمشقية بارزة ويمكن أن يكون في سنّي، وتعرفت عليه إبان العهد الفيصلي، وهو لبق نشيط ذو لسان نقاد وحركة وسخرية ودعابة، وكان من العاملين في الحركة الوطنية، وحينما استولى الفرنسيون على دمشق غادرها مع كثيرين من السوريين والفلسطينيين إلى شرقي الأردن، وأخذ ينشط مع الناشطين والتقينا به حينما ذهبنا إلى عمان فترة ما، وأظن أنه كان من مؤسسي عصبة العمل القومي والنادي العربي والناشطين فيهما في سني **١٩٢٧ ـ ١٩٣٦** واندمج في العهد الاستقلالي وكان خطه مستقيمًا، وظل على ذلك والتقينا ثانية في دمشق، وكان بيننا تعاون أثناء الثورة الفلسطينية الثانية، وقد ظل على خطه المستقيم إلى أن توفاه الله في السبعينات رحمة الله علي.

٣/ ٢٠٧



٣

إحسان الجابري

هو أسن مني بنحو عشر سنين أو أكثر وأخو سعد الله الجابري، وكان في شبابه كاتبًا أو مأمورَ مراسم في قصر السلطان عبد الحميد، وكان حسن التنظيم حسن السيرة، وقد كان في الآستانة حينما قام العهد الفيصلي، فقدم إلى دمشق وصار من رجال قصر فيصل أو كبير الأمناء فيه، وتعرفنا به بعد قدومنا بقليل وقامت صداقة حميمة بيننا، وظلت كذلك طيلة عهد فيصل، ولم يكن له نشاط سياسي كأخيه، وكان مقيدًا بالأمير ثم بالملك فيصل، ولما غزا الفرنسيون دمشق خرج مع فيصل والآخرين وأقام قليلًا في مصر، ثم ذهب إلى أوروبا وصار ينشط في سبيل قضية سوريا وفلسطين مع الأمير شكيب أرسلان في سويسرا نشاطًا مشكورًا.

وكان يأتي إلى فلسطين مرة بعد مرة فتتجدد صداقتنا وعهدنا، ولما أقمنا في دمشق منذ أواخر **١٩٣٧** صرنا نلتقي كذلك، وفي أثناء الحرب بقي في حلب ثم أخذ ينشط في العهد الاستقلالي الجديد الذي قام سنة **١٩٤٣**، وبعد وفاة أخيه سنة **١٩٤٧** صار يُنتخَب نائبًا في المجلس النيابي السوري عن حلب، وقد تعاونا في المسعى في سبيل الوحدة السورية المصرية في سنة **١٩٥٦**، ولما تمت الوحدة وقرت عيناه بها اتخذ مصر دار إقامة، وكان يزور دمشق وحلب حينًا بعد حين، فيزورني وأزوره في الفندق ويتجدد عهد صداقتنا وقد توفي سنة **١٩٧٩** في القاهرة، ودفن في حلب رحمة الله عليه. **١/ ٣٦٨**

٤
إسحق درويش

هو ابن أخت الحاج أمين [الحسيني] وأصله أرناؤوطي، كان جده جاء متسلمًا للقدس ثم استوطنها، واستعرب هو وأولاده، وتزوج والده بأخت الحاج أمين وكادوا يصبحون فرعًا من الأسرة الحسينية، وقد بدا لنا إسحق شابًّا متزنًا ولينًا ودمثًا شديد التمسك بالقومية العربية وبالخط الوطني القويم، وكان من أقوى مساعدي الحاج أمين، حتى أنه لقب حينما صار الحاج أمين رئيسًا للمجلس الإسلامي وعظم شأنه بلقب «أبي بكر»، وظل هذا لقبه الذي يعرفه الناس وينادونه به بدون حرج، وقد انعقدت الصداقة الحميمة بيني وبينه، وكان من جيلي وأسنّ قليلًا من الحاج أمين، وقد تولى مديرية مدرسة روضة المعارف، وصرتُ بعد قليل مدير مدرسة النجاح في نابلس، فكثرت اتصالاتنا وتعاونّا عبر ذلك أيضًا، وكنتُ حينما أزور القدس أثناء ذلك أنزل في بيته بطلب وإلحاح منه ويبذل جهده في حسن ضيافتي، وظللنا نتعاون في المواقف والأحداث الوطنية المتنوعة، ثم اشتغل في المجلس الإسلامي مديرًا لمدرسة الأيتام ومفتشًا لمدرسة الأوقاف التابعة للمجلس، وكنت انتقلت أنا إلى مأمورية أوقاف نابلس ثم إلى مديرية الأوقاف العامة في القدس فالتقينا معًا في مجال المجلس.

ولما خرج الحاج أمين من فلسطين في سنة **١٩٣٧** مفلتًا من الحصار الذي ضربه عليه الإنكليز، وأقام في جبل لبنان شبه لاجئ

انضم إلينا، وكنت وأنا في دمشق أتردد من آن لآخر على الحاج أمين فألتقي به ونجدد عهدنا وتواثقنا وتعاوننا.

ولما غادر الحاج أمين لبنان بعد نشوب الحرب العالمية الثانية إلى العراق ذهب معه، ولما أخفقت ثورة رشيد عالي الكيلاني وتفرق الشمل، جاء هو إلى دمشق، وذهبنا معًا لاجئين إلى تركيا، وقد أخرجتْه تركيا إلى أوروبا فانضم إلى الحاج أمين الذي كان أفلت من مطاردة الإنكليز واستطاع أن يسافر إليها، ولما عاد الحاج أمين من أوروبا إلى مصر عاد هو الآخر وصار عضوًا في الهيئة العربية العليا، وكنا زملاء متعاونين فيها، وانتقل الحاج إلى سوريا فانتقل معه أيضًا، وظل [فيها] إلى أن وقعت النكبة فأقام قليلًا مع الحاج أمين ثم ذهب إلى القدس التي كانت تحت سلطة شرق الأردن وأقام فيها، ولما كانت نكبة حزيران ١٩٦٧ بقي فيها ونشط مع من نشط من رجال القدس وفلسطين سياسيًّا في سبيل الدفاع والمقاومة، وكان يأتي أحيانًا لسوريا وبيروت ونلتقي به ونجدد عهد صداقتنا، وظل على خطه القويم إلى أن توفاه الله سنة ١٩٧٤ رحمة الله عليه.

ومن عجائب الصدف أنه توفي ثاني يوم وفاة الحاج أمين متأثرًا بوفاة خاله وصديقه الحميم، ولقد أخذ يستعد للسفر إلى بيروت لحضور موكب دفن خاله، وفي المساء شعر بالتعب وما لبث أن توفي.

١/ ٣٣٥



٥
أكرم عمر زعيتر

هو ابن الشيخ عمر زعيتر الذي كان رئيس بلدية نابلس، وحينما توليتُ مدرسة النجاح كان في الصف الاستعدادي الثالث أو الرابع، وكان يبدو عليه ذكاء ونشاط وحركة وتحريك وحماس وطني وبلدي معًا، وأنهى دراسته في المدرسة وذهب إلى الجامعة الأميركية ولم يتم دراسته فيها، ثم انتسب إلى معهد حقوق القدس ونال إجازته.

وقد اشتغل فترة في مكتب محاماة عوني عبد الهادي، ولقد تثقف عربيًّا وإسلاميًّا، وصار يحسن الكتابة والخطابة بأسلوب جذل رنان، وصار حسن الحديث بارع الرواية والنكتة حاضر البديهة، وعاشر إسعاف النشاشيبي واقتبس أسلوبه أو شيئًا منه وشارك منذ شبابه الأول بالحركة الوطنية مع شباب نابلس وغيرهم، وصار فيهم ذا مركز وصداقات وبروز، فلفت الأنظار إليه في كل ذلك.

ورأى بعض إخواننا الذين كنا نتداول معهم في أمر إنشاء حزب الاستقلال ضمه إلى مؤسسي الحزب ليكون ممثلًا للشبان والانتفاع من مواهبه ونشاطه، وكان أصغر سنًّا ومنذئذ توطدت الصداقة والصلة بيننا واستمرت، ولقد استلم لفترة قصيرة شؤون الحزب الكتابية، وكان له جهد وبلاء في اجتماعات الحزب وبث أهدافه، ثم ذهب إلى العراق سنة **١٩٣٣** لحضور حفلة تأبين الملك فيصل وألقى خطابًا فيها، وقد لمح الزعيم العراقي القومي الكبير ياسين الهاشمي حيويته ونشاطه

وقوة عارضته، فاقترح عليه أن يبقى ردحًا من الزمان في العراق ليسهم في الدعوة إلى القومية العربية وتقويتها، فأقام مدة في بغداد واشتغل في مدارسها لفترة ما وبرز فيها كذلك كشاب عربي قوي ذي ذكاء ونشاط وثقافة وقوة عارضة وخطابة وقلم رشيق وبارع الحديث وسريع البديهة، ووطد بينه وبين كثير من شبابها صداقات ومعرفة.

وعاد بعد سنتين إلى فلسطين فاندمج في النشاط الوطني الذي كان ازداد بازدياد توتر المواقف والمظاهرات وحركة الشهيد [عز الدين] القسام، وكان له نشاط قوي بخاصة في أوائل الإضراب الطويل مع شباب نابلس، وبخاصة واصف كمال وممدوح السخن رفيقيه الوثيقين، وكان من أوائل من اعتقلتهم السلطات في هذا الإضراب، وقد نفته أولًا إلى عوجة الحفير، ثم أتت به إلى صرفند حيث كنا وكان كثير غيرنا، ولما انفجرت الثورة في فلسطين للمرة الثانية بعد مقتل حاكم الناصرة اندلعت الثورة فيها، كان في سوريا يعمل ليوم فلسطين وهو يوم الإسراء المقرر في مؤتمر بلودان، وكنت أتولى فيها إدارة الثورة وتموينها فتعاونّا تعاونًا وثيقًا، وكان لفخري البارودي مكتب إعلامي ثقافي، فاتفقنا معه على تخصيص غرفة ومكتب لشؤون فلسطين، وعهدنا به إلى أكرم فكان يكتب النشرات ويوزعها على الصحف، وظل ينشط في سبيل العمل الوطني الثوري، وأرسلناه إلى مصر للعمل على عقد وإنجاح مؤتمرين عقدا فيها من أجل القضية الفلسطينية، وهما: المؤتمر النسائي العربي والمؤتمر البرلماني العربي، وكان له في الأول خاصة جهد قوي، ثم تأزمت الأمور في

سوريا ولبنان قبيل الحرب، فرحل إلى العراق واشتغل في معارفها، وجدد صداقاته وضاعفها بما كان من نشاطه وذكائه وفصاحة لسانه وعارضته الخطابية وقوة قلمه وبارع حديثه، واستغراقه في الفكرة القومية الاستقلالية الوحدوية، واندلعت في أثناء الحرب العالمية الثانية الثورة في العراق ضد الإنكليز، فساهم في تأجيجها مع من كان في العراق من رجال فلسطين وسوريا، وحينما استطاع الإنكليز إخمادها أخذ رجال الحكم العراقي في ظلهم يطاردون الفلسطينيين والسوريين، فر إلى سوريا مع من فر منهم، والتقينا ثانية، وكنت قبل قليل خارجًا من سجن الفرنسيين بعد أن لبثت ستة عشر شهرًا فيه.

وجاءت قوات الإنكليز والديغوليين والأمير عبد الله غازية لسوريا فذهبنا معًا إلى حلب، ثم لجأنا معًا إلى تركيا وأقمنا فيها معًا نحو خمسين شهرًا، وعدنا معًا إلى سوريا بعد انتهاء الحرب، وعدنا معًا إلى النشاط في سبيل قضية فلسطين، وأرسلته الهيئة العربية العليا مع نصري المعلوف إلى أميركا الجنوبية للدعاية، وبذل في رحلته جهدًا ونشاطًا فَصَّلَهُما في كتاب كتبه وطبعه بعنوان «مهمة في قارة»، واشترك في عام ١٩٤٨ في مؤتمر غزة الذي قرر إعلان استقلال فلسطين وإنشاء حكومة عموم فلسطين، وسمي وزيرًا للمعارف فيها، ولم تمارس هذه الحكومة مهمتها بسبب موقف الأمير عبد الله المضاد لقرارات هذا المؤتمر وضمه الضفة الغربية إلى مملكته.

وعاد إلى سوريا فأقام فيها وتجنس بالجنسية السورية، وكان يبدو حائرًا في أمر الاستقرار، ثم بدا له أن يتخلى عن الجنسية السورية

ويذهب إلى الأردن وفلسطين، وهناك استعاد جنسيته الأردنية الفلسطينية واستقر في نابلس، وأخذ ينشط في سبيل القضية، ولما قام الاتحاد بين العراق والأردن عرض عليه على ما علمت أن يكون وزيرًا في الاتحاد، فلم يستجب بسبب الظروف القائمة، وفي سنة **١٩٦١** عينته الحكومة الأردنية سفيرًا في سوريا بعد أن انفصمت الوحدة السورية المصرية، وبقي في هذا العمل إلى أن قامت ثورة الثامن من آذار **١٩٦٣** فطلب نقله، وعُيِّن سفيرًا في طهران حيث بقي مدة في هذه السفارة، ثم اختير عضوًا في مجلس الأعيان، ثم اختير وزيرًا للخارجية، واستقال من هذه الوزارة فعين سفيرًا في لبنان حيث بقي في هذا العمل إلى سنة **١٩٧٤** حيث أُحِيْلَ للتقاعد.

وظل مقيمًا في بيروت حيث تفرغ لنشاطه، وأخذ يراجع أوراقه ومخطوطاته ويهيئها للنشر ويكتب المقالات والبحوث وينشرها في المجلات والصحف العربية بقلمه البليغ في مختلف الشؤون العربية والإسلامية والتاريخية.

وأنشأ مع بعض رفاقه مركزًا باسم المركز الثقافي الإسلامي، وكانت تقام فيه الاجتماعات وتلقى فيه المحاضرات الإسلامية والعربية والتاريخية.

وقد كنا نتراسل ونتداول في مختلف الشؤون، وقد زارني أكثر من مرة في دمشق، ورجوته أن يراجع أجزاء مذكراتي الثلاثة الأولى التي كانت معدة للنشر في بيروت، وقد فعل ذلك ونبهني مشكورًا إلى كثير

مما غاب عني أو التبس علي من أسماء وتواريخ وأحداث واستدراكات وتصويبات عملت بها فجزاه الله خيرًا.

وقد أصدرت له مؤسسة الدراسات الفلسطينية بتيسير من البنك العربي كتابين ضخمين جلا وأغنى بهما تاريخ الحركة الفلسطينية، أحدهما بعنوان «أوراق أكرم زعيتر» احتوى مئات الوثائق والمحاضر والبرقيات والأخبار التاريخية التي كانت قررتها الهيئات والجمعيات والشخصيات العربية والفلسطينية، والثاني بعنوان «يوميات أكرم زعيتر» ضَمَّنَها أحداث الحركة الوطنية بين سني **١٩٣٥ ـ ١٩٣٩**، وجلا به كثيرًا من المواقف والأحداث العائدة للقضية الفلسطينية، وقد علمت أن له أيضًا مذكرات وأوراقًا أخرى نرجو أن يتيسر له نشرها، فيزداد بذلك تاريخ قضيتنا غنًى وجلاء، وفي [عام] **١٩٨٢** غادر بيروت إلى عمان بسبب العدوان الصهيوني الغادر، حيث أقام فيها وقد عُيِّن عضوًا في مجلس الأعيان، كما عُيِّن رئيسًا للجنة الملكية لشؤون القدس، وأخذ ينشط بسبيل هذين المنصبين ويرتب أوراقه ويكتب بعض الأبحاث متعه الله بالعافية.

وقبل أن أختم كلمتي أحب أن أذكر أمرًا طريفًا، حيث أخبرني في إحدى رسائله أنه رأى والده في المنام وقال له: «أوصيك وأوصي أستاذك عزة بالإنصاف». وقد خطر لي أنه بعد أن علم أنني ذكرت والده مرارًا وذكرت أسماء وأشخاصًا كثيرين، وكتبت عنهم كلمات أن يكون عقله الباطن قد أوحى له بهذا المنام. **١/ ٧٧٣**

٦

أمين الحسيني

التقيت بالحاج أمين عند الدكتور حافظ كنعان في نابلس، وكان اعتاد أن يأتي حينًا بعد حين إلى نابلس لتناول الحديث وتلقي التوجيهات والمساعدات، وتعارفنا. وكنتُ أسنّ منه ببضع سنين، كما كان أمري بالنسبة للدكتور حافظ. وكان بطبيعة الحال حليقًا متطربشًا، وتبدو عليه علائم الجدّ والعزيمة والإخلاص.

ومنذئذ توثّقت الصلة والصداقة الحميمية بيننا في مختلف مناسبات العمل الوطني وأنواعه وحِقَبه، وكان يشوب ذلك أحيانًا بعضُ الفتور والخلاف، ولكنا كنا لا نلبث أن نرجع إلى تواثقنا وصداقتنا، إلى أن توفاه الله سنة **١٩٧٤** رحمة الله عليه.

وقد شغل في تاريخ فلسطين الحديث وفي تاريخ القضية الفلسطينية حيّزًا عظيمًا، حتى كان من ألمع الشخصيات العربية ومن أبرزها، وسجّل مواقف وصورًا متلاحقة، من الجهاد والجد والجهد والدأب، بدون ملل ولا توانٍ، بَدْأً من أيام شبابه إلى نهاية حياته.

ولقد بدأ نشاطه وجدّه في سبيل قضية فلسطين العربية، وبدت مواهبه الزعامية في وقت مبكّر، فمنذ أن تمّ احتلال القسم الجنوبي من فلسطين في أواخر سنة ١٩١٧، وظهور اليهود بمظهر القوة والغرور، وجهرهم بمطامعهم وغاياتهم الخطيرة، وتحرك رجال القدس لتنظيم العرب لمقاومتهم، تزعَّم هو فريقًا من شباب أُسرته ورِفاقه، منهم

أخوه فخري، وابن أخته إسحاق درويش، وابن عمّه عبد اللطيف، والشيخ يوسف ياسين اللاذقي الذي كان إذ ذاك في القدس، والشيخ حسن أبو السعود، فأنشؤوا النادي العربي، الذي أخذ ينشط في التوعية السياسية والقومية والاجتماعية.

وعاضد هو ورفاقه مشروع مدرسة روضة المعارف الوطنية التي كان يديرها الشيخ محمد الصالح، لتكون منهلًا للناشئة، ويتخرج منها شباب وطنيون قوميون. ونشط في جمع متطوعين ممن تمرّنوا على العمل الحربي العسكري في الجيش العثماني، وإرسالهم إلى الجناح الشمالي من الثورة الهاشمية الذي كان بقيادة الأمير فيصل بن الحسين، والذي كان ينشط في منطقة العقبة.

ولقد قيل: إنه كان مرتبطًا بجبرائيل حداد الذي كان في معسكر فيصل بن الحسين وضابط استخبارات إنكليزية، وأن نشاطه في جمع المتطوعين من ذلك. ونعتقد أن لخصومه إصبعًا في هذا القول، وبَذَلَ جهده في جمع متطوعين لجبهة فيصل، فليس ذلك دليلًا عليه، حتى ولو صح أنه فعل ذلك بطلب من جبرائيل حداد، فهذا كان مع الأمير فيصل كضابط ارتباط بينه وبين الإنكليز، والإنكليز كانوا حلفاء للعرب، وكان هؤلاء يقاتلون معهم تحت راية الهاشميين في سبيل استقلال بلادهم، وقد يكون جبرائيل حداد جاء بعد احتلال الإنكليز للقدس ولمح في الحاج أمين نشاطًا وحيوية، فطلب منه جمع متطوعين من أهل المنطقة لجبهة فيصل، وليس في هذا أي مأخذ.

وننبه على أننا لم نلحظ أيَّ ريب في سلوك الحاج أمين في لقاءاتنا المبكِّرة به، وكان خطه قوميًّا وحدويًّا استقلاليًّا، وضد الإنكليز والاستعمار والصهيونية منذ ذلك الوقت، وظل على ذلك طيلة حياته. وحينما عقدنا المؤتمر الفلسطيني الأول في القدس في أوائل سنة ١٩١٩ كان هو وشباب النادي العربي متحمّسين لذلك الخط أشد الحماس، ولقد جاء جبرائيل حداد المذكور الذي صار مدير أمن الشام في بداية حكومة فيصل إلى القدس، وحاول أن يجعل المؤتمر يبدّل الميثاق الذي وضعه، وهو: «فلسطين جزء من سوريا، واستقلال تامّ ضمن وحدة تامّة لجميع سوريا، ورفْض لوعد بلفور وهجرة اليهود والانتداب والحماية والوصاية». كان موقفه وموقف رفاقه شديدًا مؤيّدًا لنا في رفض وساطة جبرائيل حداد وإحباط محاولته.

وحينما قَدِمَتْ لجنة الاستفتاء الأمريكية لمعرفة رغبات ومطالب العرب في فلسطين، وبذلنا جهدنا بجمع الناس في كل فلسطين على ذلك الميثاق، كان هو ورفاقه من أقوى المؤيدين في أوساط القدس، التي كان بعض زعمائها مثل راغب النشاشيبي وعارف الدجاني يرون أن تكون فلسطين وحدها، وهو ما كان الإنكليز يوحون به وجاء حداد للعمل له، وكل هذا مما يجعل ذلك القول في غير محلّه، أو لا أثر له في سلوكه.

ومن أُولى مواقفه الثورية العملية: موقفه في المهرجان العربي الإسلامي الكبير في نيسان سنة ١٩٢٠ في موسم النبي موسى، حيث اغتنم فرصة المهرجان الذي كان يجتمع فيه آلاف العرب من القدس

والمدن والقرى، فخطب فيهم خطبة قومية وطنية، أهاجتهم وأدت إلى صدام دموي بين العرب واليهود والبوليس الإنكليزي، ووقع كثير من القتلى والجرحى، ولكن الجانب اليهودي كان الأشد خسارة.

وحاولتِ السلطات اعتقاله مع رفيق له خطب في المهرجان أيضًا وهو عارف العارف، فهربا إلى شرق الأردن فدمشق، وحاكمتهم السلطات العسكرية غيابيًّا، وحكمت عليهم بالسجن عشر سنين.

وكنا آنذاك في دمشق، فجدّدنا العهد وتعاونّا في سبيل القضية، وكان من ذلك إنشاء جمعية فلسطينية سرّيّة للعمل المسلّح في حدود فلسطين، وبدأت مهمتها التي لم يُقسم لها حظّ كبير، لأن الحكم الفيصلي لم يلبث أن سقط بغزو الجنرال غورو لسوريا، وعدنا نحن إلى فلسطين، وعاد هو إلى شرق الأردن، وكان أخوه مفتي القدس الشيخ كامل قد توفي.

وتطلع آل الحسيني إلى الاحتفاظ بمنصب مفتي القدس حسب التقاليد، ومع أنه كان للحاج أمين أخ أسنّ منه وهو فخري، فقد رأوا أن يكون المنصب له، لما رأوا منه من مزايا ومواهب، ففعلوا أولًا واستطاعوا أن يستصدروا عفوًا عنه وعن رفيقه عارف العارف، ولما عاد جرت انتخابات للمنصب بواسطة العلماء الدينيين حسب القانون العثماني، وترشح الحاج أمين مع آخرين، وكان المنصب من نصيبه.

طالب المسلمون قبل توليه المنصب وعلى رأسهم أخوه المفتي الشيخ كامل بالإشراف على أوقافهم ومحاكمهم الشرعية، أُسوة

باليهود الذين كانوا يُشرفون على مصالحهم الطائفية، فلما تولى منصب الإفتاء واصل الطلب، فاستجابت السلطات لذلك، وأدى إلى وضع قانون من قِبَل جمعية من علماء المسلمين وبارزيهم بإنشاء مجلس شرعي إسلامي أعلى، وافقت عليه السلطات، وجرت انتخابات لهيئة المجلس حسب المجلس النيابي العثماني بالنسبة للأعضاء، ونجح كل من الحاج سعيد الشوا عن غزة، وعبد الله الدجاني عن يافا، والشيخ محمد مراد مفتي حيفا عن لواء عكا، وعبد اللطيف صلاح عن نابلس (وكان زوج بنت الشيخ عمر زعيتر نجح بتأييده). ثم جرت انتخابات الرئاسة حسب قانون المجلس، وفاز الحاج أمين بالمنصب أيضًا، وهكذا جمع بين الإفتاء ورئاسة المجلس.

وكان منصب الإفتاء ورئاسة المجلس من أقوى العوامل على ما كان من بروز قضية فلسطين كقضية إسلامية عامة، بالإضافة إلى كونها قضية عربية عامة، وعلى بروزه كزعيم عربي إسلامي كبير مجاهد في سبيل الإسلام والعروبة وقضية فلسطين، سواء في المجال المحلي أم في المجال الإسلامي، بحيث يمكن أن يقال: إنه لو لم يشغل هذين المنصبين لما عدا جهاده ونشاطه في هذه السبل كثيرًا على جهاد ونشاط رفاقه وزملائه.

ومن عجيب الأمور، أنه كان للمندوب السامي الإنكليزي اليهودي الصهيوني هربرت صموئيل اليد في شَغْلِه للمنصبين! بحيث إنه لو لم يُرِدْ ذلك لَمَا كان شَغَلَهُما، وكانت مبررات عدم تعيينه لهما أشدّ من مبررات تعيينه، وكان ملموحًا في هذه اليد فكرة إيجاد توازن بين

الأُسَر والتيّارات الفلسطينية، وبتعبير أدق «تنافس» وانفساح المجال لهذه اليد لِأَن تمتد أو تتمثل في هذا التوازن والتنافس، فالحاج أمين لم يكن عالِمًا دينيًّا مرشَّحًا ترشيحًا طبيعيًّا لمنصب الإفتاء، وكان المرشِّحون له وهم الشيخ موسى البديري والشيخ حسام الدين جار الله والشيخ أمين الغوري أسنّ منه كثيرًا وأبرز في مجال العلم الديني والفقه الديني والممارسة والزي، وفي الانتخابات كانت درجته الرابعة، حيث كان الثلاثة متقدِّمين عليه، جار الله والبديري والغوري بالتوالي ثم هو، وكان الاختيار من حق الحاكم، فاختاره المندوب السامي عليهم، رغم تقدمهم عليه في الانتخابات والسنّ والفقه والممارسة، وفي انتخابات رئاسة المجلس كاد الشيخ عمر زعيتر يغلبه، لأنه كان أقوى منه انتخابيًّا ووجاهة، ومؤيَّدًا من كتلة راغب النشاشيبي التي كان لها قوة انتخابية كبيرة، فضلًا عن القوة الانتخابية في لواء نابلس التي كان الشيخ عمر زعيتر، ولأسباب ارتآها تنحّى له عن المنصب. ولقد كان موسى كاظم باشا الحسيني رئيسًا لبلدية القدس حين الاحتلال، وفي مهرجان النبي موسى المذكور آنفًا تحمّس هو أيضًا وخطب حينما مر الموكب من أمام البلدية، فلما كانت المصادمات الدموية عزله المندوب السامي وعيَّن مكانه راغب النشاشيبي، وصار موسى كاظم تلقائيًّا زعيمًا للحركة الوطنية، فرأى المندوب أنه لو عيّن غير الحاج أمين لظلت السلطات مع طرف واحد أو تيار واحد، وكان الطرف الثاني خارجًا من يدها وضدها وهو الوطني، فأرضى باختياره الحاج أمين للمنصبين تباعًا للتقاليد بتعيين

أخي مفتي الميّت للإفتاء، وتعيينه رئيسًا للمجلس الإسلامي، فصارت يد الحكومة في التيار أو الطرف الثاني أيضًا.

ولقد كان منصب الفُتْيا على كل حال حكوميًّا، لأن راتبه يُدفع من الحكومة، ومع أن المحاكم الشرعية وُضعت تحت إشراف المجلس الإسلامي، فقد كانت الحكومة هي التي تدفع مرتبات قُضاتها وموظفيها، وكانت تتقاضى حتى مقابل ذلك رسوم المحاكم بصفة طوابع حكومية تُسلمها للمحاكم. وكان رئيس وأعضاء المجلس يتقاضون نصف مرتباتهم من صندوق الحكومة، لأنهم مشرفون على المحاكم الشرعية التي يدفع صندوق الحكومة مرتباتها، بالإضافة إلى إشرافهم على الأوقاف التي كانوا يأخذونها، إضافة إلى أن نصف مرتباتهم الثانية كان من إيرادها. وكان من المعروف أن طوابع المحاكم الشرعية لا تسد مرتبات محاكمها ونصف مرتبات المجلس، فيكون صندوق الحكومة هو الذي يتكفل بالفرق الذي يمكن أن يكون بضعة آلاف جنيه، ولقد كان قسم كبير من إيراد الأوقاف أعشار قرى تجبيها الحكومة في سياق ما تجبيه من القرى من ضريبة الأعشار، وتدفعها للمجلس. فكل هذا يبيّن مقدار اليد التي كانت للحكومة في الإفتاء والمجلس والمحاكم الشرعية والأوقاف.

ولقد نفخ الحاج أمين منصب مفتي القدس حتى صار راسخًا في الأذهان أنه المفتي الأكبر وأنه مفتي جميع فلسطين، ونفخ كذلك المجلس حتى كاد يستقر في الأذهان أنه حكومة إسلامية أكثر منه هيئة مُشرفة على الأوقاف والمساجد والمحاكم الشرعية، وبغضّ النظر عن

ما في هذا وذاك من مفارقة بالنسبة للقوانين والتقاليد والواقع ما أثاره من نقد ومعارضة من معارضي الحاج أمين، فقد صار في ظلهما وبما كان من خطه الوطني الوحدوي الاستقلالي الجهادي ذا اسم وبروز داوٍ كأبرز زعيم في فلسطين، وكان لذلك أثر كبير في إبراز القضية الفلسطينية عربيًّا وإسلاميًّا وعالميًّا.

ومع ما كان لحكومة فلسطين الإنكليزية من يد في المجلس الإسلامي والمحاكم والإفتاء، فقد حاول الحاج أمين بكل جهده أن يحتفظ بالخط الوطني الوحدوي والجهادي، غير أن علاقة الحكومة الاستعمارية الواقعية كانت وظلت شبه كابح له عن الخروج في محاولته وخطه عن المدى الذي تتسع حوصلة هذه الحكومة له.

وقد كان الحاج أمين نتيجة لذلك يداري هذه الحكومة، مع جهده بحفظ ذلك الخط والزعامة الوطنية عبره، وكان هذا مأزقه الذي عاش فيه من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٣٧ ولقد كان الحاج أمين وأصدقاؤه وزملاؤه فضلًا عن خصومه يشعرون بهذا المأزق، وكان الأولون يشعرون بالحرج من ذلك، ولكنهم كانوا يحاولون تجاوزه وتفسيره وتبريره، أما الآخرون فكانوا دائمًا يستغلونه ويحاولون إحراج الحاج وتجريحه به وتحديه.

ولقد كان الحاج أمين يندمج في السير في مواقف ضد الإنكليز، فكان هذا مما يُساق كمبرر من أصدقائه وأنصاره، ولا سيما أنه قائد المناوأة القوية للصهيونية في سنة ١٩٣١ وبعدها، وتراجعت الحكومة

الإنكليزية عما وعدت في «كتابها الأبيض» بالحد من الهجرة وبيع الأراضي، وبإشراك الوطنيين في الحكم بشكل ما، مما كان يطالب به العرب، واشتد سيل الهجرة، وتصامم الإنكليز عن الاحتجاجات. وأخذت تتعالى الأصوات بوجوب مواجهة الإنكليز بالعداء الصريح وعدم التعاون بدون مداورة، فكان ظرف اشتد به ذلك المأزق.

ولقد رأينا وبعض رفاقي أن نصارحه بذلك، ونحاول إنشاء حزب يحمل ذلك الشعار، واجتمعنا معه في طبريا في أوائل سنة **١٩٣٢** وكان معه إسحق درويش، وكنتُ أنا ومُعين الماضي ورشيد الحاج إبراهيم نحاول أن نُقنعه بصواب المحاولة ونتفق على تنفيذها، فدَاوَرَ ولم يوافق، مما جَعَلَنا ننفرد عنه ونُنشئ حزب الاستقلال، وقد أثاره انفرادُنا لأنه يكشف مأزقه، لأننا كنا متعاوِنين متضامنين معه، وحاول عرقلة نمو الحزب وبروزه بأساليب متنوعة، وقام جفاءٌ بيننا وبين جماعته استمر إلى الإضراب الطويل.

ولقد أحدث الحزب تيّارًا قويًّا، اشتدت به الأصوات بالدعوة إلى عدم التعاون مع الإنكليز، وانعقد مؤتمر فلسطيني عام شامل في يافا، حضره الحاج أمين وأنصاره، والمعارضون والخصوم للحاج أمين، معًا، وحضرناه مع جمهور كبير أيضًا، وارتفعت فيه الأصوات بوجوب تخلي أصحاب المناصب شبه الرسمية عن مناصبهم، تعبيرًا عن عدم التعاون مع السلطات، وقام عاصم السعيد رئيس بلدية يافا، وهو من خصوم الحاج فأعلن استعداده واستعداد راغب النشاشيبي وغيره من رؤساء البلديات للاستقالة إذا تضامن الحاج أمين وأعضاء المجلس

[معه]، وأعلنوا استعدادهم للاستقالة. وسارع الحاج أمين وأنصاره على القول: إن هذا كيد وفخ للحاج أمين وحسب، وأن المعارضين هم عملاء الإنكليز، ولن يلبثوا أن يعودوا لمناصبهم بعد أن يتخلى الحاج عن منصبه الذي كان يستمد منه قوة ومجدًا.

وعلى كل حال، فقد انكشف المأزق في هذا الاجتماع الكبير لجميع الناس، وقد ظل الحاج أمين يعاني منه ويتحمل حرجه، ويبرره صراحة وضمنًا بأنه في سبيل القضية القومية، إلى أواخر سنة **١٩٣٧**. ولقد اشتدّت الهجرة واشتدت السلطات في انحيازها لليهود، وأدى ذلك إلى توتر ومواقف شديدة، ثم انفجر في إضراب سنة **١٩٣٦** الطويل، وتشكّلت لجان قومية اندمج فيها ممثلون من مختلف الأحزاب والميول، وصار من الضروري قيام لجنة عليا للزعامة والتنسيق، واجتمعنا في بيتنا أنا والحاج أمين وأمين التميمي ورشيد الحاج إبراهيم ومُعين الماضي وأحمد حلمي عبد الباقي والشيخ حسن أبو السعود وإسحق درويش، وتحدثنا في الأمر، فاقترحنا أن تتألف اللجنة العليا من رؤساء الأحزاب وممثليهم، وتكون برئاسة الحاج أمين.

وتردد في قبول ذلك، وكان تردده متّصلًا بدون ريب بذلك المأزق، لأن الإضراب حركة تمردية موجّهة للسلطات الإنكليزية، فقلنا له: إنه أمام موقف حاسم، فإما أن يقبل هذه الرئاسة، أو يتخلى عمَّا يجب أن يتمسك به سرًّا من زعامة الحركة الوطنية، ولم يبق احتمال لغير ذلك. وسأل عما إذا كان الاستقلاليون مستعدين للتضامن

معه في الموقف، فأُجيب بالإيجاب إذا برز في الزعامة الوطنية جهارًا أمام الإنكليز، لأن هذا هو سبب ما بيننا من فُتُور وعدم تضامن، فقَبِل، وتألفت اللجنة برئاسته ومن رؤساء جميع الأحزاب المعارضة له والموافقة، ولقد حاول جهده مع ذلك في التوفيق بين موقفه الجديد ومأزقه، ولكن الموقف صار أشدّ من المأزق، وكان مما جعله يبتعد شيئًا بعد شيء عن هذا المأزق إلى خصومة السلطات العلنية.

وفي أثناء الإضراب، اندلعت الحركات الثورية تدريجيًّا ثم قويت حتى صارت ثورة لاهبة أزعجت السلطات أشد الإزعاج، وكان للحاج أمين يد قوية سرّيّة في ذلك، مع استمراره في التظاهر بالتهدئة والمداورة، ولا شك في أن السلطات كانت تعرف ذلك، ولكنها ظلت تقبل منه تظاهره، لأن الإضراب والثورة جعلاها مرتبكة، وجعلاها تفضّل عدم تصعيد الموقف معه في ظروفها ما أمكن ذلك. ولقد وعدت الحكومة الإنكليزية بإرسال لجنة تحقيق ملكية لتكون معبرًا لتوصيات بحلول مناسبة للقضية، وتدخَّل ملوك العرب نتيجة لذلك، وحملوا اللجنة العربية العليا على إعلان فكّ الإضراب. وجاءت اللجنة، ثم تواطأت مع اليهود، وبتأييد من الأمير عبد الله بن الحسين، على اقتراح إنشاء دولة لليهود في قسم من فلسطين، وضمّ باقيها لمملكته، ووافقت الحكومة الإنكليزية على ذلك وأعلنته، فرفضته اللجنة العليا برئاسة الحاج أمين، وأخذت البلاد تدخل في توتر، وتسير نحو استئناف الثورة، وكان هذا متوقّعًا من قبل، حتى فاتحنا بذلك الملك عبد العزيز حينما ذهبنا للرياض وفدًا للجنة العليا

في أوائل سنة ١٩٣٧ وطلبنا مساعدته، ثم كررنا طلب المساعدة حين ذهب الحاج أمين وأنا معه إلى الحج بعد قليل من ذلك.

ولما قُتل حاكم الناصرة أندروز في أيلول ١٩٣٧ اشتد التوتر، واشتد السير نحو استئناف الثورة، وكانت أصابع الحاج أمين وراء ذلك، فلم يعد في إمكان السلطات ولا الحاج أمين الاستمرار في تبادل المداراة والمواربة، واعتقلت كثيرًا من أعضائها ومن القضاة والوعّاظ وأنصار الحاج أمين، ونفتْ من وجدته واعتقلته من أعضاء اللجنة العليا إلى سيشيل، وحاولت أن تعتقله، فاعتصم في الحرم، ولم تُرِد اقتحام الحرم.

والمدة التي قضاها متحرّرًا من ذلك المأزق وغدا فيها صريحًا وقويًّا ودؤوبًا أطول أكثر من مرتين من المدة التي قضاها وهو يعاني حرج ذلك المأزق، أي من خريف سنة ١٩٣٧ إلى سنة ١٩٧٤، بينما المدة الأولى من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٣٧.

ولما اندلعت الحرب العالمية الثانية ذهب إلى العراق، وكانت له يد قوية في الثورة التي اندلعت ضد الإنكليز أثناء حكومة رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٤١. وأثناء الثورة أقام اتصالًا مع الزعامة الألمانية، ونال حظوة لدى الزعامات الألمانية والإيطالية، وتحالف معهم. ولما استطاع الإنكليز قمع الثورة استطاع أن يُفلت من مطاردتهم إلى أوروبا، وحصل منهم هو ورشيد عالي الكيلاني على كتب رسمية، بالاعتراف باستقلال بلاد العرب ووحدتها، وإلغاء وعد بلفور وآثاره

من فلسطين. ولما انكسر المحور في الحرب أَفْلَتَ إلى فرنسا ومنها إلى مصر في خريف ١٩٤٦.

ولقد حظي في مصر حينما عاد إليها بالرعاية، وتوسد رئاسة الهيئة العربية العليا التي كانت أُنشئت في صيف هذه السنة بمساعي جامعة الدول العربية، وتُركت رئاستُها شاغرة ليشغلها هو حين يعود، اعترافًا واحترامًا بمجهوده وزعامته السابقة، وامتدادًا لرئاسته للّجنة العربية العليا التي قامت في ظروف الإضراب الطويل. وأخذ ينشط في سبيل قضية فلسطين مع أعضاء الهيئة، التي ضمّ إليها آخرين من رفاق جهاده (كان أعضاء الهيئة الأولون: جمال الحسيني والدكتور حسين الخالدي وأحمد حلمي عبد الباقي وإميل الغوري، وضم إليهم كلًّا من: عزة دروزة ورفيق التميمي ومعين الماضي وإسحق درويش والشيخ حسن أبو السعود) وأخذ يتنقل بين مصر وسوريا أثناء الحرب الفلسطينية ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ ثم استقر في مصر إلى سنة ١٩٥٤.

وحدث بينه وبين حكام مصر الثورة ما جعله يختار الانتقال من مصر إلى بيروت في أوائل العقد الخامس، حيث صارت دار سكن وعمل له، وقد أنشأ مسكنًا واتخذ مركزًا للهيئة العربية العليا، وظل ينشط فيها إلى أن توفاه الله في عام ١٩٧٤ ودفن فيها رحمه الله.

وقد تكون انكشفت شمس غروبه من نطاق القضية الفلسطينية بعد قيام منظمة التحرير برئاسة أحمد الشقيري، نتيجة لمؤتمر القدس في حزيران ١٩٦٤، حيث أخذت المنظمة ولجنتها التنفيذية تبرز ويُعترف

بها كممثلة للشعب الفلسطيني لدى الحكومات العربية وغيرها ولدى هيئة الأمم ومجلس الجامعة العربية تدريجيًّا. وقد كان مناوئًا للشقيري في إنشاء الكيان الفلسطيني، وجمع المؤتمر الفلسطيني من أجل ذلك بتشجيع من الجامعة. وكان يطالب بإجراء انتخابات للمؤتمر، ولكن رغبته لم تتحقق، وبرزت المنظمة ولكنه كابر وظل ينشط في نطاق الهيئة العربية العليا في سبيل القضية العربية. ثم نشط في نطاق رابطة العالم الإسلامي، وظل ينشط ويصدر عن الهيئة بيانات ونشرات، واحترمت المنظمة جهاده وجهوده، فلم ينشب بينهما صِدام، وظل كذلك إلى آخر حياته.

وقد يؤخذ عليه أنه كان شديد الحساسية إزاء ما يكون من الآخرين من تحدٍّ لزعامته، وخاصة في مجال القضية الفلسطينية، فهو يقف مواقف شديدة إزاء من يتحدّاه في ذلك، حتى يصل أحيانًا إلى التجنّي، وحتى إزاء من لا يكون منحرفًا وطنيًّا وعربيًّا وأخلاقيًّا، بل وإزاء من يكون له بلاء وإخلاص للقضية الفلسطينية والقضية العربية، وهناك أمثلة كثيرة، يمكن أن يُذكر منها على سبيل المثال: مثلما كان بينه وبين رشيد عالي الكيلاني وفوزي القاوقجي وأحمد الشقيري وموسى العلمي وحزب الاستقلال وغيره. وقد يؤخذ عليه مآخذ ثانوية أخرى في أساليب العمل والتعامل، ولكن من الحق أن يُقال إن ذلك ليس فريدًا، وهو يتشارك فيه مع معظم الزعماء العرب، كما أن من الحق أن يقال: إن كل ذلك لم يكن ليطغى على ما كان له من جهاد وجهود مخلِصَين قويَّين داويَين في سبيل القضية الفلسطينية والقضايا

العربية والإسلامية. فمنذ شبابه الأول إلى آخر حياته، وهو في كل ذلك قويّ شديد المِراس شديد الإخلاص، لا يكل ولا يمل، حتى أصبح في كل ذلك علَمًا بارزًا في سماء العروبة والإسلام، بل والعالم. رحمة الله عليه رحمة واسعة. وما ذكرناه هو غيض من فيض، وله حيّز كبير في مذكراتنا وتسجيلاتنا، حتى ليمكن أن يقال: إنه أكثر الشخصيات حيّزًا وذكرًا.

ومنذ تعرّفنا به عام ١٩١٨ توطدت بيننا الصداقة والتعاون، وظلت تقوى حتى صارت حميمية قوية، وكنت ألمح ـ ولا أقول هذا للتزين، فإننا والحمد لله في غنًى عن ذلك، ولكن للحقيقة ـ أن لي في نفسه تقديرًا واحترامًا واهتمامًا خاصًّا، وكان يهتم كثيرًا لآرائي واقتراحاتي وحضوري معه، في مختلف المواقف والمناسبات الخاصة والعامة. وقد كان يحصل أحيانًا شيء من التراخي والغبار بيننا وبينه، كما كان ذلك أثناء انتخابات المجلس الإسلامي، وفي سياق نشوء حزب الاستقلال، وفي سياق العمل في الهيئة العربية العليا التي انضممتُ إليها مدة من الزمن بناء على طلبه، ولكن كان لا يلبث أن يعود الصفاء والتواثق والاحترام المتبادَل إلى ما كان عليه بيننا، وظل كذلك إلى آخر حياته. وبعد قدومه إلى بيروت أو إلى الجبل [كنتُ] أزوره ويردّ لي الزيارة، وكان يزورني حينما يأتي إلى دمشق، وقد كان ضيفًا عليَّ مرارًا. ١/ ٣١٨

نتيجة احتكاكاتي به وتعاملي معه في المجلس الإسلامي الأعلى لم يكن يتقيد بنظام وانتظام في عقد ومواعيد جلسات المجلس

الإسلامي الأعلى وأبحاثه، ولقد كان يقدم للمجلس بطريقه (لأنه هو الرئيس) أوراقٌ كثيرة، فما يكون عاديًا أو ما يكون له فيه رأي إيجابي عرضه ومشى في المجلس وجلساته، وما كان غير مهضوم عنده أو ما كان فيه مناقضة مع رأي خاص له شخصيًا أو سياسة محلية أهمله، ودحره من جلسة إلى أخرى دون أن يطرحه للبحث إلا بعد إلحاحات ومراجعات، وكان أحيانًا في سبيل تمشية رغباته وأفكاره ومقترحاته يساوم الأعضاء، ويبادلهم بموافقات على رغباتهم وأفكارهم التي قد يكون فيها ما يتناقض مع الأولى، وليس نادرًا أن مسائل وأوراقًا عديدة كانت تتأخر شهرًا أو شهرين أو ثلاثة أو أكثر ولا تطرح للبحث إلا بعد أن يستطيع إقناع عضوين بتمشية ما يراه ويفكره في صددها، وليس نادرًا أن يؤخر أوراقًا ومسائل يكون لبعض الأعضاء رغبة في تمشيتها، ولا يطرحها ويمشيها إلا بعد أن يضمن موافقتهم على مسائل وأفكار وأوراق له [في] تمشيتها رغبة ومصلحة ورأي إيجابي، وليس نادرًا أن يمر أسبوع أو أسبوعان أو ثلاثة دون عقد جلسات للمجلس بحجج متنوعة، لأن مسائل له لم يوافق عليها الأعضاء وله رغبة في تمشيتها. وكان بهذا التأخير يجعل بعض الأعضاء الذين لهم آراء إيجابية أو مصلحة أو رغبة في مسائل أخرى بين يدي المجلس يتساهلون في بعض ما يريدون لحمله على عقد الجلسات.

ولقد كان حريصًا على جمع كل شيء في يده وربطه بنفسه وتنفيذ رغباته، وقد صار أو حرص على أن يصير مرجع كل شيء وكل الناس، وصار المجلس يكتظ بمختلف الناس الذين يريدون الاجتماع

به والتحدث معه في شؤونهم، سواء أكانت مما يتصل بأعمال المجلس والأوقاف أو لا يتصل، ويستغرق كل هذا وقته وجهده، وكان يهتم بتكتيل كتل مخلصة له حوله، وكان ذا حساسية شديدة بالنسبة لشخصيته ورغباته وسياسته المحلية والولاء لها مع محاولة صبغ كل هذا بصبغة الوطنية، وكان طموحًا لسعة الاسم والنفوذ والصيت في الداخل والخارج، يضاف إلى هذا ما كان في محيطه من تيارات مختلفة موافقة ومعارضة وتزلف واستنكار ومكايد ودسائس، فكان لكل ذلك تأثير أيضًا في كيان المجلس واسمه وأعماله، وكثيرًا ما كان ينجم عن هذا التأثير فوضى وشلل وتعقيد، ومما سجلته أن الحاج أمين كان يشغل الوعاظ في الشؤون السياسية المحلية، ولقد اقترح توسيع دائرة الوعظ وزيادة عدد الوعاظ، ولم أر بأسًا في الاقتراح لأنه مفيد مبدئيًّا وموضوعيًّا بالنسبة للتوعية الإسلامية الوطنية، ولكن الحاج أمين اهتم لتعيين أشخاص مرتبطين حتى يضمن ولاءهم به واشتغالهم في سياساته المحلية، ولقد أصبح الوعاظ يرون أنفسهم عمالًا له يسيرون وفق توجيهاته التي منها ما كان دعاية شخصية له، ولقد وضع على رأس هذه الدائرة شخصين مصريين اسم أحدهما علي رشدي، وثانيهما الشيخ فهمي غريب لا أدري ما الذي جاء بهما إلى القدس، وكانا يحسنان الجدل، والأول أبرع وأشد في ذلك، وكان الحاج [متمسكًا] بهما أشد التمسك لأنهما من الأدوات التي كان يستغلها لدعاياته.

ومما سجلته مسألة تعيين صفوة يونس الحسيني وعلي محي الدين

الحسيني موظفَين في المجلس دون أن يكون لهما مؤهلات وجهد في العمل الذي عُيِّنَا له، ولقد استطاع أن يأخذ من المجلس قرارًا بإحداث وظيفة مأمور أراضي المجلس لتثبيت وتسجيل أملاك وعقارات أراضي الوقف في فلسطين وملاحقتها، واستطاع أن يأخذ قرارًا بتعيين صفوة يونس الحسيني لهذه الوظيفة دون أن يسألني ويأخذ رأيي فيه، وقد فوجئت بالقرار فقلت له بصراحة: إن صفوة لا يستطيع أن يقوم بهذا العمل، ولكنه ظل يلح علي بالرجاء للموافقة أو السكوت، وألَّا أجعلها مسألة استقالة أو رفض فسكت، ولكني لم أتعامل معه وظيفيًّا وظل مرتبطًا بالرئيس ولقد قضى في هذه الوظيفة سنتين دون أن يقوم بأي شيء جاد من واجباتها، وقد استطاع أن يأخذ موافقة من المجلس على تعيين علي محي الدين الحسيني سكرتيرًا للمجلس وليس لهذه الوظيفة صلة بعملي، ولقد كان الشاب ذا أخلاق حسنة ونشيطًا وهو متخرج من الجامعة الأميركية، ولكنه لم يكن يحسن الكتابة بالعربية، وكانت وظيفته من صلب هذه الكتابة، وكان الحاج يستفيد من نشاطه في سياساته المحلية غير مهتم بما كان يجري في محاضر المجلس من إغلاق وتشطيبات.

ومما سجلته كتعليق على حالة المجلس بوجود الأعضاء الأربعة: أمين التميمي وأمين عبد الهادي وعبد الرحمن التاجي والشيخ محي الدين عبد الشافي «أن الحاج أمين صار في موقف صعب، فأكثرية المجلس المتمثلة في أمين عبد الهادي وعبد الرحمن التاجي والشيخ محي الدين معارضة، وأمين التميمي وإن كان صار منسجمًا

انسجامًا تامًّا مع الحاج أمين بعد أن عاد الصفاء بيننا وبينه، فهو على كل حال ليس مثل الحاج سعيد الشوا والشيخ محمد مراد في مسايرة الحاج أمين في كل ما يريد ويرغب، لأنه كان يحب أن يلتزم المنطق والأصول والمعقول، وما فيه صلاح أحوال المجلس الإدارية والمالية بقدر الإمكان، وكان هذا الموقف مما جعل الحاج أمين أقل حرية وأقل إصرارًا وإلحاحًا على تنفيذ ما يرغب». ٧٤٨/١



٧

بشير القضماني

التقيته بعد اعتقالي من قبل سلطات الأمن في سوريا عقب إعلان الحرب، انتقل إلى طاقتي وصرنا ننام سوية فيها ونأكل معًا ونتسلى معًا طيلة الأيام التي بقيتُ فيها في العنبر إلى أن انتقلتُ إلى العنبر السياسي، وقد لمست فيه شابًا ذكيًّا ناضجًا فيه قابلية شعبية وفيه قوة عاطفة وإقناع، ولم يكن بعدُ نال شهادة الطب وإنما كان في دراسته ووصل إلى الصف الأخير، وبقي عليه تقديم امتحان السريريات حتى ينال الشهادة ولقب دكتور، وقد خشي أن تضيع عليه السنة فسعى واستطاع أن يحصل على إذن خاص بالاشتراك في الامتحان، وقد اشترك فعلًا فيه ونجح في أكثر الفروع على الرغم ما كان فيه من قلق النفس من السجن والمستقبل، وقَصَّرَ في مادة واحدة أعادها في دورة ثانية ونجح فيها، وتوثقت بيننا الصداقة ودامت إلى ما بعد السجن، وبرز هو حتى صار نائبًا ومحافظًا لمدينة دمشق ولم تَتَعَدَّ صداقتنا السلام والكلام. ٣/ ٩٠٠

٨

جمال الحسيني

كان أسن مني قليلًا، وكان من خريجي الجامعة الأميركية البيروتية ويحسن الإنكليزية، وقد عينه الإنكليز بعد الاحتلال قائمقام مساعدًا للحاكم العسكري في نابلس في سنة ١٩١٨، وقد بقي في هذه الوظيفة نحو سنتين، ثم استقال فاختير لسكرتارية اللجنة التنفيذية، ومنذئذ اندمج في الحركة الوطنية، وصار من أبرز وأنشط رجالها، وقد اشتغل لفترة سكرتيرًا للمجلس الإسلامي الأعلى ومديرًا للأوقاف الإسلامية، وظل عضوًا في مؤتمرات فلسطين وفي لجانها التنفيذية وسكرتيرًا لها، وكان سكرتيرًا للوفود الفلسطينية إلى لندن في سِنِيّ **١٩٣١ ـ ١٩٣٩**، وكان ذكيًّا قوي الشخصية قويًّا صلبًا في المواقف الوطنية، وإن كان يؤخذ عليه أحيانًا شيء من التناقض، فيكون صلبًا قويًّا حينًا وضعيفًا مسايرًا للواقعية حينًا، ومما كان من ذلك أثناء دعوتنا إلى عدم التعاون مع الحكومة الانتدابية أثناء اشتداد تدفق الهجرة اليهودية، وطلبنا من أعضاء اللجان الحكومية الاستقالة فقال في نوبة انفعال، وكان عضوًا في اللجنة الزراعية: إنه يفضل لمصلحة الشعب البقاء في هذه اللجنة على عضوية اللجنة التنفيذية، وبعد بضعة أسابيع كان من الذين اقترحوا القيام بمظاهرات غير مرخصة احتجاجًا على تلك الحكومة بسبب استمرارها في سياسة الهجرة الدافقة.

على أن من الحق أن يسجَّل أنه كان على كل حال غير مساير في

الأمور الجوهرية، وكان يحسن الكلام والخطابة، وقد تمرس بالقضية وأبعادها حتى صار من أقطابها، ولما تألفت الأحزاب في سنتي **١٩٣٣ ـ ١٩٣٤** ألَّف مع زملاء كثيرين له من الوطنيين وبمساعدة وتأييد الحاج أمين الحسيني «الحزب العربي» الذي كان جل أعضائه ومؤيديه أنصار الحاج أمين الكثيرين في المدن والقرى الذين كانوا يُعْرَفون بالمجلسيين، وكان هذا الحزب شعبيًّا أو جماهيريًّا خلافًا لحزب الاستقلال والأحزاب الأخرى، وقد اعتقل وحوكم مع من اعتُقِلوا وحوكموا بسبب مظاهرة يافا في سنة **١٩٣٣** غير المرخصة التي اصطدم المتظاهرون فيها مع البوليس والدرك الإنكليزي، وقُتل وجرح فيها كثيرون من العرب والبوليس والدرك، وحينما أُعلن الإضراب العام سنة **١٩٣٦** وتألفت اللجنة العربية العليا كان عضوًا فيها يمثل حزبه، وكان من أعضائها الأقوياء، وحينما توتر الموقف في خريف **١٩٣٧** وقتل حاكم الناصرة، وبدرت بوادر اندلاع الثورة من جديد، واعتقلت السلطات بعض أعضاء اللجنة العليا، ونفتهم إلى جزيرة سيشيل، كان هو في فلسطين، ولكنه اختبأ ثم استطاع أن يفلت ويخرج والتقينا به في سوريا ولبنان، وكنت أنا قد خرجتُ وحظرتِ السلطات عودتي، فأقمت في سوريا، وكان الحاج أمين قد استطاع أن يفلت من حصار الإنكليز ويأتي إلى لبنان، وتعاونّا باسم اللجنة العربية العليا التي كانت قد اقتصرت علينا نحن الثلاثة، وقد كان يبذل جهوده الناجحة لتدبير بعض المال لتمويل الثورة التي اندلعت بعد قليل من

خروجنا وتأججت واستمرت نحو سنتين، وكنا جميعًا في سوريا ولبنان وراء تأجيجها.

ولقد كانت الثورة ضد قرار الحكومة الإنكليزية بإنشاء دولة يهودية في فلسطين وضم باقيها إلى الأردن حسب توصية اللجنة الملكية، ولكن قوة الثورة أرغمت هذه الحكومة على إعلان إلغاء القرار والدعوة إلى عقد مؤتمر في لندن سنة **١٩٣٩** يشترك فيه الفلسطينيون وحكومات مصر والعراق والأردن والسعودية واليمن، وكان جمال سكرتيرًا للوفد الفلسطيني، وكان موقفه قويًّا صلبًا بالإصرار على منع الهجرة وبيع الأرض لليهود، وإنشاء حكم وطني مستقل بأكثرية عربية، وقد أصدرت الحكومة الإنكليزية كتابًا أبيض على أثر المؤتمر استجابت فيه إلى هذه المطالب، ثم لم تلبث الحرب أن نشبت فتغير مجرى التاريخ.

وبعد نشوب الحرب العالمية الثانية اضطر الحاج أمين الحسيني لمغادرة لبنان إلى العراق، وذهب هو بدوره إلى العراق، ولما نشبت ثورة رشيد عالي الكيلاني والجيش العراقي ضد الإنكليز اندمج الفلسطينيون فيها، ولقد استطاع الإنكليز التغلب على الثورة، وطورد الفلسطينيون واعتُقِل كثير منهم وفر كثير منهم، وكان جمال من المُعْتَقَلِين، وقد نفته الحكومة البريطانية إلى روديسيا مع آخرين حيث بقي نحو سنتين، ثم أُطلق سراحه وعاد إلى فلسطين واستُقبل استقبالًا حافلًا، وترشح لملء فراغ زعامة الحركة الوطنية، لأن الحاج أمين كان إذ ذاك قد استطاع الإفلات من مطاردة الإنكليز والذهاب إلى

أوروبا، ولكنه لم يستطع أن يبرز كزعيم شعبي محبوب مثل الحاج أمين وموسى كاظم حيث كان ينقصه ما كان في الزعيمين وما تقتضيه الزعامة من ليونة وأناة وتحمُّل، وكان فيه إلى هذا شيء من النشوفة أو الجفاف.

وقد نشط مع الناشطين من زعماء الأحزاب الذين كانوا سبقوه في العودة إلى فلسطين في تحريك القضية الوطنية، وقام بين الزعماء خلاف فتدخلت جامعة الدول العربية وسوت الخلاف، ونتج عن ذلك نشوء الهيئة العربية العليا، وكان يمثل هو وإميل الغوري الحزب العربي فيها، وكان سكرتيرها، وظل على ذلك بعد أن عاد الحاج أمين من أوروبا واستلم رئاسة اللجنة، وقد قررت اللجنة بعد قدومه توسيع نطاقها فضمتني إليها مع رفيق التميمي ومعين الماضي وإسحق درويش والشيخ حسن أبو السعود، وظل هو سكرتيرًا لها وتعاونّا معًا لفترة ما في نطاقها، ومثَّل جمال اللجنة أمام لجنة تقصي الحقائق الأميركية الإنكليزية سنة **١٩٤٧** وأمام الهيئة العامة لجمعية الأمم سنتي **١٩٤٧ ـ ١٩٤٨** وأمام مجلس الأمن، وكانت مواقفه قوية منطلقة من الحق العربي والميثاق العربي.

وبعد النكبة ذهب إلى الرياض وصار مستشارًا للملك عبد العزيز ثم لابنه الملك سعود، وساعد مع رشيد عالي الكيلاني الذي كان هو الآخر في الرياض سنتي **١٩٥٣ ـ ١٩٥٤** على تحريك الكفاح المسلح الفلسطيني لفترة من الوقت، وظل عند الملك سعود وزيرًا أو مستشارًا، ولما خَلَعَ الأميرُ فيصل أخاه سعودًا وحل محله ثم مات

سعود تجهَّم العهدُ الجديد لجمال، فترك الرياض في أواخر الستينات وأقام في بيروت وأنشأ مكتبًا تجاريًّا يباشر عبره أعماله، وتوفي فيها في **١٩٨٢** رحمه الله، وبقي محتفظًا بصفاء ذهنه، وكان آخر عهدي به زيارة زارني فيها في دمشق في عام **١٩٦٥** ولقد تعاونّا دائمًا عبر المؤتمرات واللجان واللقاءات الوطنية، وقامت بيننا ألفة ومودة وإن لم تصل إلى صداقة حميمة. **١/ ٥١٣**



٩

جميل مردم بك

من أركان جمعية الفتاة، وصار له اسم مثير بارز في التاريخ العربي المعاصر وبخاصة في التاريخ السوري.

ومما سمعته أنه درس بعض الوقت في الآستانة ثم ذهب للدراسة في باريس، ولقد كان شابًّا ذكيًّا ذا طموح ومرونة، ويحسن الخروج والولوج في مختلف المواقف، وقد رأيته لأول مرة في الاجتماع العام في بيته، وكان ينسب إليه عارفوه أنه يحب البروز والوصول بأي وسيلة، وكان على ما يظهر يكثر الكلام الحماسي عن العروبة وحقوق العرب، فقررت الجمعية ضمه إليها وصار من أعضائها القدماء حينما كان في باريس، والغالب أن الفرنسيين عرفوا طموح جميل ورغبته في البروز، فأرادوا استغلال ذلك وحمله على تأييدهم أمام مجلس السلم أو إنكار حق فيصل في الكلام عن سوريا، فسارع محمد رستم حيدر وعوني عبد الهادي، وهما من الفتاة، وهما اللذان ضما جميلًا لها وكانا مع فيصل، إلى تنبيهه ومنعه، ولقد كانت هذه الصفات بادية في سلوكه في أثناء عهد فيصل يلمحها أكثر إخوانه في الجمعية وغيرهم، مضافًا إليها روح أو نعرة إقليمية، وكان من أثر ذلك اندماجه مع [علي رضا] الركابي في إسقاط هيئتنا المركزية ليصير عضوًا في الهيئة وأمينًا لصندوقها، وكان من أثر [ذلك] أيضًا اندماجه في حركة الحزب الوطني السوري، الذي كان في الحقيقة حزبًا شاميًّا أو دمشقيًّا ضد

العراقيين والفلسطينيين البارزين في عهد فيصل، الذين كانوا يسمونهم أغرابًا، ويتذمرون من بروزهم ونشاطهم وأثرهم في العهد الفيصلي، وكان هذا مما منع توطد صداقة حميمة وثقة بيننا كتلك التي كانت بيني وبين شكري القوتلي وأحمد مريود والأمير بهجة الشهابي وغيرهم.

ولقد كان في عهدته مبلغ كبير من المال للفتاة في آخر عهد فيصل، وجاءه الأعضاء يطلبون منه شيئًا منه لاضطرارهم إلى مغادرة دمشق وضيق يدهم، وكنت أنا من الجملة، فأعطى هذا عشرين وهذا ثلاثين وهذا أربعين جنيهًا، وأخذت أنا أربعين، ومن المحتمل أن يكون ما وزعه آنئذ ألفي جنيه، وإن كنت أرجح أنه بقي معه شيء من المال، وسمعت أنه يقول: إنه أنفق ما كان لديه على أعضاء الجمعية بعد خروجهم أيضًا، والله أعلم.

وحينما اشتدت الحركة الوطنية السورية وانفجرت ثورتها في سنة **١٩٢٥** اندمج في هذه الحركة وصار من أبرز رجالها، وظل بارزًا بعدها في مجال الحكم، فصار وزيرًا في وزارة حقي العظم **١٩٣٢** الذي لم يكن مستقيمًا في الخط الوطني، ثم صار رئيس وزارة الحكم الاستقلالي الأول سنة **١٩٣٦** برئاسة هاشم الأتاسي، وصار وزير الخارجية في الحكم الاستقلالي الثاني سنة **١٩٤٣** ولرئاسة الوزارة برئاسة شكري القوتلي، وكان سلوكه في ظل هذه المناصب مشوبًا بتلك الصفات على ما كان يقوله إخوانه، وعلى ما كان يلمس من أعماله وأقواله، وكان ذلك يؤدي إلى نشوب خلافات ومشادات بينه

وبين أولئك الإخوان، والقوتلي استقال من الوزارة في سنة **١٩٣٩** نتيجة لذلك.

وإذا لم يكن بيني وبينه صداقة حميمة فإني أقول: إنه لم يكن بيني وبينه جفاء أو عدم مودة واستلطاف كما كان الشأن بيني وبين الركابي، وكنت ألقى منه ترحيبًا وتعضيدًا في المطالب العائدة للحركة الفلسطينية والثورة الفلسطينية أثناء ثورة **١٩٣٧ ـ ١٩٣٩** التي توليت تأجيجها من دمشق، وكنا كلما التقينا في عهد فيصل أو في إبان إقامتي في سوريا قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها يكون اللقاء وديًّا وحارًّا وأخويًّا كزملاء في الجمعية وزملاء في النشاط والأهداف والحركات الوطنية والقومية، ولقد ماتت أم زهير وهو رئيس الوزارة في سنة **١٩٣٨** فاشترك في الصلاة عليها وتشييع جنازتها مع إخوان كرام: [شكري] القوتلي و[كامل] القصاب و[سعد الله] الجابري وغيرهم، وقد اتُّهم مع سعد الله الجابري باغتيال الدكتور [عبد الرحمن] الشهبندر الذي كان معارضًا لعهده وعهد إخوانه في سنة **١٩٣٦ ـ ١٩٣٩** ففر إلى بغداد وبقي فيها إلى أن ثبتت براءته، فعاد واندمج في حركة الاستقلال الجديدة **١٩٤٣**، وقد ترأس الوزارة على أثر وفاة سعد الله الجابري وبعدها، وكان آخر عهدي به أواخر الخمسينات وقبيل الانقلاب الذي قام به حسني الزعيم ضد شكري القوتلي، ثم خرج [إلى مصر] في أوائل الخمسينات ولم يعد إلى دمشق، وتوفي في مصر في أواخر الخمسينات، رحمة الله عليه. ١/ ٣٦٨

١٠

حسن أبو السعود

كان شابًّا نشيطًا ذكيًّا ذلق اللسان يحسن الخطابة، ولا بأس في معارفه التاريخية والأدبية، وقَوِيَ مع الزمن في العلوم الدينية والفقهية والشؤون التاريخية والاجتماعية أيضًا، وكان من أقوى أعضاء ومساعدي الحاج أمين الحسيني، وقد تصادقنا وتواثقنا ولكن صداقتنا لم تكن حميمة دافئة كما كانت مع إسحق [درويش]، وقد تعاونا في مختلف المواقف والمناسبات والظروف، ولما كبر وقام المجلس الإسلامي الأعلى صار مفتيًا للشافعية في القدس، ثم صار مفتشًا للمحاكم الشرعية، وكان مستقيم السيرة وطاهر اليد، ولما خرج الحاج أمين من فلسطين سنة ١٩٣٧ إلى لبنان انضم إليه ولازمه وذهب معه إلى العراق، ولما تفرق الشمل جاء إلى دمشق وذهبنا معًا إلى تركيا، ولما ذهب الحاج أمين إلى أوروبا انضم إليه، ثم عاد إلى مصر حينما عاد الحاج أمين وصار عضوًا في الهيئة العربية العليا، ولما خرج الحاج أمين من مصر إلى بيروت جاء معه وظل إلى جانبه إلى أن توفي في سنة ١٩٦٠، وظل على خطه الوطني القومي الاستقلالي الإسلامي مع تأييده القوي للحاج أمين إلى أن مات رحمة الله.

١/ ٣٣٥





حسن خيتو «أبو بكري»

التقيته عند اعتقالي من قبل سلطات الأمن في سوريا عقب إعلان الحرب، [وهو] من الذين تعرفت عليهم وحسنت معاشرتي معهم، وهو من دوما، وهو وكيل لفخري البارودي في مزرعته، فلما أخذت الحالة تتوتر بين الكتلة والفرنسيين وقامت المظاهرات واستقالت حكومة جميل مردم واعتقل نبيه العظمة ورفاقه، كبست مزرعة فخري لإخبارية وصلت إلى الفرنسيين بأن فيها سلاحًا ووجد فيها بندقية فألقي القبض على أبي بكري هذا وعلى مستأجر المزرعة، وحاول الفرنسيون أن يحملوا أبا بكري على القول بأن البندقية لفخري وهددوه بحكم شديد إذا لم يقل ذلك، ولكنه أبى وأصر على القول: إنها ليست لفخري، وأنه لا يعرف كيف وضعت في المزرعة، وأنه يعتقد أن ذلك اصطناع للضرر به وبفخري، وقد حكمت المحكمة عليه بالسجن سنتين، وحكمت على مستأجر المزرعة الذي كان يسكن المنزل الذي وجدت فيه البندقية بتسعة أشهر، وقد أحس فخري بالخطر فاستطاع أن يغادر دمشق إلى شرق الأردن، وقد رأينا في هذا الرجل طيبة وحسن خلق وعقل. ٣/ ٨٨٤



حسن دركل

أتى بعد أيام قليلة من انتقالنا إلى العنبر وهو من محكومي قضية نبيه العظمة، وكان في عنبر داخلي، وهو من أعضاء جماعة جميل [مردم] والملتفين حوله، وكان إمامًا في مسجد عمارة المشيرية التي كانت مركزًا للمندوبية الفرنسية، والوظيفة من عهد الدولة العثمانية، لأن هذه العمارة كانت مركز قيادة فيلق دمشق، فظلت الوظيفة مستمرة تقليديًّا، وهو ليس عالم دين وإنما قارئ جيد للقرآن، ولعله يعرف شيئًا من الفقه وأمور الدين، وكان عطارًا وهو ذو حركة ونشاط في أوساط العطارين، وضعفت حالته المالية فاندمج في الحركة الوطنية والتف حول الكتلة وخاصة حول جميل فعينه هذا إمامًا للمسجد التقليدي.
٣/ ٩٠٧



١٣

سعد الله الجابري

كان شابًّا ذكيًّا نشيطًا ألمعيًّا قوميًّا وحدويًّا استقلاليًّا صلبًا جريئًا خفيف الروح بارع النكتة، وكان يهتم كثيرًا بأناقته ونظافته وطهارته إلى حد الوسوسة، وكان مدققًا كثيرًا في الرسميات ومقتضياتها، وكان يقدرني ويعجب ببروزي ونشاطي، وكان يمازحني فيسميني طلعت باشا (وطلعت باشا هذا كان من أبرز رجال الحكم الاتحادي التركي، وكان من أركان جمعية الاتحاد والترقي صاحبة العهد، وكان في شبابه موظفًا في دائرة البرق والبريد مثلي، ومن هنا ومن كوني كنت من أركان جمعية الفتاة حزب العهد الفيصلي كانت تلك التسمية) ولقد أهّلَتْهُ صفاته للبروز في الحركة الوطنية حينما أخذت تقوم وتشتد بعد الاحتلال الفرنسي، وصارت له زعامة حلب، وكان من أبرز أعضاء الكتلة الوطنية وأصلبهم، ثم أهلته ليكون وزيرًا للداخلية والخارجية معًا في عهد معاهدة الاستقلال سنة **١٩٣٦ ـ ١٩٣٨** ثم رئيسًا للوزارة في عهد الاستقلال الثاني الذي كان برئاسة شكري القوتلي سنة **١٩٤٤** ثم رئيسًا لمجلس النواب في سنة **١٩٤٩**.

ولقد جئت دمشق سنة **١٩٣٢** ثم في سنة **١٩٣٧** زائرًا، ثم في سنة **١٩٣٧** مقيمًا فكانت صداقتنا تتجدد، ولقيت منه أثناء وزارته في جمهورية الأتاسي كل مودة ورعاية واهتمام، وكنت مضطلعًا بمسؤولية تأجيج الثورة في فلسطين.

وقبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية نقضت فرنسا المعاهدة الاستقلالية فاستقالت الوزارة، وبعد قليل اغتيل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الذي كان معارضًا للعهد والوزارة، فاتهم بتدبير اغتياله مع جميل مردم بك ولطفي الحفار، ففروا إلى العراق حيث أقاموا إلى أن جرت المحاكمة وثبتت براءتهم، وبعد قليل قام عهد جمهورية شكري القوتلي فكان من أركانها، وكنت قد لجأت إلى تركيا حينما غزا الإنكليز مع الديغوليين [سوريا]، ولما انتهت الحرب عدت وعهد القوتلي ووزارة سعد الله قائمة فلقيت منه ما قد اعتدته من محبة وود، واعتمدني في توزيع بعض المساعدات على بعض رجالات ثورة فلسطين، وظلت صلات الود قائمة إلى أن توفي سنة **١٩٤٧** وقد ذهبت إلى حلب واشتركت مع أصدقائه ورفاقه، والجماهير الباكية عليه في موكب جنازته العظيم رحمة الله عليه. **١/ ٣٥٣**





١٤
سعيد باشا المحمد عبد الهادي

من جنين، له البروز والنفوذ والثراء والصولة في قضاء جنين.
وكان قوي النفوذ والإقطاعية، وكانت أبوابه مفتوحة للقادمين والرائحين، فكان ذلك مما أسبغ عليه اسمًا وصيتًا وسواغًا [قبولًا].
١/ ١٢٤



١٥

سعيد حيدر

خريج مدرسة الحقوق العثمانية، وكان ذكيًّا متتبعًا للدراسات الحقوقية وغير الحقوقية، ومجادلًا عنيدًا وصلبًا في وحدويته وعروبته واستقلاليته، وجريئًا على قول ما يراه حقًّا وثابتًا عليه، وكان يبدو كأنه جبار، ولقد كان ـ بدون قصد انتقاص ـ أعور ومقطوع أحد ساقيه يمشي على رجل اصطناعية ويعرج، فكاد يصدق عليه المثل: «كل ذي عاهة جبار» وقد توثقت صلتي به في نطاق المؤتمر، ثم في نطاق جمعية الفتاة التي كان عضوًا من أعضائها القدماء، وصارت [بيننا] صداقة حميمة، وأعجب كل منا بصاحبه رغم ما كنت عليه من لين ومرونة وما كان عليه من صلابة وقسوة في الجدل، وتعاونت معه في نطاق المؤتمر وفي نطاق لجنة وضع دستور المملكة السورية، وتزاملنا في الهيئة المركزية لجمعية الفتاة، وقد افترقنا في آخر عهد فيصل، حيث ذهب هو بقرار من الجمعية إلى الآستانة قبل غزو غورو لسوريا لطلب العون من تركيا، وبقي هناك بسبب وقوع هذا الغزو، وعدت أنا إلى فلسطين، ثم التقينا ثانية حينما عدت إلى دمشق مقيمًا في سنة ١٩٣٧ وافترقنا ثانية حيث لجأت إلى تركيا، ولما عدت التقيت به وكان محتفظًا بكل مزاياه وروحه القوية الجدلية والعلمية، وجددنا عهد الصداقة، وظللنا نحتفظ بها ونتزاور ونتبادل الحديث في مختلف الشؤون إلى أن وافاه أجله في أواخر الخمسينات رحمة الله عليه. ١/ ٣٥٣

١٦

سيف الدين المأمون

التقيته للمرة الأولى في مؤتمر بلودان وهو حموي، درس الحقوق وذهب إلى فرنسة فنال درجة دكتوراه من إحدى جامعاتها، وهو ذكي حسن الحديث والثقافة، وكان محاميًا لامعًا ناجحًا. وقد اندمج في عهد الاستقلال السوري الأول في سنة ١٩٣٦ ثم كان من الشباب المتحمسين الذين انبروا لمناوأة السلطة الإفرنسية حينما راوغت ونقضت معاهدة الاستقلال وأعادت الانتداب الاستعماري، ثم اعتقلته في جملة من اعتقلتهم من مناوئيها.

والتقيته في سجن القلعة حيث كنت مسجونًا بحكم محكمة إفرنسية. وقضينا في قاعة واحدة من قاعات هذا السجن بضعة أسابيع انسجمنا فيها. ولما أُفرج عنا لجأت إلى تركيا وبقي هو ينشط، وصاهر نبيه العظمة. ولما عدت التقيت به فتجدد عهد مودتنا، ثم تردت صحته ولم يعد بيننا ما كان من لقاء وتواد، إلى أن توفاه الله في أواخر الخمسينات على ما يرد لذهني، رحمة الله عليه. ٣/ ١٧

عرفته في مؤتمر بلودان، وهو دكتور حقوق من باريس ومحام ناجح وخطيب وذكي، وقد اشتغل بالحركة الوطنية مع الكتلة، وألف كتلة من الشباب باسم الشباب الوطني واشتغل فيها، واشتغل بتشكيل فرق الحرس الحديدي، وكانت قامت قبل الحكومة الكتلوية وقوي بناؤها في أوائل عهده، وكان لها لباس خاص (أسمر) وانضوى فيها

عدد كبير من الشباب المثقفين وغير المثقفين، وكانت تدرب تدريبًا شبه عسكري، وهي على الأرجح تدريب لفرق القمصان السود التي أنشأها موسوليني، وفرق الحرس الحديدي التي أنشأها هتلر في أوائل الثلاثينات، وكان لها تحية في اليد مثل تحية تلك الفرق للدوتشي موسوليني والفهرر هتلر، وبلغ عدد المنتسبين إليها نحو ثلاثة آلاف، وتجاوزت دمشق إلى مدن أخرى ويظهر أنها لم تُغَذَّ تغذية كافية من جهة وكان أساسها غير قائم على نظام وطيد وقلب سليم وإيمان بفكرة من جهة أخرى، فأخذ يدب فيها التشويش والفوضى وتقل العناية بها حتى صارت إلى الانحلال في السنة الأولى من عهد حكومة الكتلة، وكثرت الشكايات منها ومن بعض رفاقها لأنهم اغتروا وصاروا يرون لهم حقًّا على الحكومة، ويحاولون الاستناد إلى فرقهم في بعض مواقفهم ومطالبهم، ولا أعرف موقف الدكتور المأمون مما جرى، لأني لم أكن قد جئت إلى دمشق من فلسطين، وعلى كل فإن صلة الدكتور بالكتلة كانت وثيقة، وكان من دعاتها وخطبائها إلى أن اعتقل، وكان اعتقاله بسبب هذه الصلة، ولما عرف عنه من النشاط والصلابة الوطنية، وهو كما قلت ذكي سليم المنطق، ولكنه سريع العصبية والتأثر والاعتداد بالنفس والتمسك بآرائه وفرضها، ومن الحق أن أذكر أنه لم يحاول أن يدل علي بشيء من صفاته هذه، بل حاول كثيرًا أن يظهر لي حسن رعايته وتقديره، ولحظت أنه كان مخلصًا في ذلك، وتوثقت بيني وبينه صلة صداقة، وكنت أحدثه بما كتبت من مواضيع، وبخاصة كتاب «تعاليم القرآن» أو: «الدستور القرآني» فيما

بعد، وكان مبتهجًا ومشجعًا، ويقول: إن المسلمين في حاجة إلى مثل هذا الكتاب الذي يشرح لهم الإسلام الصحيح، وما منحه الإسلام للناس عامة والمسلمين خاصة من حقوق وحرية وأوجه من واجبات أقوى وأوسع مما يعرفه ويعتد به الغرب، واستمرت الصداقة بيننا إلى ما بعد السجن، وتزوج بنت نبيه العظمة، وتوفي في الخمسينات، رحمة الله عليه. **٣/ ٩٠٧**





شفيق سليمان

كان ينشط مع الشباب الوطني في العشرينات والثلاثينات والأربعينات في الحركة الوطنية، وهو ذكي لبق ذو حركة مع تحفظ، وأظن أنه من جماعة عصبة العمل القومي والنادي العربي، والتقينا به إبان وجودنا في سوريا [سنة] ١٩٣٧ وبعدها، وكان يشتغل في المحاماة وتعاونّا معه، وقد ظل مستقيم الخط الوطني إلى أن وافاه الأجل في السبعينات رحمة الله عليه. ٣/ ٢٠٧



١٨

شكري القوتلي

كان شابًّا رصينًا جادًّا ومستقيمًا وصلبًا يبعث في النفس الطمأنينة والدفء، وكان حسن الثقافة، وكان ميسورًا حيث كان له ولأخوته وأسرته ضيعة كثيرة الشجر وبخاصة المشمش، وقد تزاملتُ معه في عضوية الهيئة المركزية للجمعية دورتين، فلم ألمح فيه إلا الاستقامة والصلابة وحسن الفهم وصدق الموقف، وكنا متواثِقَين منسجِمَين في مختلف شؤون الجمعية والعهد ولم نكد نختلف في أمر وموقف، وكان يعد من عناصر الجمعية القوية الرصينة الجادة.

وقد أخبرني والدي أنه جاء ـ بعد خروجي من دمشق حينما تحركت فرنسة لغزوها ـ إلى بيتنا وطمأنه وطمأن الأسرة،وأعطاه عشرين ليرة ذهبية للاستعانة بها على الحياة إلى أن يلتحقوا بي، ولقد جاء إلى فلسطين في ظروف الثورة الني اندلعت سنة ١٩٢٥ وأقام بضع سنين يبذل جهده ونشاطه في سبيل قضية سوريا وثورتها، وكان له جهد ونشاط عظيمان، وتجددت في هذه المناسبة صداقتنا ومودتنا وتعاوننا، واشترى أرضًا في بستان لتشجيرها، وصار في شيء من الضيق فأعطيته أربعين جنيهًا، وقد ألح على أن يعتبره قرضًا وأن يسدده وقد سايرته وقد فعل، وأنشأ في فترة وجوده في دمشق شركة الكونسروة التي نجحت نجاحًا حسنًا، وطلب مني أن أجمع الناس في مدرسة النجاح ليحدثهم عنها ويدعوهم إلى المساهمة فيها، ففعلت

وشاركته في الحث، واستطعنا أن نحمل عددًا من الناس على الاكتتاب فيها.

ولقد أكسبته صفاته ثقة إخوانه وغيرهم وجعلته أثيرًا لدى الملك عبد العزيز آل سعود، حتى علمت أنه كان يقول: إن القوتلي نسيج وحده في الزهد وعدم استغلال صداقتي له أو قربه مني أو عدم ابتغاء شيء لنفسه، وحصر اهتمامه بشؤون إخوانه وقضية بلاده، مع أن معظم من جاؤوا إليه كانوا يهتمون أيضًا لأنفسهم، ويجتهدون للحصول على منافع ومكاسب وأموال.

وقد كان مهتمًا بقضية فلسطين اهتمامًا كبيرًا، وشهد ما كان يعقد من اجتماعات عامة إسلامية وعربية من أجلها، وكان من المحبذين لإنشاء حزب الاستقلال، واهتم لعقد المؤتمر العربي الذي قررنا عقده، وحينما تم التعاهد والتعاقد على الاستقلال والسيادة السورية بين الكتلة الوطنية وفرنسة ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ كان في فلسطين، فعاد منها إلى دمشق وذهبنا فورًا إلى الحدود لوداعه، وجاء جمع كبير من دمشق فاستقبلوه على الحدود وكانت فرصة لنا التقينا فيها بكثير من شباب ورجال الحركة الوطنية السورية، ولقد قامت نتيجة لذلك جمهورية برئاسة هاشم الأتاسي، فعهد إليه في حكومتها بوزارتي المالية والدفاع، فكان فيها مثال رجل الدولة القوي الأمين.

ولما جئت إلى سوريا زائرًا سنة ١٩٣٧ ثم مقيمًا تجددت صداقتنا وتواثقنا، وكان يبذل جهده في تلبية طلبي وتأييد نشاطي في مجال

الثورة الفلسطينية التي كنت أقوم على تدبيرها، كما كان يهتم بشؤوني الخاصة بروح الصديق الوفي، وكنا نرى بعضنا دائمًا رغم مشاغله في الحكم، حيث كان يلح علي بأن أديم زيارتي له في بيته وصرت موضع سره واستشارته في مختلف الشؤون الخاصة والعامة، وقد أحسن مواساتي حينما توفيت أم زهير رحمة الله عليها [سنة] ١٩٣٨ فجاء إلى المستشفى ثم اشترك في التشييع وأرسل للبيت طعامًا، وكان ينتقد جميل مردم بك رئيس الوزارة ويشكو لي من بعض تصرفاته، واختلف معه في مسائل مهمة فجاء إلى بيتي وأفضى لي بهمومه ورغبته في الاستقالة، فأيدته في موقفه لأني كنت أتابع الأحداث وأعرف صدق شكواه، وطلب مني أن أكتب له كتاب الاستقالة، ونصحته أن يكون مختصرًا حتى لا تشتد الحالة سوءًا بين الأخوين، فأخذ بنصيحتي، وبعد أن استقال ظل قوي المركز والنشاط خارج الحكم، وأكسبته استقالته ثقة الناس وإعجابهم، وأهلته للزعامة الوطنية الشعبية حينما نكثت فرنسة في عهدها وألغت المعاهدة في سنة ١٩٣٩ وأخذت تقوم حركة وطنية مناوئة مقاومة، وأوصلته زعامته هذه إلى رئاسة الجمهورية حينما اضطرت فرنسا أثناء الحرب إلى منح سوريا استقلالها والموافقة على قيام جمهورية سوريا.

وفي ظروف زعامته احتاج إلى بعض المال، وكان تحت يدي مال من الإعانات التي كانت تأتي للثورة الفلسطينية، فأعطيته ألفي ليرة لأني رأيت ذلك جزءًا من الثورة والعمل الوطني، وبعد قليل اعتقلتني

السلطات الفرنسية وحكمت علي، فكان شديد الاهتمام بأمري والتطمين لأسرتي.

ولما هزمت فرنسا في سنة ١٩٤١ كان لمساعيه أثر في إطلاق سراحي مع رجالات سوريا السياسيين المعتقلين ولقد قضيت بعد خروجي من السجن بضعة أشهر، وكانت زعامته الوطنية قد توطدت، وكان اللقاء بيني وبينه متواصلًا نتحدث ونتشاور في مختلف الأحداث الجارية، ورأى في سياق الأحداث أن يسافر إلى بيروت للالتقاء برجالاتها، فألح علي بمرافقته وكنت رفيقًا وشريكًا له في ما كان من اجتماعاته معهم، ولقد اضطررت بعد ذلك إلى الخروج من سوريا بسبب الغزوة الإنكليزية الديغولية واللجوء إلى تركيا، فافترقنا بضع سنين كان خلالها مهتمًا بعائلتي التي بقيت في دمشق، كما اهتم بشؤون ومصير ولدي زهير الذي كان في بغداد بعد ثورة رشيد عالي وفي هذه الأثناء صار رئيسًا للجمهورية فأرسل إلينا تطمينًا، ولما انتهت الحرب وعزمنا على العودة أمر بأن يوعز للقنصل المصري في الآستانة الذي كان يقوم بأعمال القنصلية السورية بمنحي مع أخي محمد علي وابني زهير ورفيقنا أكرم زعيتر إشارة دخول إلى سوريا، ولما عدت عادت صلاتنا وصداقتنا إلى عهدها السابق، وكان لا يمضي يومان حتى يستدعيني إلى قصر الجمهورية وإلى بيته ليفضي لي بهمومه ويستشيرني، ولم يكن يقيم وليمة لعربي سياسي أو غير سياسي إلا ويدعوني ويقربني من مجلسه، حتى عرف جميع الناس عبر كل هذا أني أوثق إخوانه به صداقة ومحبة وانسجامًا، وقد تبرع بنفقة أول

كتاب طبعته بعد عودتي من تركيا وهو «عصر النبي ﷺ وبيئته قبل الإسلام»، واستجاب لرغبتي في الاهتمام لبعض رجال الثورة والحركة الوطنية الفلسطينية الذين كانوا في دمشق، وأمر بتخصيص بعض المبالغ لهم واعتمدت في توزيعها.

ولما قام حسني الزعيم بانقلابه ضده واعتقله أرسل إلي من معتقله رسالة يستشيرني فيها في تلبية طلب حسني الزعيم بالاستقالة رسميًّا من رئاسة الجمهورية حتى يطلق سراحه، فأرسلت إليه أنصحه بألَّا يفعل وأخبرته بما علمت من اهتمام حكومة مصر وملكها وحكومة السعودية وملكها بأمره والاحتمال الكبير بإطلاقه نتيجة لذلك، غير أنه إزاء تأزم الوضع وإصرار زعيم الانقلاب فقد كتب استقالته في سطرين وجهها إلى الشعب، وسمح له بالسفر إلى مصر واستمرت الصلة بيني وبينه وهو في مصر، وكنا نتبادل الرسائل في الشؤون العربية ولما عاد سنة ١٩٥٤ عادت صلاتي إلى حالتها الحميمة ثانية، ولما عاد لرئاسة الجمهورية في عهد سنة ١٩٥٥ استمرت صلاتنا وصداقتنا على نفس الوتيرة، وكنت ألح عليه في أمر الوحدة بين سوريا ومصر إلحاحًا شديدًا ومتواصلًا اغتنامًا لفرصة وجوده في الحكم ووجود جمال عبد الناصر الذي انعقد بينهما أواصر صداقة وانسجام، وكان يتكلم كثيرًا في أمر الوحدة العربية، وكان يتجاوب معي ويطلب أن أكتب له المقترحات والمشاريع الوحدوية ليتحدث فيها مع جمال، وأقدمها له ويتبناها ويقدمها في مذكرات منه إلى أن نضج الأمر بتأثير عوامل عديدة أخرى، وتمت الوحدة السورية المصرية في شباط [عام] ١٩٥٨

فكان سرورنا عظيمًا، وكان ثنائي عليه وثناء الناس عظيمًا، منوهين بأنه أول رجل عربي ذي رئاسة موطدة يتخلى عنها في سبيل الوحدة، وبما ضربه بذلك من مثل خالد، وقد جمعنا وفدًا من جمعية الفتاة وذهبنا إليه فهنأناه بهذا الموقف العظيم الذي فيه إحياء وتحقيق للمبادئ التي اعتنقناها منذ شبابنا الأول، وأخذنا منه صورًا تذكارية أوقفني فيها إلى جانبه، وكان سرور الفلسطينيين عظيمًا لأنهم اعتبروا ذلك خطوة على طريق تحرير وطنهم وذهبنا وفدًا كبيرًا إليه مهنئين منوهين مستبشرين، وأخذت لنا معه صورة تذكارية أخرى.

وظلت صِلاتنا على حالتها الحميمة يزورني وأزوره، وأرسل بواسطته المذكرات والاقتراحات لجمال عبد الناصر ويرسل لي جوابات هذا المشجعة، وظل الأمر على ذلك إلى أن وقع الانفصال المشؤوم في ٢٨ أيلول ١٩٦١ وكان هو في أوروبا فصدر منه ما يفيد تأييد الانفصال، وفعل كذلك حينما عاد إلى دمشق حيث ألقى في التلفزيون خطابًا، وزرته وعاتبته فأخذ يشكو لي من شيوعية جمال وتصرفات الحكم الخاطئة في التأميم والمصادرة، ولم أكن سمعت منه قبل شيئًا من ذلك، بل كان يحمد جمالًا ويثني عليه، وكان موضع احترام جمال الكبير حتى سماه المواطن الأول، وكان يزوره حالًا حينما يأتي إلى دمشق، وظل على حسن صلة معه إلى أن سافر إلى أوروبا قبل الانفصال، وقد ناقشته في ذلك ولم يكن لديه ما يستطيع إقناعي بصواب موقفه، وقد ذكرت له أنه يفسد بموقفه كل تاريخه، وأنه ينسى أن الإنكليز والأميركان هم وراء هذه الجريمة التي نفذت

بمباشرة من الرجعية العربية العميلة وتعضيد الملك سعود، ولقد حزنت أشد الحزن من موقفه وجعلني حزينًا مكسورًا، وسافر هو إلى بيروت ومرض فيها، وزاره أخي في أثناء سفره لبيروت فسأله عني وكلفه بالسلام علي، ولم يلبث طويلًا حتى توفاه الله في أواخر سنة **١٩٦٧** على ما أظن، وأتي بجثمانه إلى دمشق فاشتركت في موكب تشييعه لمثواه الأخير رحمة الله عليه. **١/ ٣٦٨**



١٩

طه الهاشمي

ضابط أركان حرب في زمن الدولة العثمانية وذو ثقافة عسكرية وغير عسكرية واسعة حتى ليعد من علماء العرب، وكان دمث الأخلاق مع صلابة في المبدأ وجرأة على قول الحق، وهو أخو ياسين ولكن لم يكن له صفات تؤهله للبروز في الزعامة كأخيه، مع التنبيه أنه مثله في الروح القومية، وقد تولى مناصب عسكرية عالية في الجيش العثماني، وبعد انسحاب الأتراك من سوريا جاء إلى دمشق واندمج في نشاط عهد فيصل وتولى بعض المناصب، وقد انسجمنا مع بعضنا وتوطدت صداقة صميمة بيننا، ولما سقط العهد الفيصلي عاد إلى العراق وتولى في عهد الملك فيصل مناصب تنظيمية عالية في الجيش، وصار رئيس أركان القيادة العراقية العامة، وقد التقينا به في زياراتنا لبغداد في سني ١٩٣٣ - ١٩٣٦ - ١٩٣٧ وجددنا عهد الصداقة، ولما تولينا أمر تأجيج ثورة فلسطين في أواخر ١٩٣٧ وبعدها طلبنا منه مدنا بالعتاد فاستجاب، وأرسل إلينا خمسين صندوقًا فيها رصاص للبنادق فكانت لنا أعظم هدية ومدد، ولجأ إلى تركيا في ظروف ثورة رشيد عالي والتقينا به في الآستانة حينما لجأنا بدورنا إلى تركيا، وكنا نتزاور دائمًا وحينما أبعدتنا الحكومة التركية من الآستانة إلى الأناضول سعى لنقلنا إلى بورسا وجاء لزيارتنا فيها، وبعد نهاية

الحرب عدنا إلى دمشق وعاد هو إليها بعد قليل وأقام فيها فتجدد عهد الصداقة والتواد [بيننا].

وقد تولى أثناء التحضير لحرب فلسطين وإعداد جيش الإنقاذ مهمة مستشار عسكري، ونشط نشاطًا مشكورًا في إنشاء مدرسة تدريب الضباط الفلسطينيين وتنظيم المتطوعين وجيش الإنقاذ وتعاونًّا معه تعاونًا وثيقًا في كل ذلك، وبعد النكبة عاد إلى العراق ولم يُقْسَمْ حَظٌّ بلقائه، إلى أن توفاه الله في الستينات رحمة الله عليه، وله بعض المؤلفات العسكرية المفيدة، وقد اتهم بأنه قصر في إمداد الشهيد عبد القادر الحسيني بالسلاح والعتاد، وكان عذره أن الميسور من ذلك قليل، وأنه مضطر إلى التقنين حتى يمكن التوزيع على جميع الفئات المجاهدة من جيش الإنقاذ وفصائل الجهاد المقدس وغيرهما، وأنه لم يكن في استطاعته أن يعطي الشهيد الحسيني كل ما كان يريد، ونحن نعرف أنه لم يكن منسجمًا تمامًا مع الحاج أمين الحسيني الذي كان يريد أن يتولى جميع أمور الحركة الجهادية بصفته رئيس الهيئة العربية العليا لفلسطين، في حين أن الجامعة عهدت بقيادة العمل العسكري لضابط ركن عراقي هو اللواء إسماعيل صفوة، وكان طه يتولى أحيانًا مهام عمله حين غيابه، فكان شيء من الصدام يقع بينه وبين الحاج أمين، وأظن أن لذلك أثرًا في ما اتهم به وحمل أكثر مما هو الواقع.

١/ ٣٦٨



عادل أرسلان

هو أخو الأمير شكيب وأصغر منه ويمكن أن يكون من سني، وكان ذكيًّا ألمعيًّا نشيطًا مقدامًا طموحًا وكاتبًا وشاعرًا، حتى صار الناس يلقبونه بعد اشتراكه في الثورة السورية «أمير السيف والقلم» وكان حاضر البديهة ميَّالًا للتنكيت المرح المقبول، وقد برز مبكرًا حتى إنه انتخب نائبًا للمجلس النيابي العثماني عن جبل لبنان أثناء الحرب، وبعد أن ألغت الحكومة العثمانية امتيازات الجبل وصارت تطبق عليه قوانينها بقي محتفظًا بنيابته إلى آخر حكم الدولة العثمانية، وبعد دخول فيصل الشام جاء إلى دمشق ولم يلبث أن صار من رجال الملك فيصل ومستشارًا من مستشاريه، وكان يرسله في بعض المهام إلى قيادة الحلفاء العامة في فلسطين، وقد تعرفنا به بعد قليل من قدومنا إلى دمشق، وتوثقت الصداقة بيننا واستمرت وثيقة طيلة العهد، وخرج معنا من دمشق حينما غزتها فرنسا وكان ممن حكمت عليهم بالإعدام من رجالات العهد، وفي الكسوة افترقنا ثم ذهب إلى العراق مع بعض رجالات العهد السوريين والعراقيين وذهبنا إلى فلسطين، وبعد مدة دعيت إلى عمان للانضمام إليهم حينما قدم الأمير عبد الله فالتقينا به، وقضينا معًا نحو شهر لأني لم أقم أكثر من ذلك وعدت إلى فلسطين لأمثل نابلس في المؤتمر الرابع وأستلم مديرية مدرسة النجاح، وصار هو من رجال عبد الله ومستشاريه وقد اختلف معه ومع إخوانه الاستقلاليين، فشكاهم عبد الله لأبيه واستدعاهم هذا إلى الحجاز وظلوا شبه منفيين فيها

إلى قبيل سقوط العرش الهاشمي في سنة ١٩٢٤ فذهب من الحجاز إلى مصر وتردد على أوروبا وفلسطين، وكان ينشط مع الناشطين في سبيل القضايا العربية عامة وسوريا خاصة، وكثرت لقاءاتنا في فلسطين.

ولما نشبت ثورة سوريا الكبرى سنة ١٩٢٥ وتولى قيادتها سلطان الأطرش انضم إليها وصار مستشاره السياسي إلى أن توقفت الثورة في سنة ١٩٢٧، فعاد إلى فلسطين وصار يتردد على مصر وأوربا إلى أن تم الاتفاق بين سوريا وفرنسا سنة ١٩٣٦، ذهب إلى دمشق سنة ١٩٣٧ وأخذ ينشط في العهد الجديد دون عمل رسمي.

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية لجأ إلى تركيا لأن الفرنسيين والإنكليز كانوا يطاردون ويعتقلون من يعرفون عداءهم لهم، وكنا نحن أيضًا قد لجأنا إليها، فكثرت لقاءاتنا وتوثقت صداقتنا، وعاد إلى سوريا بعد الحرب وعهد إليه القوتلي بوزارة المعارف وكان عضوًا في الوفد السوري إلى هيئة الأمم المتحدة ١٩٤٧ ولما قام حسني الزعيم بالانقلاب السوري الأول ضد حكم ورئاسة القوتلي سنة ١٩٤٩ طلب منه أن يكون مستشارًا له ففعل وصار وزيرًا للخارجية ثم نائبًا لرئيس الوزراء وعد الناس وأصدقاؤه في الجملة هذا منه سقطة وإنها لكذلك وادعى هو في معرض الدفاع أنه قبل ليكون كابحًا لحماقات الزعيم وكان تبريرًا غير سليم. وحينما ثار سامي الحناوي على الزعيم وأسقط حكمه وقتله سنة ١٩٥٠ ذهب إلى بيروت واعتكف حتى توفاه الله في سنة ١٩٥٠رحمة الله عليه. ١/ ٣٦٨

٢١

عادل العظمة

دمشقي، ابن عزيز الذي كان متصرفًا في نابلس قبل إعلان الدستور. وقد رأيتُه في نابلس في عطلة صيفية جاء إليها مع أخيه نبيه، ولم أتعرف به إذ ذاك، فقد كانت رؤيتي لهما عابرة في خان التجار في دكان الشيخ عبد الله طوقان الذي كان يبيع منسوجات تصلح للمدنيين رجالًا ونساءً ويتقرّب للموظفين بسبيل ذلك ويأتون إليه فيجلسون في دكانه. وكان يعرف شيئًا من التركية، وكان نبيه بلباس عسكري لأنه كان يدرس في مدرسة عسكرية، بينما كان عادل في لباس مدني.

وكانت المرة الأولى التي التقيت به وتحدثت معه في بيروت، وقد تخرّج من المدرسة الملكية وصار معاونًا للوالي حسب العادة للتدريب والاستعداد لوظيفة إدارية، ولقد كان العرب في هذا الظرف يكثرون الكلام عن التعليم باللغة العربية كمطلب من مطالبهم المهمة، فأرادت الحكومة أن تستجيب لهم شيئًا ما، فأنشأت مدرسة ثانوية عربية، وعيّنت عادلًا مديرًا لها. ولم أره غير هذه المرة في زمن الدولة العثمانية، ولا أعرف ماذا كان من أمره في السنين الست التي ظلت الدولة العثمانية صاحبة السلطان في بلادنا. ولم يكن ممن طاردتهم السلطات من شباب ورجال الحركة العربية، حيث قد يفيد هذا أنه لم يكن منه حركات ومواقف في هذا السبيل. والتقيتُ به في زمن حكم فيصل في دمشق سنة ١٩١٩ حيث جئت إليها مندوبًا عن نابلس للمؤتمر السوري العام، وكان

موظفًا في حكومة فيصل، وكان ينشط كسائر الشباب في مجال الحركة العربية، وقد ضمّته جمعية العربية الفتاة إلى عضويتها في هذا العهد، وتعارفنا وتصادقنا في ظلّها. وهو ذكي ألمعي خفيف الروح حسن المعشر، وانكشفت فيه مع الظروف فيما بعد روح كفاحية وثورية. ولما سقط الحكم الفيصلي هاجر إلى عمّان وعمل موظفًا ردحًا ما، ثم افتتح في عمّان مكتبًا للمحاماة، وبرز كعنصر من عناصر الحركة الوطنية فيها. وفي أثناء الثورة السورية ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ نشط نشاطًا كبيرًا في خدمتها ومساعدتها في عمّان، وظل بعدها محاميًا وعنصرًا في الحركة الوطنية الأردنية، وكان في أغلب الأحيان يقود حركة المعارضة مع رفاق أردنيين له. وحينما عقدت الكتلة الوطنية في دمشق معاهدة التحالف الاستقلالية مع فرنسا سنة ١٩٣٦ ترك عمّان وعاد إلى دمشق، وعُيِّن وزيرًا في وزارة الداخلية. وفي سنة ١٩٣٧ جئنا نحن إلى دمشق، وأخذنا على عاتقنا تأجيج الثورة الفلسطينية للمرة الثانية، فساعدنا في جهودنا مساعدة فعالة.

وحينما نقضت فرنسا تلك المعاهدة وأخذت تطارد الوطنيين؛ غادر دمشق إلى بغداد، وحاول أن يهيئ ثورة في سوريا ضدها، ولكن الحرب العالمية الثانية ما لبثت أن نشبت، فحال ذلك دون محاولته. وفي سنة ١٩٤١ قام رشيد عالي الكيلاني ورفاقه الضباط وغير الضباط بحركتهم الثورية ضد الإنكليز، فاندمج فيها، ولما تغلب الإنكليز على هذه الثورة خرج من العراق، وأصيب في الخروج فوزي القاوقجي بجروح بليغة من قصف إنكليزي، فأخذه في طائرة إلى أوروبا للمداواة، ولبث فيها مدة. ثم جاء إلى الآستانة، حيث أقام بقية مدة الحرب فيها، وكنا نحن فيها أيضًا نازحين عن سوريا، وعشنا معًا

نحن وأخوه نبيه وأخي محمد علي وغيرهم، ولما انتهت الحرب عدنا معًا إلى سوريا، وكانت قد قامت فيها حكومة جمهورية مستقلة برئاسة شكري القوتلي، فاندمج فيها، وعُيِّن محافظًا للّاذقية، وكان نشيطًا حازمًا في عمله هنا. ثم انتقل محافظًا بحلب ثم عُيِّن وزيرًا للداخلية. وأخذت تقع انقلابات عسكرية منذ سنة ١٩٤٩، وكان أولها انقلاب حسني الزعيم ضد شكري القوتلي، وكان حسني رئيس أركان أو قائد الجيش، فأسقط شكري وصار هو رئيس الجمهورية. ثم قام سامي الحناوي، وهو ضابط كبير في الجيش، بانقلاب ضد الزعيم، فأسقط حكمه، وتم الاتفاق بعد ذلك على قيام حكم شرعي مدني، فجيء بهاشم الأتاسي رئيسًا مؤقتًا للجمهورية، ودخل عادل وزير دولة في الحكومة التي قامت في هذا العهد، واتجهت النية والعزيمة في رجاله نحو إقامة اتحاد عراقي سوري، وكان لعادل جهد قوي في هذه الحركة، ولم يلبث أن قام أديب الشيشكلي أحد كبار ضباط الجيش بانقلاب ضد هذا العهد لتعطيل تلك العزيمة بتحريض ممن لم يكن يريد قيامها من ملوك العرب، فانسحب هاشم من الحكم، وقامت حكومة جديدة، وخرج عادل من سوريا، وأقام لاجئًا في لبنان، ومرض وتوفي فيه عام ١٩٥٣ رحمة الله عليه. وأنا أسنّ منه ببضع سنين، وقد كنت أثناء الانقلابات في دمشق بدون نشاط، وظلت صداقتنا مستمرة، وكنا نلتقي من حين إلى حين في المدة التي قضاها في سوريا، وزرناه مرتين في بيروت. ١/ ٢٠٤



عارف نكد

كان قد ضُمَّ إلى الفتاة وأخلص لها وانسجم فيها قلبًا وقالبًا، وهو من أسرة درزية بارزة من لبنان، وكان متخرجًا من كلية الحقوق، قوميًّا عروبيًّا وحدويًّا مستقيمًا صلبًا جريئًا على قول الحق بلا مداجاة ولا مجاملة، وكان مثقفًا حسن الاطلاع نزوعًا للبحث وبخاصة في اللغة العربية وآدابها وفي التاريخ والاجتماعيات، وأهَّله ذلك ليكون عضوًا بارزًا نشيطًا في مجمع اللغة العربية في دمشق، وبعد سقوط عهد فيصل عاد على ما أظن إلى لبنان ثم إلى سوريا فعمل في القضاء، وحينما قام عهد الاستقلال الأول برئاسة [هاشم] الأتاسي اندمج في العهد وعين مفتشًا للعدلية ثم رجع إلى لبنان وأقام فيه يرعى المؤسسات الدرزية الوقفية والتعليمية، وكان يأتي إلى دمشق من حين إلى حين لحضور اجتماعات المجمع، وقد تعرفنا به في عهد فيصل وتمت بيننا وبينه ألفة ومودة وإن لم تصل إلى درجة الصداقة الحميمة، وقد التقينا به في أيام إقامتنا في دمشق سنة ١٩٣٧ أكثر من مرة لقاء مودة ومحبة، وقد توفي في السبعينات رحمة الله عليه. ١/ ٤٥٤



عبد الحميد عربي كاتبي

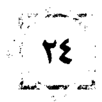
التقيته بعد اعتقالي من قبل سلطات الأمن في سوريا عقب إعلان الحرب، وهو ممن تعرفت عليهم في العنبر الأول، وهو شاب دمشقي موقوف بقضية تهريب جمركي، وهو حاد الذكاء واسع الحيلة رغمًا عن أنه شبه عامي ومقامر مجازف وشاطر، وقد زار أوربا وطاف فيها وأكثر ما اشتغل فيه التهريب من سلاح إلى مخدرات إلى بضائع متنوعة، وعلمت منه أنه اعتقل وسجن في فلسطين بقضية تهريب أيضًا في سنة **١٩٣٢**، ومما ذكره لي أنه التقى في سجن عكا بأبي إبراهيم الكبير وبعض رفاقه، حيث كانوا موقوفين للاشتباه فيهم في عمليات جهادية ضد اليهود والبوليس، ومما قاله: إنه هرَّب أكثر من مرة سلاحًا من سوريا إلى ثوار فلسطين في سنة **١٩٣٦** ثم في سنة **١٩٣٧**، وقال لي بعض معارفه: إنه هرَّب يهوديًّا من سوريا إلى فلسطين أيضًا، وهكذا يبدو بعض الناس في مثل هذا التناقض العجيب.

وعلى ذكر التهريب الجمركي أقول: إني سمعت قصصًا عجيبة وأنا في السجن عن تصرفات إدارة الجمرك التي يرأسها مفتش إفرنسي، وما يصدر عنها من ظلم وعدوان وحيل، فالقانون يمنح هذه الدائرة حق الاستيلاء على نصيب غير يسير من قيم المهربات والغرامات التي يحكم بها على المهربين، ويكون للموظفين نصيب أيضًا وهذا [ما] كان يدفع الموظفين إلى اقتراف كل شيء والذي يقع

بين أيديهم يقع [في] بلاء وويل حيث يذوق أنواع التعذيب والفظاظة، ويضطر إلى توقيع أي محضر يمليه الموظفون عليه وحيث تعظم الوقائع وتحسم وتكون وسيلة لأحكام شديدة وغرامات باهظة، وأحيانًا ترتب الأحداث والمكيدة وتوسع الدائرة لتشمل أكبر عدد ممكن، سواء أكان لهم صلة مباشرة بالواقعة أم لم يكن، وكثيرًا ما تكون الغرامات أرقامًا كبيرة، وقد اطلعت على أوراق اتهام لعبد الحميد عربي كاتبي عين فيها مقدار الغرامة مئة ألف ليرة، وحينما لا يدفع المحكوم الغرامات يحكم بحبسه عن كل غرامة مهما كان مقدارها سنة كاملة، وكان على عبد الحميد ثلاث تهم ولم يدفع الغرامات فحكموا عليه بالسجن ثلاث سنين.

وقد طلبنا من عبد الحميد ما دام أنه أستاذ في التهريب أن يقوم بمهمة تهريب الجرائد إلى عنبرنا فقبل وقام بالمهمة أحسن قيام، وكنا كل يوم نقرأ صحف الصباح وأحيانًا مساء صحف المساء، ولم أعرف كيف ينجح في مهمته فهو كما قلت شاطر شيطان واسع الحيلة.
٣/ ٨٨٤





عبد الرحمن الشهبندر

كنا نلتقي ونتحدث ونتوافق في كثير من المواقف والأفكار، ولكن لم تنعقد بيننا صداقة حميمة، وكان ينشط مع الناشطين في مجال الحركة العربية قبل الحرب، وإن جمال باشا قرَّبه إليه هو وعبد الكريم الخليل ومحمد كرد علي حينما سوَّلت له نفسه بإمارة سوريا ومصر أو إحداهما، وأنه لما أخفق في مطمحه وانقلب على من قربهم إليه هَمَّ باعتقاله كما اعتقل عبد الكريم الخليل، ولكنه استطاع أن يحدس الخطر وأن يفلت ويفر إلى العراق عبر الصحراء ثم إلى مصر، واندمج في حركة اللامركزية مع رجال حزبها ونشاطهم، ولقد كان واسع الاطلاع حسن الثقافة العربية والغربية وخطيبًا مفوهًا وكاتبًا، وكان فيه شيء من الحدة والنزق والعصبية، وشيء كثير من الاعتداد بالنفس والطموح إلى الزعامة والبروز وتوجيه اللوم والنقد، وظل كل هذا ملازمًا له في عهد فيصل وبعده، ومع أنه قَبِل الانتساب لجمعية الفتاة وأقسم يمين الإخلاص لها، فإنه ظل غريبًا عنها بروحه وقلبه وشديد المعارضة والتجريح لها.

وظل هذا كذلك ملازمًا له في عهد فيصل وبعده، ولقد كان في عهد فيصل رمزًا للمعارضة والتطرف في المطالب والمواقف، حتى لقد رأت الهيئة المركزية للفتاة أن ترشحه وزيرًا للخارجية في وزارة هاشم الأتاسي التي خلفت وزارة الركابي في العهد الاستقلالي، حينما لمحت في فيصل

بعد إعلان الاستقلال بل وقبيله شيئًا من الحيرة والرغبة للتفاهم مع فرنسا ولو بقبول انتدابها بصورة ما، ليكون قوة ضاغطة في الوزارة، وأصرت على فيصل بإسناد وزارة الخارجية له، وجاء هو إلى المؤتمر فدافع عن سياسة الوزارة وقال: إن الوزارة هي دفاعية وجاءت للدفاع ولا يمكن أن تتوانى أو تتساهل في مواقفها، ونسجل بحق أنه لم يكن في الوزارة ذا فعالية أو قوة ضاغطة كما كنا نتوقع ويتوقع الناس منه، ولقد بقي في دمشق بعد خروج فيصل ودخول الفرنسيين، وسكت عنه الفرنسيون لأنه لم يكن له مواقف عدائية قوية وصريحة ضدهم، وأخذ ينشط في سبيل قضية سوريا وحقوقها واستقلالها، وكانت له مواقف وطنية قوية حيث قاد مظاهرة شعبية ترحيبية بالمستر كراين عضو لجنة الاستفتاء الأميركية حينما زار دمشق بعد سنتين من الاحتلال الفرنسي، وخطب خطابًا حماسيًّا أزعج السلطات وحملها على اعتقاله مع آخرين لفترة من الوقت.

ولما أخذت الحركة الوطنية في سوريا تشتد أَسَّسَ مع رفاق له في الحركة حزبًا سموه حزب الشعب، وكان له نشاط حسن في نطاقه، ولما اندلعت ثورة جبل الدروز وترشحت لتكون ثورة عامة عارمة لجميع سوريا انضم إليها، وصار زعيمها السياسي إلى جانب سلطان الأطرش قائدها الحربي، ونسجل أنه لم يسجل فعالية على جدية كما كان الناس يتوقعون منه، وكان على خلاف ونشاز وتبادل تهم وانتقادات مع رجالات سوريا الذين كانوا منتسبين لجمعية الفتاة، وينشطون في مجال الحركة الوطنية في سوريا والحركة الثورية في خارجها، ولما توقفت الثورة ذهب إلى مصر وفتح عيادة فيها مع استمراره في النشاط السياسي مع الناشطين في سبيل

استقلال سوريا وفي مناوأة الفرنسيين، وفي توجيه التهم والنقد والمعارضة في نفس الوقت للذين كانوا ينشطون في داخل سوريا الذين تجمعوا في نطاق الكتلة الوطنية برئاسة [إبراهيم] هنانو ثم برئاسة [هاشم] الأتاسي والذين كان معظمهم من المنتسبين لجمعية الفتاة القدامى، ولقد زرت مصر في سنة **١٩٣٢** فزرته في عيادته وجددنا عهد تعارفنا ثم عاتبته على أسلوبه الذي يصطنعه إزاء رجال الجمعية ولكنه أصر على صوابه فيه.

ولما اتفقت الكتلة الوطنية مع فرنسا وعقدت معاهدة الاستقلال سنة **١٩٣٦** وقام العهد الوطني الاستقلالي برئاسة جمهورية هاشم الأتاسي انتقدها وعارضها، ولقد دعي إلى دمشق من قبل حكومة العهد للتعاون والمشاركة فجاء واستقر في دمشق وفتح عيادة، ولكنه ظل في موقف المعارضة الشديدة للكتلة الوطنية وحكومتها، وتجمعت حوله كتلة معارضة شديدة أيضًا، والمبررات كانت تسمح بذلك بعض الشيء بسبب ثغرات في نصوص المعاهدة من جهة ومراوغات الفرنسيين وسوء نيتهم من جهة أخرى، غير أنه يؤخذ عليه وعلى جماعته أنهم لم يلحظوا أو يقدروا الظروف الصعبة التي كانت تحيط بالقضية والكتلة الوطنية.

ولقد نقضت فرنسا المعاهدة في أواخر سنة **١٩٣٩** وعادت إلى أسلوب الحكم الانتدابي أو الاستعماري السابق للمعاهدة، فأراد هو وجماعته أن يرى في ذلك صواب موقفه، بل وصاروا يتهمون الكتلة بأنها من أسباب النكث الفرنسي، لأن الفرنسيين حسبوا أن ذلك لن يكون له ردة فعل شعبية قوية، بزعم أن الكتلة فقدت شعبيتها بسبب

تساهلها، ولقد اغتيل بعد النكث بقليل أي في أواخر سنة **١٩٣٩** فألصق أنصاره تهمة تدبير ذلك بأركان الكتلة، وبخاصة بسعد الله الجابري وجميل مردم بك ولطفي الحفار وشكري القوتلي وكانت التهمة لشكري أضعف لأنه كان استقال من الوزارة قبل نحو سنة من النكث الفرنسي بسبب تصرفات جميل مردم بك ولطفي الحفار، وكثر تساهله مع الفرنسيين باجتهاده إنقاذ ما يمكن إنقاذه وصدر حكم المحكمة بالقضية وأعلن براءتهم مما اتهموا به.

وكان الدكتور يسكن بيتًا فوق بيتنا في شارع الشعلان فيه سكنه وعيادته، ولقد اعتقلتنا السلطات الفرنسية قبل اغتياله بأشهر قليلة بسبب نشاطنا في تمويل وتأجيج ثورة فلسطين وبضغط من الإنكليز، حتى قال أحد أصدقائنا بين المزح والجد: إن سجنك السابق لاغتياله كان من حسن حظك، وإنه لو اغتيل وأنت خارج السجن لكانت التهمة وجهت إليك لأنكما في عمارة واحدة، وَلِمَا بينك وبين رجال الكتلة من صداقة حميمة، وَلِمَا كان تحت يدك من ثوار سوف يُظَنّ أنهم هم الذين اغتالوه بتدبير منك، وعلى كل حال كان الدكتور من رجالات العرب عامة وسوريا خاصة البارزين المعاصرين الذين شغلوا جزءًا كبيرًا في تاريخ الحركة العربية الحديثة في أثناء الحكم التركي وبعده، بالإضافة إلى ما كان عليه من مواهب عقلية وثقافة واسعة عربية وغربية وقوة عارضة وخطابة ونشاط وحيوية، رحمة الله عليه.

١/ ٤١٠



عبد العزيز آل سعود

طويل النَّفَس في الكلام وينتقل من موضوع إلى موضوع بلهجة بدوية ونبرة قوية، ولا يكاد يسمح لسامع بالكلام إلا جوابًا على سؤال منه أو تأييدًا لما يقوله أو بطلب منه.

ويشعر المرء بقوة إرادته وقوة شخصيته وذكائه ودهائه وثاقب عقله ونضجه وصراحته معًا، مع القول: إن معارفه الموضوعية غير واسعة، وأن ما يقوله في صدد أحوال البلاد وشؤون الساعة والسياسة نتيجة مسموعات وتخمينات وتوقعات مستندة إلى بعض الوقائع، وهو حريص على استماع أخبار العالم العربي والخارجي، وله موظفون يتسمعون بصورة منتظمة للإذاعات ويقدمون خلاصات ما يسمعونه بمذكرات صغيرة، فيقرؤها أو بالأحرى تُقرأ له في مجالسه ليكون بذلك ملمًّا بما يجري. ٢/ ٣٥٨





٢٦

عز الدين سعيد الشوا

ابن الحاج سعيد، وقد كنت تعرفت بوالده وبأخيه الأكبر رشدي وصار بيننا تواثق. وجاء إلى دمشق أثناء الثورة وجاء إليها مع أخويه رشاد وسعدي، وقد التقيت بالثلاثة في دمشق وأظهروا استعدادًا للتعاون معي وخدمة أغراض الثورة، وتوثقت المعرفة والصداقة بيني وبينهم، وقد بذل الثلاثة جهودهم في خدمة الثورة، وكان لعز الدين بخاصة جهد شاق مشكور في نقل صناديق الخرطوش التي أهدانا إياها طه الهاشمي رئيس أركان حرب العراق.

وعز الدين ألمع من أخويه وأقرب إلى القلب، وكان ذهب إلى لندن وتخرج من إحدى جامعاتها، ثم عَيَّنَتْهُ حكومة فلسطين قائم مقام لجنين حينما عينت عددًا من أبناء أسر فلسطين، وتعاون مع الثورة وقائدها [فوزي] القاوقجي [سنة] **١٩٣٦** الذي كان مركزه قريبًا من جنين، واحمرت عينا السلطات عليه فاستقال أو أقيل حينما انفجر الموقف في خريف عام **١٩٣٧** وتعاون معي خلالها في دمشق في شراء السلاح ونقله، وسُجنتُ أنا في دمشق في أواسط سنة **١٩٣٩** وهاجر عز الدين إلى بغداد حيث بقي ينشط فيها مع غيره من الفلسطينيين، ثم عاد إلى فلسطين بعد فشل ثورة رشيد [الكيلاني].

ثم هاجرتُ أنا إلى تركيا **١٩٤٠** وعاد الإخوة الثلاثة إلى غزة، ولم ألتق إلا بعز الدين حيث جاء مرة إلى دمشق في الخمسينات، وقد ظلوا في غزة أثناء الحكم المصري بعد النكبة **١٩٤٨**، ولم أسمع شيئا عنهم. **٣/ ٣٥٥**



عفيف الصلح

أسن قليلًا من رياض الصلح، وكان مثقفًا أكثر منه، ولكن لم يكن في نشاطه وبداهته ولمعانه وجذبه للقلوب، وكانت له أفكار ومحاكمات اجتماعية وسياسية حسنة، وعنده أناة وتروٍّ، وقد أهّلته ثقافته ليكون مديرًا للمدرسة العربية الثانوية التي أنشأتها الحكومة التركية الاتحادية سنة ١٩١٣ كاستجابة لمطالب ورغبات الحركة العربية، وقد تصادقنا وتعاونا عبر المؤتمر السوري وضمته الفتاة إليها، فكان ذلك من وسائل التواثق والتصادق، وقد استمر ذلك بيننا وتجدد حينما أقمت في دمشق سنة ١٩٣٧ وبعدها، حيث كان هو أيضًا مقيمًا في دمشق لأن والدته منها، وكان ينشط في عهد الاستقلال السوري، وصار مرة نائبًا في مجلس نوابها ووزيرًا وكان يعد من أركان الكتلة الوطنية أو قيادة الحركة الوطنية في هذا العهد، وقد ظللنا أصدقاء نتزاور ونتداول في مختلف الشؤون قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها، ثم انقطعنا عن بعضنا حينما طعن في السن ثم توفي في بيروت سنة ١٩٧٤. ١/ ٣٥٣



٢٨

عوني عبد الهادي

هو ابن الحاج عبد الهادي القاسم عبد الهادي، وكان من سنّي وفي صفّي حينما كنا في الصف الثالث الإعدادي، ثم أرسله أبوه لإتمام دراسته في الآستانة، ودخل المدرسة الملكيّة، ثم غادرها قبل إتمام دراسته فيها، وسافر إلى باريس، ودرس الحقوق في جامعة باريس، وحصل على إجازة، ثم أخذ يتهيأ للحصول على دكتوراه في الحقوق، وتعثّر في ذلك. وكان من مؤسِّسي جمعية «العربية الفتاة» التي أنشأها بعض الشباب العرب في باريس سنة **١٩١٣**. ثم كان من جملة اللجنة التحضيرية الداعية إلى المؤتمر العربي في باريس. وقد بقي في باريس أثناء الحرب، واشتغل في بعض الوظائف لتأمين حياته، لأن طريق المدد إليه كان مسدودًا، وهذا مما عثّر دراسته الدكتوراه.

ولما انتهت الحرب وجاء الأمير فيصل إلى باريس لعرْض قضية العرب والدفاع عن حقوقهم وتثبيتها أمام مؤتمر الصلح بالنيابة عن والده الملك حسين، صار سكرتيرًا له. وجاء إلى دمشق مع فيصل، والتقينا به فيها، وجدَّدْنا به عهدنا. ثم صار صديقًا حميمًا لنا، وظلّتْ صداقتُنا مستمرة إلى النهاية.

وتعاونّا في مختلف المواقف والظروف في دمشق، ثم في فلسطين. ولقد كانت مشاركته في النشاط العربي في دمشق أثناء الحكم الفيصلي من خلال سكرتيريته لفيصل. وبعد سقوط الحكم جاء إلى

عمّان، وصار سكرتيرًا للأمير عبد الله. ثم انتقل إلى فلسطين وأنشأ مكتبًا للمحاماة فيها، ومنذئذ أخذ يشارك في الحركة والمواقف الوطنية مشاركة فعّالة. وصار سكرتيرًا للّجنة التنفيذية للمؤتمر الفلسطيني السابع مع اثنين آخرين. وأنشأنا معًا حزب الاستقلال سنة **١٩٣٢** وكان سكرتيرًا عامًّا له، وشارك في نشاط هذا الحزب مشاركة فعّالة، ومشى في المظاهرات، وسُجن بسببها، وصار ممثِّلًا لحزب الاستقلال في اللجنة العربية العليا، التي قامت لرعاية إضراب فلسطين الطويل، وسكرتيرًا لها. واعتقلتْه السلطات في جملة من اعتقلتهم في صرفند، وظل معتَقَلًا إلى قُبيل نهاية الإضراب، ثم خرج واستأنف نشاطَه في اللجنة العليا سكرتيرًا. وذهبنا معًا إلى بغداد والرياض وفدًا من اللجنة لشرح مبرِّرَات قرار مقاطعة اللجنة [العربية العليا] للَّجنة الملكية. وخرج من فلسطين قبل انفجار ثورة سنة **١٩٣٧** فنجا بذلك من الاعتقال، لأن السلطات اعتقلت من كان في فلسطين من أعضاء اللجنة العربية، ونَفَتْهم إلى سيشل. وظل ينشط في سبيل القضية في مصر وأوروبا، وكان من أعضاء الوفد الفلسطيني الذي اختارته اللجنة إلى لندن سنة **١٩٣٩**. وبقي خارج فلسطين نشيطًا في سبيل القضية إلى سنة **١٩٤٣** حيث سمحت له السلطات بالعودة.

واشترك في نشاط الأحزاب إلى أن كانت النكبة، فخرج وأقام مدة في دمشق، ثم ذهب إلى مصر، ثم عاد إلى عمّان وزيرًا للخارجية، ثم سفيرًا للأردنّ في مصر. ثم صار رئيسًا للجنة القوانين

في جامعة الدول العربية، إلى أن توفاه الله في سنة ١٩٧٠ ودُفن في مصر، رحمه الله تعالى.

وقد ظل محافظًا على خطه القومي العربي الوحدوي، وصفاء ذهنه وبديهيته، وبروزه كزعيم من زعماء الحركة العربية والفلسطينية. وكان بينه وبين الحاج أمين الحسيني برودًا وتضادًّا وتشادًّا، لأنه كان ينتقد الحاج، وكان هذا لا يطيق ذلك، فكان يتسقّط غلطاتِه ويستغلّها في الحملة عليه. واستغل صلةً ما له بمأساة وادي الحوارث، حتى التصقت باسمه، وظلّتْ تشوِّهه. ولقد ألممتُ بهذه المسألة إلمامًا وافيًا، وسجّلتُ ظروفَها وإجراءاتِها في دفتري القديم في مناسبة تأليف لجنة تحقيق من قِبَل اللجنة التنفيذية للمؤتمر السابع، لتحقيق ما نُسب إلى أعضاء هذه اللجنة من علاقات بيع وانتقال أراضي عربية لليهود، وقد رأيتُ أن أُثْبِتَ ما سجّلتُه.

وأصل القضية أن أمير عرب وادي الحوارث الذي كانت أرض الوادي مسجَّلَة على اسمه، استدان من آل التيّان البيروتيين مبلغًا من المال ورهنهم الأرض المسجَّلَة عليه، وفَوَّضَهم ببيعها لاستيفائهم دَينَهم إذا لم يدفعْه حينما يطالبون به أو يستحق أداؤه، وأخذ آلُ التيان مبلغًا من المال من شركة فرنسية يهودية ورهنوها الأرض، وفوّضوها بالبيع حسب التفويض الذي لهم إذا لم يدفعوا الدَّين في وقته، وكان ذلك في زمن الدولة العثمانية. وفي زمن الاحتلال الإنكليزي طلب ورثةُ المُسترهن الفرنسي المالَ، ورُفعت قضية على آل التيان بالدَّين، وكان عوني وكيلًا لآل التيّان. وخسر ورثة المسترهن القضية في

المحكمة الابتدائية، ثم كسبوها في الاستئناف، حيث قضت هذه المحكمة ببيع المرهون لسداد الدَّين، وطُرحت الأرض للبيع بالمزايدة حسب الأصول، ورَسَتْ على المؤسسة القومية اليهودية للأرض، وسارت عملية التنفيذ بواسطة دائرة الإجراء والبوليس معها، حتى بلغت نهايتها في إجلاء البدو عن الأرض واستلام اليهود لها. وكان فؤاد أخو عوني، وهو محامٍ وفي مكتب أخيه كشريك أيضًا على ما أظن، ممثِّلًا لآل التيان في هذه العملية، وظل يغدو ويروح مع خانكين وكيل الشركة اليهودية في كل مراحلها. والقضية كما هو ظاهر قضية دَيْن، قضت المحكمة ببيع المرهون لوفائه، ووكالة عوني لآل التيان فيها وكالة حقوقية، وكل قضية من هذا النوع تنتهي إلى بيع المرهون إذا لم يدفع الدَّين، ووكالة المحامي لا تقدِّم ولا تؤخِّر. والمزايدة في البيع حرّة، يدخلها عرب ويهود. ومما قاله عوني في بيان أذاعه حينما أثارت الصحف هذه القضية ووجّهت إليه تهمة فيها: «إنه لو كانت الوكالات محظورة وطنيًّا لوجب الامتناع عن كل قضية مماثلة، سواء كانت بين اليهود العرب أو بين اليهود أنفسهم، لأن كل حكم بثبوت دَين ووفائه قد تنتهي إلى طرح المرهون للبيع، والمؤاخذة حينئذ لا تنحصر في المحامي، بل تشمل كل عربي يرفع قضية على عربي ويطلب فيها الحجز على ملكه وأرضه وطرحه للبيع في المزايدة، لأن اليهود يمكن أن يدخلوا في المزايدة، وهذا لم يقل به أحد. وما زال المحامون وسائر العرب يقومون به ويفعلونه» وكل هذا صحيح موضوعيًّا.

ولقد أذاع أخوه فؤاد بيانًا حينما حمل عليه لأنه مثَّلَ آل التيان في عملية التنفيذ، ذكر أن: «ذلك لم يكن يقدّم الأمر، وإنّ عدم تمثيله لم يكن ليمنع إتمام العملية». وقد يكون هذا صحيحًا موضوعيًّا أيضًا. والغالب أنه كان لعوني أتعاب محاماة عند آل التيّان، وأن آل التيان كانوا سوف ينالون مبالغ جديدة نتيجة للمزايدة، فكان تمثيل فؤاد في العملية لضمان استيفاء هذه الأتعاب.

ومهما يكن عن صحة أقوال عوني وفؤاد موضوعيًّا، فإن واقع إجلاء البدو عن الأراضي التي كانوا يزرعونها طيلة عشرات السنين أو مئاتِها بالقوة كان شديدًا، وكان تمثيل فؤاد لآل التيّان بهذا الشكل هو الذي أثار الاشمئزاز والمرارة في النفوس، وكان المنطق الوطني يقضي على عوني، وهو رجلُ قضية ونضال وطني وزعيم عربي، أن يستقيل من الوكالة حينما بلغ الأمر إلى طرح الأرض للمزايدة، لأنه لا بد من أنه يعلم أن اليهود سيكونون الأقوى في الموقف، وسيظفرون بالأرض، حتى لا يلتصق اسمُه بهذه العملية، مهما كان أثره فيها سلبيًّا، وكانت استقالته ستمنع فؤاد تلقائيًّا من تمثيله لآل التيان بالصورة التي مثّلهم فيها إلى جانب خانكين، وأثار مرارة الناس واشمئزازهم. وهذه هي غلطة عوني التي استغلَّها الحاج أمين وخصومُه الآخرون.

ومن العجيب الذي سجلته في دفتري، أن إعلانات الإجراءات الرسمية للمحاكمات كانت تُنشر في جريدة «الجامعة الإسلامية» التي كان يُصدرها منيف الحسيني، والتي كانت بعد ذلك مسرحًا للحملة

التجريحية على عوني بسبب القضية، ولكنه لم يكن إذ ذاك تضادّ وتشادّ بين عوني والحاج أمين، فَجَرَتِ الأمور عاديّة دون توقف وتجريح، فلما قام التشادّ والتضادّ قامت حملةُ التجريح والاتهام. وإن استغلالًا لغلط عوني لعدم الانسحاب من الوكالة. والذي نعتقده أن الحاج أمين وجماعته لم يكن ليخفى عليهم أن وكالة عوني وعدم انسحابه منها ليس لهما أثرٌ إيجابيٌّ حقيقيٌّ في إنجاز العملية، وأنها كانت ستُنجز على كل حال، وبالتالي لا مبرّر إلى اتهام عوني بتسهيل انتقال الأرض العربية لليهود. وإن الاعتبارات الشخصية كانت هي الدافع للاستغلال والحملة. والحاج رحمة الله عليه يتأثّر كثيرًا بهذه الاعتبارات.

ويُنسب إلى عوني عدم الجدّ الصميمي في ما يباشره من أعمال عامة، والطموح للبروز كزعيم بدون ذلك الجد الجاد، والسخرية بالغير، والتعالم والنسيان والذهول، وقد يكون شيء من كل ذلك صحيحًا، ولكن فيما يقولونه مبالغة كبيرة، فليس على وطنيته وإخلاصه وجدّه في العروبة وأهدافها غبار. وهو ذكي أديب ألمعيّ لامع وذواقة للنكتة وخفيف الروح، ولعل كل ذلك كان يجعله يرى نفسَه ويقدّرها بالنسبة لكثير من الناس تقديرًا استدعى تلك النسبة والفخر، والعصمة لله وحده. ١/ ٢١٢



٢٩
فارس الخوري

رُشِّح لوزارة المالية، وكان مارس النيابة عن الطائفة النصرانية الدمشقية في مجلس النواب العثماني. وهو ذكي وكان نبيهًا وكان ضليعًا بالقوانين ذا ثقافة واسعة عربية وغربية، وكان منسجمًا في عهد فيصل مستقيم السيرة جم النشاط، وظل بارزًا ووزيرًا للمالية في عهد الوزارة الأتاسية مالئًا للمنصب موحيًا بالثقة، ولقد ظل يبرز وينشط بعد سقوط العهد الفيصلي، وشغل جزءًا كبيرًا في تاريخ سوريا السياسي وصار من أعلام رجالها الوطنين النشيطين المستقيمين، وتعرض لأذى الفرنسيين ونفوه في ظروف اشتداد الحركة الوطنية في الثلاثينات عن دمشق، وصار من أركان الكتلة الوطنية التي قادت الحركة الوطنية بعد فتور الثورة السورية، واختير ليكون من وفد المفاوضة مع فرنسا حينما تم الاتفاق على عقد المعاهدة الاستقلالية معها سنة **١٩٣٦**، وظل يبرز ومثّل سوريا في هيئة الأمم واختير في دورة من دوراتها رئيسًا لمجلس الأمن فملأ المنصب ورفع اسم سوريا والعرب، وصار وزيرًا أكثر من مرة في عهد الاستقلال الثاني بعد سنة **١٩٤٣** ورئيسًا للوزارة ورئيسًا لمجلس النواب، وكان في كل مناسبة كفؤًا نشيطًا مستقيمًا ناضجًا رزينًا، وظل ذا مركز محترم بعد أن شاخ واعتكف في بيته، وقد عمّر حتى بلغ التسعين ومات في الستينات، وكان يحفظ كثيرًا من القرآن والأحاديث ويعجب بالقرآن والرسول العربي، ويكاد أن يكون مسلمًا،

ومما سمعته أنه أوصى بقراءة القرآن في مأتمه، وتم ذلك. وكان ينظم الشعر وذا قلم بليغ في النثر، وملمًّا بل ضليعًا باللغة الإنكليزية، وقد تعرفت عليه في عهد فيصل ثم تجدد عهدنا حينما أقمت في سوريا، والتقيت به مرارًا وكنا معجبين ببعضنا، وقامت بيننا ألفة ومودة وإن لم تصل إلى الصداقة الحميمة. ١/ ٤٥٤



٣٠

فخري البارودي

من أسرة وجيهة وكان والده من وجهاء دمشق، وله بيت شامي كبير وديوان مطروق في حي القنوات وميسور الحال، وكانت له أملاك في دوما والشام، وقد ذهب إلى الآستانة وانتسب إلى مدرسة الحقوق، وكان قوي الحماس للحركة العربية مما جعل الهيئة المركزية للفتاة تضمه إليها أثناء الحرب العالمية الأولى، وكان أول لقائي به في دمشق في نطاق الفتاة، وبدا لي شابًّا ذكيًّا نشيطًا لا بأس في محاكمته وأفكاره، جريئًا على النقد وقول الحق، ميالًا إلى الدعابة والتنكيت، ذا روح طيبة ومواقف سليمة، فتواثقنا وتعاونا.

وفي عهد الفرنسيين برز كزعيم شاب وطني متحمس وشعبي في أثناء تجدد الحركة الوطنية بعد فتور الثورة السورية أي في أوائل الثلاثينات، وكان يقود المظاهرات ضد الفرنسيين، وتعرض لمطاردتهم أكثر من مرة حبسًا ونفيًا فزاده ذلك بروزًا وشعبية ومحبة بين الجماهير، وبدا له أن يؤسس مكتب أبحاث ونشر وطني على أن يُغَذَّى بجباية زهيدة شعبية سماها «مشروع الفرنك»، وأقبل الناس على تلبية دعوته فاستطاع أن يحقق هدفه، وخصص جناحًا في بيته ليكون مركز أبحاث ونشر وجهزه بالآلات الناشرة، واستعان ببعض الشباب، وأصاب نجاحًا حيث صار المكتب ينشر نشرات دعاية وتوجيه أناشيد وطنية، وقد التقيت به في دمشق حينما جئت وأقمت فيها وتوليت

تموين وتأجيج الثورة في فلسطين وجددنا عهد صداقتنا، واتفقت معه على تخصيص زاوية في مكتبه الذي صار يدعى «المكتب العربي القومي» لنشر نشرات الثورة والدعاية لها مقابل عشرة جنيهات في الشهر للنفقات والورق وسلمت الزاوية للأستاذ أكرم زعيتر، وصارت الزاوية تنشط في مهمتها نشاطًا مفيدًا وقد اندمج فخري في عهدي استقلال سوريا في سني ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ثم في سنة ١٩٤٣ بعدها ونشط مع النشيطين، وصار نائبًا في المجلس النيابي مرتين دون بروز كبير، وظل يحتفظ بروح الدعابة والتنكيت والشعبية مع جرأة في النقد والحق، وكان ينظم أناشيد وطنية وينشرها ومنها أنشودة:

بلاد العرب أوطاني   من الشام لبغدان

ونشر بعض كتيبات بعنوان مذكرات البارودي، ذكر فيها نشأته وأحوال الشام في طفولته وقبلها وبعض أحداث أخرى، واهتم بالموسيقى العربية القديمة وبخاصة الموشحات الأندلسية وأحيى ما يسمى رقصة السماح، وقد أنشأ بيتًا جديدًا، وكان له مكتبة عامرة فيها كثير من الوثائق، فأصابته في أوائل الستينات قنبلة من طائرة كانت تقصف بعض التجمعات في ظروف انتكاس الوحدة السورية المصرية، فهدمته واحترقت المكتبة فكان ذلك بالنسبة إليه وإلى التاريخ العربي الحديث كارثة رغم ما حصل عليه من تعويض، ولم يلبث أن توفي وشيع في موكب شعبي عظيم، مشينا فيه ولمسنا ما كان له في قلوب الجماهير التي اشتركت في تشييعه بدون مؤثر خارجي من محبة

وشعبية، اعترافًا بما كان له من نشاط وخدمة في سبيل أمته ووطنه، رحمة الله عليه. ١/ ٣٦٨

ذهب إلى شرق الأردن وضاق به الأمر في عمان ففتح محلًّا كالمقهى أو النادي يدر عليه بعض المال، واتصل بالأمير عبد الله ولم يلبث أن صار من ندمائه، وهو وطني مخلص وذو خط قومي مستقيم، مرح خفيف الظل كثير النكات حبوب، وقد بقي في عمان نحو سنتين، ولم يعد إلا بعد انكسار فرنسة وزوال حكومة المديرين وقيام حكومة خالد العظم الانتقالية في ظل العهد الفرنسي الجديد. ٣/ ٨٨٤



٣١

فيصل بن الحسين

مع أن الأمير فيصل (الملك فيما بعد) كان ذا مقام رسمي عال، ومع أني لا أقول إن صداقة حميمة قامت بيني وبينه، فإني أقول: إني التقيت به كثيرًا في العهد الفيصلي لقاءات عامة وخاصة عبر الهيئة المركزية لجمعية الفتاة التي كانت تمثل حزب عهده وحكومته، ثم عبر المؤتمر السوري الذي كنت سكرتيره أيضًا، وكثيرًا ما تناولت الطعام وطعام الفطور صباحًا معه وخاصة في ظروف قرار المناداة بالاستقلال وتأليف الوزارة، وكنت ألقى منه عطفًا وتقديرًا، وقام بيننا نوع من الألفة وعدم الكلفة مع القول: إني كنت أتجرأ على نقد أفكاره وطلباته في مواقف عديدة في الاجتماعات الخاصة والعامة للفتاة وغيرها، ولم يؤثر ذلك على تلك الألفة وعدم الكلفة.

ولما صار ملكًا على العراق أرسل لي ساطع الحصري الذي كان التحق به رسالة يدعوني فيها إلى العراق لأشارك في بناء الدولة الجديدة في أي عمل أقترحه، وأعتقد أن ذلك كان بأمر من فيصل أو علم منه ومتصلًا بذلك التقدير والألفة، ولقد خرجنا مع من خرجنا من دمشق معًا في كارثة ٢٤ تموز ١٩٢٠ والتقينا في درعا أيامًا قليلة في حزن ووجوم، ثم ركبنا القطار معًا، واستمر هو إلى حيفا، ونزلنا نحن في العفولة للسفر منها إلى نابلس، وقد تودعنا وتصافحنا وكل منا يبث في الآخر الأمل، والتقينا بعد ذلك ثلاث مرات حينما رجع والده من

قبرص إلى عمان وكان مشرفًا على الموت، وقد ذهبنا إلى عمان مع وفد كبير من رجال نابلس رفاقنا في الحركة الوطنية، وقد جاء هو من بغداد لعيادة والده، فكان اللقاء حارًّا بشوشًا يذكر بما كان من الألفة وعدم الكلفة، وكانت حيويته ونشاطه قد عادا إليه وبث فينا الأمل ووعدنا بالعمل والمساعدة

ومرة جاء إلى فلسطين في طريق رحلته لأوروبا أو عودته منها في سنة **١٩٣١** فكان اللقاء كالمرة الأولى، وكنا قبل ذلك عقدنا في القدس مؤتمرًا عربيًّا، وكنت عضوًا في الهيئة التحضيرية التي عهد إليها بالسعي لعقد مؤتمر عربي عام، وخاطبنا إخواننا في العراق ياسين الهاشمي وجميل المدفعي وعلي جودة الأيوبي ومولود مخلص، وطلبنا منهم تأليف لجنة وإقناع فيصل بعقد المؤتمر في بغداد، وتم تأليف لجنة منهم مضافًا إليهم نوري السعيد، وكنا نتكاتب وكان فيصل يعرف ما يجري، فلما جاء إلى فلسطين هذه المرة كلمناه في صدد المؤتمر فوعد بمضاعفة الجهد في سبيله، ولقد أقام له المجلس الإسلامي حفلة كبرى وخطب الخطباء وذكّروه بقضية فلسطين فوعد وعيونه تدمع ببذل جهده المتواصل في إيجاد حل عادل لها.

ثم التقينا به مرة ثالثة في عمان في تموز [عام] **١٩٣٣** في ظروف رحلة له لأوربا وتحدثنا معه في قضية فلسطين والمؤتمر العربي، ووعد بمضاعفة الجهد بعد عودته لإتمام عقد المؤتمر في صدد قضية فلسطين، وقال: إنه يفكر في طريقة جديدة وهي ربط شرق الأردن بالعراق وجعل فلسطين مرتبطة بالعراق بنوع ما عبر ذلك، وأفهمنا أنه

يجري بينه وبين الإنكليز حوار حول إنشاء خط بغداد حيفا الحديدي، وحول تمديد خط أنابيب النفط، وحول التفاهم على خطة جمركية موحدة، وقال: إن في كل ذلك وسائل قد تساعده على تحقيق أفكاره في صدد فلسطين ولصالح القضية العربية، وقابلته منفردًا حين كلفني بإعداد مذكرة عن قضية فلسطين ليأخذها معه ويعرضها على الإنكليز في رحلته، وكان بيننا وبين الحاج أمين الحسيني شيء من الفتور بسبب إنشائنا حزب الاستقلال، فخلا بي وبعوني عبد الهادي وطلب منا عدم توسيع الجفاء بأسلوب الأخوة والألفة وعدم الكلفة المعتادة بيننا في دمشق، وكان هذا آخر العهد به فقد قضى نحبه في أوروبا بعد شهرين من ذلك [في] أيلول [عام] **١٩٣٣** وأحضر جثمانه إلى بغداد، وذهب كثير من رجال شرق الأردن وغربه لحضور المأتم وكنت منهم، وقضينا أيامًا مع إخواننا ورفاقنا في بغداد نتذاكر في قضايا العرب وذكريات صحبتنا للملك ونشاطه، رحمة الله عليه.

ولا أريد أن أعلق على هذه الصورة من صلاتي به وهي صورة ناطقة معبرة ولقد علمنا في بغداد أنه قدم مذكرة في رحلته إلى الحكومة الإنكليزية ضمنها بعض المقترحات لصالح القضية الفلسطينية في نطاق ما ذكرناه آنفًا، وكان وقع موته مدهشًا وشملت الدهشة البلاد العربية وأذهلتها، لأنه وقد تمكن من السير بالعراق إلى حد لا بأس به وأصبح له به شخصية قوية مؤثرة في العالم الأوربي، وقد نضج في حلبة السياسة، وصار المتأهل للزعامة العربية الكبرى، وصار يقال: إن العراق تحت زعامته سيلعب دور بروسيا في نهضة ألمانيا

ووحدتها، ومما كان في ظروف رحلة لفيصل قبل الأخيرة أنه زار فرنسا وأقامت له حكومتها حفلًا رسميًّا كبيرًا، وخوطب بلقب ملك القطرين، وأشيع على أثر ذلك أن هناك شيئًا من التقارب والتفاهم بينه وبين فرنسا يمكن أن يؤدي إلى وحدة ما تحت تاجه بين الشام والعراق، ورددت الصحف ذلك، ولكنه ظهر أنه كان هناك شيء من الالتباس فوسعه الخيال ثم تبدد هباء بموته. ١ / ٣٦٨



٣٢

كامل الحطاب

حاكمته سلطات الانتداب في سوريا بتهمة عدم وجود جواز سفر لديه، وحكمته ثلاثة أشهر، وقد سعى لدفع الغرامة بدلًا من السجن وقُبِلَ منه وأُفْرِجَ عنه، ولكن السلطات اعتقلته ثانية بحجة طلبه من السلطات الإنكليزية، وقررت المحكمة تسليمه فعلًا، ولكنه غافل حارسه في ظرف عودته من المحاكمة وفر ولحق به الدرك واعتقلته ثانية، وأُخِذَ إلى القلعة فضُرِبَ وعُذِّبَ وحُبِسَ في زنزانة ثم أرسل إلى عنبر الجورة، وكان فراره في ظروف انكسار فرنسة وعقدها الهدنة ولضياع السلطات الفرنسية أحكامها، فكان ذلك من أسباب عدم تسليمه للسلطات الإنكليزية ثم أُطلق سراحه. ٣/ ٨٨٧



٣٣

كامل القصاب

تعرفتُ عليه في العهد الفيصلي، وصار بيني وبينه صداقة حميمة، وتعاونّا وانسجمنا في مختلف المواقف والظروف إلى النهاية. وكان من الشخصيات العربية النشيطة. وكان رجلَ دين، وبضاعتُه الدينية لا بأس بها، وكان حافظًا للقرآن، ويعتمّ بعمّة أغبانية صفراء شأن كثير من علماء الدِّين في دمشق إلى اليوم، وكان مع ذلك من ذوي الروح العربية القومية، ومنتسبًا إلى جمعية الفتاة، ومن الساعين في سبيل تحقيق المطالب والحقوق العربية، والناقمين على الاتحاديين لمواقفهم المتعنتة من ذلك. وكان أنشأ في دمشق مدرسة حديثة ابتدائية وثانوية عربية لتعليم العلوم بالعربية وتنمية الروح القومية، وكانت مدرسة في البزورية قرب قصر العظم الأثري الكبير. وقد رأى رجال جمعية الفتاة تحميلَه رسالة شفوية لرجال الحركة في مصر، فوكّل المدرسةَ لمن يعتمد عليه، وسارع لأداء المهمة مجازفًا مخاطِرًا، وكان إذ ذاك كهلًا لم يتجاوز الأربعين، ولكنه عاد واعتُقل ثم أفلت، وخرج من دمشق أثناء الحرب، وبقي خارج البلاد طيلة مدة الحرب، يسعى مع رجال الحركة العربية في مصر وغيرها في سبيل الحقوق العربية.

ولما أعلن الملكُ الحسين (شريف مكة حينئذ) الثورةَ على الدولة العثمانية في حزيران [عام] ١٩١٦ ذهب وآخرون إليه، ولكنهم اختلفوا معه لأن ذهنية الملك وذهنيّتهم لم تنسجما، ورجع من مكة ناقمًا على

الحسين، وألّف مع آخرين من رجال سوريا في مصر حزبًا سمَّوه حزب الاتحاد السوري لأجل العمل على استقلال سوريا، وفي تصوُّرهم أن يكون خارج نطاق سلطان الملك الحسين، وكان من هذا الحزب مسلمون ومسيحيون، ومن الأولين: رفيق العظم وعبد الرحمن شهبندر، ومن الآخرين: ميشيل لطف الله وإسكندر عمون. ولما دخل الأمير فيصل دمشق مع رجال ثورته مع الكتائب الإنكليزية جاء الشيخ والشهبندر والعظم وعمون إلى دمشق، وجَرَتْ محاولاتُ توفيقٍ بينهم وبين فيصل، تنجح مرةً وتتعثّر مرة. ولما جئتُ إلى دمشق في حزيران [عام] ١٩١٩ ممثِّلًا لنابلس، تعرفتُ عليه، ومنذئذٍ صرنا أصدقاء متعاوِنين. وقد عاد إلى مدرسته، وزرتُها أكثر من مرة، وكان لها أثر ونشاط لا بأس فيهما. وقد نشط الشيخ في عهد فيصل نشاطًا كبيرًا، وألّف جمعية كبيرة سُمِّيت: اللجنة الوطنية للدفاع عن سوريا تجاه المطامع والدسائس الإفرنسية. ولمّا سقط العهدُ الفيصليّ، خرج مع غيره وجاء إلى عمّان، وكان اسمُه في عِداد الذين حكمت فرنسا عليهم غيابيًّا بالإعدام، وأرسل إليَّ دعوةً لأنضمَّ إلى رجال الحركة العربيّة الذين تجمّعوا في عمّان في ظروفِ قدومِ الأمير عبد الله، وذهبتُ ولم أُطِلْ إقامتي، حيثُ عدتُ إلى نابلس. وظلَّ هو مع غيره في عمّان مدة أخرى، واختلف مع عبد الله كما اختلف مع أبيه. وجاء إلى حيفا، ووثّق صلاتِهِ بالملك عبد العزيز آل سعود، وصار بمثابة وكيل له في فلسطين، وكان الواسطة بينه وبين رجال الحركة العربية الفلسطينية فيما تقتضيه ظروف العمل. وذهب مع وفد اللجنة العربية

العُليا إلى الرياض، وكنّا في عِداد هذا الوفد. وظل في فلسطين إلى أن عُقدت المعاهدة بين الكتلة الوطنية وفرنسا، وأُعلن عفوٌ عامّ عن المحكومين، وهو من الجملة، فعاد إليها، وكان قد تقدم بالسن، فأقام فيها دون نشاط كبير كعادته، إلى أن توفاه الله سنة **١٩٥٢**.

وقد التقينا مرارًا في دمشق في ظروف إقامتي فيها من سنة **١٩٣٧** وما بعد. وقد يكون له بعض التناقض في المواقف، ولكنه كان على كل حال من الشخصيات العربية المُخلصة لقوميتها ودينها أشد الإخلاص، والتي شغلت حيِّزًا كبيرًا في الحركة العربية، رحمة الله عليه. **١/ ٢٣٨**



٣٤

محمد الأشمر

جاء على رأس عصبة من المجاهدين السوريين، واشتركوا في ثورة فلسطين بمسعى محمد سليم أبي اللبن، وهو زعيم شعبي من حي الميدان أكبر أحياء دمشق المشهور بسمعته ونجدته العربية الريفية، والشيخ معروف منذ شبابه بالنخوة والنشاط والصلابة الوطنية والدينية، وهو متزي بزي العلماء الدينيين ولا بأس في ثقافته الدينية وإن لم يعد من العلماء البارزين، ولما اندلعت الثورة السورية في سنة **١٩٢٥** ضد الاحتلال الفرنسي تزعم عصبة من شباب حيه، وأخذ يجاهد في منطقة الغوطة في سبيل استقلال وحرية وطنه، وكان ذلك مما جعل له شعبية واعتبارًا في مختلف الأوساط، وقد استجاب لنداء الجهاد الفلسطيني، فجاء كما قلنا على رأس عصبة من رفاق جهاده الذين أبلوا البلاء الحسن في مشاركة إخوانهم الفلسطينيين في كفاحهم، فازدادت بذلك شعبيته واعتباره، وصار له ديوان مطروق في الحي يشرب الناس فيه القهوة، ويستعينون بالشيخ في قضاء حاجاتهم وحل مشاكلهم، ويستجيب هو بنخوته فيبذل ما يستطيع من جهد، ولما اندلعت ثورة فلسطين ثانية واستمرت في سِنِيّ **١٩٣٧** و **١٩٣٨** و **١٩٣٩** صار بيته ملاذًا لثوار فلسطين، وصار هو يبذل جهده في مساعدتهم ومساعدة الثورة، وتعرفت به في هذه الأثناء حيث كنت قد استقررت في دمشق وتوليت تأجيج الثورة وتعاونا معه وتزاورنا، وظللنا على تواثق بعد

الثورة وبعد الحرب العالمية الثانية، وظل هو معروف الاسم والاعتبار مسموع الكلمة في حيه وفي دمشق، وبعد الحرب العالمية الثانية صارت له ميول يسارية، حتى إنه صار رئيس ما يسمى لجنة السلام العالمي في سوريا ومنح جائزة من مجلسها العام، وقد توفاه الله في الستينات وأظنه قد بلغ السبعين أو نحوها رحمة الله عليه. ٢/ ١٣٢

تقرر نفيه إلى خربة غزالة لأنه قاد مظاهرة الفتنة النسائية التي قامت في دمشق، وذهب إلى منفاه يخفره صبري العسلي والحاج أديب خير وضابط من ضباط الدرك، وهذا الشيخ كان جاء على رأس جماعة من المجاهدين إلى فلسطين أثناء الإضراب سنة ١٩٣٦، وجاهد مع المجاهدين الفلسطينيين في الثورة التي اندلعت أثناء الإضراب، وكان قدومه قبل قدوم فوزي القاوقجي، وظل مع جماعته إلى نهاية الإضراب، وانسحب مع غيره من المجاهدين غير الفلسطينيين، ومشيخته ليست من كونه عالمًا دينيًا فهو ليس كذلك بالمعنى المعروف، وإنما لكونه معممًا يلبس جبة ومتدينًا، ولعله شيخ طريقة وهو من حي الميدان، وكان ممن اشترك في ثورة سوريا في الثلاثينات، وصار له اسم ونفوذ كبيرين في الميدان الذي هو أكبر وأقوى أحياء دمشق. وهو عجيب المظاهر؛ فمظهره الدائم مظهر متصوف ورع بيده سبحته ومواظب على الصلاة والصيام والتسبيح، ويمشي الهوينى كما يمشي المتصوفون الورعون، ويتكلم بالقرآن والأحاديث والمواعظ الإسلامية، وكان مساعدًا لمجاهدي فلسطين أثناء ثورة ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩ في دمشق بقضاء حاجاتهم وتدبير منازلهم

وتسهيل أعمالهم وغدواتهم وروحاتهم، وكان يرغب في الاشتراك فعلًا في الثورة كما فعل سنة **١٩٣٦** ولكنه لم ينشط نشاطًا جديًّا، وقد وصفه بعض إخواننا في الحكم السوري في عهد الاستقلال الأول **١٩٣٦ ـ ١٩٣٩** بالتحريك والمطامع والمطامح، وكانوا يخشون منه عمليات فتنة وتشويش، ويدللون على ذلك ببعض الوقائع، وكان من أنصار معارضي الكتلة ورجالها في العهد المذكور، هذا ما جعل إخواننا يتوجسون منه، وقد كان بيني وبينه تعاون وصلات وعلاقات حسنة بسبب مواقفه الحسنة في ظروف جهاد فلسطين، وقد عرف ذلك شكري القوتلي الذي كان من أركان حكومة ذلك العهد، فطلب مني أن أنصحه بعدم الغلو في مناصرة معارضي الكتلة الوطنية صاحبة هذا العهد، فتكلمت معه وحاول التنصل مما نسب إليه غير أنه ظل في موقف المعارضة والمناصرة للمعارضة، ثم كان له صلات حسنة مع حكومة بهيج الخطيب التي أقامها الفرنسيون على أنقاض حكومة الكتلة بعد أن نكثوا في معاهدة سنة **١٩٣٦** الاستقلالية، وكان الخطيب عميلًا للفرنسيين أكثر منه موظفًا سوريًّا، وهو في أصله لبناني من أقارب الشيخ فؤاد الخطيب الشاعر السياسي، والذي عمل في ديوان عبد الله بن الحسين في بدء نشأة إمارة شرقي الأردن، وكان قبل ذلك مقربًا من الشريف حسين في مكة، وكان يطلق عليه شاعر الثورة العربية، والمعروف في مواقفه المتقلبة أثناء الدولة العثمانية وبعدها، وكان بهيج يدس ويمكر ويكيد للكتلة ورجالها، وهذا مأخذ صحيح على الشيخ الأشمر.

ثم ظاهر الشيخ تاج [الدين الحسني] الذي كان هو الآخر شديد التواثق مع الفرنسيين، وكان ذهب إلى باريس وأقام فيها أثناء العهد الاستقلالي، ولما اشتد الخلاف بين الفرنسيين ورجال هذا العهد، ونقض الفرنسيون معاهدة الاستقلال، وأعادوا عهد الانتداب في أواخر سنة **١٩٣٩** وسنة **١٩٤١** وأقاموا حكومة بهيج الخطيب، عاد الشيخ تاج إلى سوريا والعمالة باستدعاء من الفرنسيين واستمرت مظاهرته له حينما عينه الفرنسيون رئيسًا للجمهورية أثناء الحرب، ثم ظاهر بالتبعية للحكومات التي كانت في عهد رئاسة جمهورية التاج، وهذا أيضًا مأخذ صحيح على الشيخ الأشمر.

فرجال الكتلة يظلون على كل حال أنقى وطنية وإخلاصًا من جماعة الشيخ تاج وبهيج الخطيب والمعارضة المتنوعة الفئات والميول، والظاهر أنه استمر في خطة المعارضة للكتلة والتعامل مع معارضيها أثناء عهدها الجديد برئاسة شكري القوتلي وسعد الله الجابري وإخوانهم، والظاهر أنه كان له يد في فتنة الحفلة النسائية الخيرية في نادي الضباط الفرنسي، فرجت حكومة الكتلة فرض إقامة جبرية عليه في دير غزالة.

أما مصاحبة صبري العسلي والحاج أديب له فهي على الأغلب من قبيل التهدئة والتكريم والتطييب للشيخ وأنصاره العوام الكثيرين في الميدان، وهما من رجال العهد وأنصاره، وصبري خاصة من المختصين بشكري. **١٥٨/٥**



٣٥

محمد الحجازي

من إربد وقد تخرج من كلية الطب في سوريا طبيب أسنان، وكان من شباب الأردن القوميين النشيطين في العمل السياسي المعارض لسياسة الأمير عبد الله، ويعمل مع الدكتور صبحي أبو غنيمة الذي كان ينشط في معارضة سياسة الأمير هو الآخر، وكنا نتعاون معًا في دمشق ونكلفه مع آخرين بشراء السلاح ومهمات داخلية أخرى، وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية عاد إلى الأردن وظل قويم السلوك والشعور الوطني، وقد توفي في الخمسينات أو الستينات. ٣/ ٣٥٥



٣٦

محمد علي دروزة

أخي أصغر مني بسبع أو ثماني سنوات، وكان شديد الشكيمة حديدي المزاج منذ صغره، وحينما صار فتيًّا انفعل بالحركة العربية وظل منفعلًا بالتيار العربي.

في سنة ١٩١١ دخل بعد إنهائه المدرسة الابتدائية للمدرسة الإعدادية، واتفقت مع أبي على إرساله إلى مدرسة دار المعلمين في بيروت، وكان عمره نحو خمس عشرة سنة. وكانت المدرسة حكومية داخلية ينام الطالب ويأكل ويتعلم مجانًا، ولا يتكلف إلا بمصروفه الشخصي، وكان نحو نصف ليرة ذهبية في الشهر، وكنا نرسله إليه في البريد أو محولًا على عميل أبي. ولقد كان للحركة المطالبة بالحقوق العربية شيء من الأثر في نفس أخي من نابلس، فقامت في بيروت أثناء وجوده الحركة الإصلاحية البيروتية، التي فصّلتها في كتابي «نشأة الحركة العربية الحديثة»، فانفعل وبعض رفاقه من الطلاب بسبيلها، وصار يقع بين فريقه من ناحية وبين بعض الطلاب الترك ومعلمي المدرسة من ناحية مشادّات ومهاترات، فعاقبته المدرسة بالطرد لسبعة أيام كإنذار نهائي. فعلمتُ بذلك، فسافرت إلى بيروت، وكان فيها زكي التميمي، وأنا أعرفه من نابلس، وكان في وظيفة معاون للوالي تمهيدًا لتعيينه قائمقامًا، فاجتمعت به وبمعين الماضي وعادل العظمة، وكانا مثله معاوِنَين للوالي تمهيدًا لتعيينهم للقائمقاميات، وقصصتُ

عليهم قصة أخي، وكانوا منفعِلين بالحركة العربية أيضًا. وقد بذل الثلاثة جهودهم حتى سُوِّيَت مشكلة أخي وعاد إلى مدرسته، وظل منسجمًا فيها.

وفي سنة ١٩١٥ نُقلتْ مدرستُه إلى دمشق بمناسبة الحرب، وكان على وشك التخرج. والتقيت به في دمشق، فأخبرني أنه وردتْ أوامر بتجنيدهم للخدمة الاحتياطية التي كان يجند فيها شباب المدارس العالية ليصبح الطلاب ضباطًا احتياطيين في الجيش. وكان شباب العرب أخذوا ينفرون من الخدمة العسكرية في ظل الحكومة القائمة التي تتنكر للحقوق العربية، والتي أخذت تطارد شباب العرب وتعتقلهم وتحاكمهم، فطلبتُ منه أن يختفي، وكنت إذ ذاك في وظيفة تسمى مأمور احتياط جوّال على الشواغر في مراكز البرق والبريد، وكانت لي كلمة مسموعة عند رئيس المديرين، فكتبتُ له برقية أرشّح أخي فيها لوظيفة في دائرة البرق، إذ كان أثناء وجوده في المدرسة الإعدادية في نابلس يتردد على دائرة البرق والبريد ويتدرب الضرب على الآلة، وصار ذا مهارة لا بأس فيها، كما كان موظفو البرق والبريد يُستَثنَون من الجندية. وتلقيتُ في ثاني يوم جواب رئيس المديرين بالموافقة على تعيينه مأمورًا إلى يافا، فسلّمتُه البرقية وطلبتُ منه السفر سرًّا إلى يافا دون التعرج على نابلس، فلما بحثتْ دائرة التجنيد والمدرسة عنه كان قد استلم الوظيفة وتحصّن بها عن الجندية. ثم نقلناه إلى نابلس، ثم نقلناه مديرًا لمديرية مركز جنين. وقد استحضرتُ إلى بيروت قسمًا من الأسرة: زوجتي أم زهير ووالدي

وشقيقتي وابني زهير الذي كان يحبو، وقسم من الأسرة بقي معه، والدتنا وابنة عم لنا، إلى نهاية الحرب، وبعد ذلك [التأم] شملنا في نابلس.

وفي ١٩٢٠ جاء أخي إلى دمشق، وكنتُ فيها عضوًا في المؤتمر السوري في الهيئة المركزية للجمعية العربية الفتاة التي كانت صاحبة النشاط والتأثير في عهد فيصل، واختارتْه الجمعية لعضويتها كما كانت تفعل مع أمثاله من الشباب النشيطين. وذلك الوقت عينتِ الحكومة الإنكليزية هربرت صموئيل اليهودي أول مندوب سامٍ لفلسطين، وأثار ذلك غضب الحركة القومية في فلسطين ودمشق، فعهدتْ إليه الهيئة المركزية للجمعية العربية الفتاة بتدبير عملية احتجاجية مسلّحة على حدود فلسطين، فأدّى المهمة بواسطة بعض أشخاص وطنيين على حدود سمخ، فكانت أولى الحركات المسلحة ضد الاحتلال والصهيونية، وكان المخطط لها أن تستمر، ولكن قِصَر عهد فيصل وتوتر حالة دمشق مع الإفرنسيين وسقوط العهد الفيصلي حال دون ذلك.

وعلى أثر سقوط العهد الفيصلي عدنا جميعًا إلى نابلس، وقد عملنا مع بعض رفاقنا بالتجارة وأسسنا شركة تجارية، كما تقدم أخي لتأدية امتحان للحصول على أهلية التعليم، فحصل عليها، وتعين نتيجة لذلك مديرًا لمدرسة وقفية في نابلس، هي مدرسة العرفان، واندمجتْ في ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨ بمدرسة النجاح الوطنية، وصار معلمًا فيها إلى ١٩٣٢. كذلك فقد بدأتْ بعد الاحتلال مباشرة حركة المناوأة للصهيونية وللاحتلال الإنكليزي في فلسطين، فانفعل بها أيضًا مع

رفاقه بإنشاء النادي العربي الذي كان بؤرة ومظلة الحركة الوطنية في نابلس، وكان لولبها ونشط نشاطًا كبيرًا، يقيم الحفلات والمهرجانات، ويغذي الإضرابات والمظاهرات في المناسبات المتنوعة، وقد تعرض نتيجة لذلك لمطاردات واعتقالات ومحاكمات عديدة، وسجن من قبل السلطة. ولما أنشأنا حزب الاستقلال الفلسطيني في **١٩٣٢** انتمى إليه عضوًا عاملًا، وكان أحد أعضاء فرع الحزب في نابلس.

وفي أواخر **١٩٣٢** قررنا أن الأفضل والأضمن لنا جميعًا أن يستقيل من المدرسة ويذهب لإنشاء عمل تجاري في عمّان. وكان بعض أهل نابلس وبعض أقاربنا قد أخذوا يُنشئون أعمالًا تجارية في عَمّان، التي صارت بعد قيام الإمارة فيها مجالًا للنشاط التجاري، وقد دبّرنا رأس مال متواضع للعمل دَينًا من البنك العربي وصندوق الأيتام، وسددتُه مشاهرة من ريع كتب مدرسية كانت لي يتولى أمر طبعها وتوزيعها السيد محمود عيسى الصفدي صاحب المكتبة في حيفا. ولقد ظل أخي ينفعل بالحركة الوطنية، وكان متضامنًا في ذلك مع الدكتور صبحي أبو غنيمة وعادل العظمة والدكتور محمد حجازي وطاهر الجقة والدكتور قاسم ملحس وصدقي القاسم وغيرهم. وكان يتعرض للتنكر من جانب السلطات الأردنية الإنكليزية، لأن حركة المناوأة في فلسطين كانت تنعكس على شرقي الأردن أيضًا.

وفي سنة **١٩٣٧** اشتدت حركة الكفاح في فلسطين، واشتد انعكاسها على الأردن، واشتد نشاط وانفعال أخي فيها، فألجأته السلطات إلى الخروج منها إلى دمشق، حيث كنتُ فيها أمارس إدارة

الثورة الفلسطينية بعد أن اشتعلت في أواخر **١٩٣٧**. وقد كان مساعدًا لي في كثير من الأعمال، وقام ببعض المهمات الخطيرة بسبيل ذلك. ولقد كان يأتيني بعضُ المال من كتبي المدرسية، وخاصة من كتاب «دروس التاريخ العربي» الذي قررتْه حكومة العراق آنذاك، فكان يشتغل ببعض أشغال تجارية ببعض هذه المبالغ، ويرسل بعضها إلى عَمّان لتقوية المحلّ التجاري فيها، الذي ترك فيه ابني عمي بديعًا وأخاه.

وظل الأمر على هذا المنوال إلى أواسط **١٩٣٩**، حيث توتر الجو في أوربا منذرًا بحرب عالمية ثانية، وكانت فرنسا وبريطانيا في صف واحد، فضغطت بريطانيا على فرنسا التي كانت تحتل سوريا بقمع أسباب استمرار الثورة في فلسطين. وكنا نتمتع بشيء من الحرية في العمل في ظل الحكومة الوطنية القائمة في سوريا آنذاك، وكانت الحالة في ذلك الوقت قد أخذت تسوء، فاعتقلتني السلطات الفرنسية واعتقلته معي، ثم أفرجت عنه دوني، ولكنها أرسلته إلى تدمر لإقامة إجبارية، ثم أبقته تحت مراقبتها وترصدها. وظللتُ في السجن وظل هو تحت الترقب والترصد إلى أن استسلمت فرنسا للألمان وعقدت الهدنة بينهما. فانفرج الأمر بعض الشيء في سوريا، وأُطلق سراحي، وخف الترصد عن أخي. ولكنا ما لبثنا أن فوجئنا بالغزوة الإنكليزية إلى سوريا، وكان الإنكليز قد اعتقلوا في العراق وفلسطين كثيرًا من رجال الحركة، فاعتقدنا أننا إذا وقعنا في يد القوات الإنكليزية فسيكون مصيرنا الاعتقال والنفي، ففضّلنا اللجوء إلى تركيا أنا وهو في

أواسط **١٩٣٩**، وبقينا هناك خمسين شهرًا. ثم عدنا إلى دمشق، وفي أثناء ذلك بارك الله في العمل التجاري في عمّان، وعقدنا شراكة بين أخي وبين ابن عمه، كما أنشأ أخي محلًّا تجاريًّا في دمشق صار فرعًا ثانيًا للعمل التجاري في عمّان. وفي سنة **١٩٦٥** أنشأت الشركة فرعًا ثالثًا في بيروت، استلم إدارته ابن أخي مجاهد. وفي غضون ذلك أخذ يطرأ على أخي أعراض متنوعة في عينيه وأمعائه، وأُجريت له عملية جراحية، وظلت حالته تسوء إلى أن وافاه أجله في آذار **١٩٦٩**. وكانت فجيعتي فيه عظيمة، لأنه كان لي أكثر من صديق وأكثر من أخ، فقد عشنا معًا حياة هانئة منسجمة في نابلس وفي دمشق يُضرَب بها المثل. وحينما صار يعاني من أمراضه فاتحني في أمر الشركة التجارية، وقال لي: إنه يحب أن يكون جميع أولاده وأولادي سواء، فحبذتُ له ذلك لأننا كنا شيئًا واحدًا في كل شيء، وهكذا جاءت وصيته على هذا النحو.

ولقد كان أخي متفتحًا متحررًا بارًّا شفوقًا متأجج العاطفة، يحب الخير ويعمل ما يقدر عليه. وكان شديدًا في الحق، وقوميًّا مستقيمًا في تعامله. محبًّا للمطالعة ذوّاقًا للأدب، رحمة الله عليه. **١/ ٢٠٢**

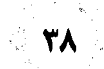




محمود البيروتي

التقيته بعد اعتقالي من قبل سلطات الأمن في سوريا عقب إعلان الحرب من رفاقنا في العنبر، وهو نمط آخر من جماعة الكتلة، فهو شبه عامي من ناحية العلم والمعرفة، ولكنه على ما يظهر يؤدي وظائف لا بد من أدائها في تشكيلات الأحزاب ومظاهرها وناجح فيها، فهو نشيط وذو حركة وله اتصالات بالشباب والقبضايات، كما يحسن الإشراف على تنظيم الحفلات والاجتماعات والمظاهرات وبث الدعاية بين صفوف العوام، وكان بسبب ذلك كله على ما يظهر بارزًا بين الثانويين من الكتلة، وكان يُتَّهم بأنه ينتفع من نفوذ الكتلة وحكومتها انتفاعات مادية وخاصة بعض الالتزامات والتعهدات، وكان من أجل ذلك كله موضوع حملة شديدة من خصوم الكتلة، وقد تعاشرنا معه وتحاببنا وإن لم يصل الأمر إلى صداقة حميمة، وظللنا على ذلك إلى ما بعد السجن، والتزم منشية البلدية في دمر وأحسن إدارتها واستثمارها وصار ميسورًا نوعًا ما، وصار صاحب فندق في بقين، وأظنه توفي في الستينات. ٣/ ٩٠٧





٣٨

مصطفى الشهابي

هو أخو الشهيد الأمير عارف وأصغر منه، وقد درس الزراعة في جامعة فرنسا وصار ذا خبرة واسعة فيها، كما كان ذا رسوخ في اللغة العربية وفنونها وتاريخ العرب والإسلام بحيث يمكن القول: إنه كان من علماء العرب المعاصرين فضلًا عن أنه علم الشهابيين، وكان مثلهم قوميًّا أبيًّا مستقيمًا مع شيء من الجفاف والترسم، وقد تعرفنا به في عهد فيصل وتوثقت صلة الصداقة بيننا، وتولى وظيفة عالية في وزارة الزراعة في هذا العهد، وبقي في وظيفته بعد غزو فرنسا لسوريا، وسكتوا عنه لأنه لم يكن له نشاط سياسي شديد ومعاد لهم، وظل محتفظًا باستقامته وروحه القومية دون أي انحراف وتعاون معهم، مع استمراره في الدراسات العلمية العربية والزراعية، وحينما رضخت فرنسا وقررت مفاوضة الكتلة الوطنية لعقد المعاهدة الاستقلالية تألفت حكومة جديدة موالية للكتلة وغير معادية لفرنسا برئاسة عطا الأيوبي، فدخل فيها وزيرًا للمعارف، وذهب مع الوفد المفاوض الذي أنجز عقد المعاهدة، وفي عهد الاستقلال الأول [عام] ١٩٣٦ والثاني [عام] ١٩٥٤ تولى مناصب حكومية عالية في نطاق اختصاصه دون الوزارة، وكان سفيرًا لسوريا في مصر، ثم صار عضوًا في المجمع العلمي العربي فرئيسًا له، وظل في هذا المنصب إلى أن توفي سنة ١٩٥٦ رحمة الله عليه.

وبقينا أصدقاء متواثقين نتزاور من آن لآخر، لأني اتخذت دمشق دار إقامة منذ سنة ١٩٣٧ إلى [سنة] ١٩٤١ ثم بعد عودتي من تركيا [سنة] ١٩٤٥حتى وفاته، وقد رشحني لعضوية المجمع العلمي العربي في مصر وتم انتخابي لها. وقد ألف كتبًا عديدة في الزراعة والاجتماع والقومية العربية والاستعمار، وحاضر في معهد الدراسات العالية في مصر، وكان ينشر مقالات وأبحاثًا علمية ولغوية واجتماعية مفيدة وبليغة في مجلة مجمع دمشق ومجمع القاهرة ومجلات أخرى. ١/ ٣٦٨



٣٩

منير الريس

من حماة وهو ابن عم نجيب الريس صاحب جريدة القبس، وكان منذ نشأته وطنيًّا متحمسًا، والتحق في شبابه بالثورة السورية عام ١٩٢٥ وظل يجاهد في مختلف ميادينها ويبلي بلاء حسنًا إلى أن توقفت الثورة واستمر يعمل مع العاملين في الميدان الوطني وفي الصحافة، وفي ثورة الإضراب الفلسطيني [عام] ١٩٣٦م. جاء إلى فلسطين واندمج في ثورتها وعمل مع [فوزي] القاوقجي، ثم رجع إلى سوريا واندمج في العهد الاستقلالي واشتغل في الصحافة، وظل على خطه الوطني المستقيم طيلة العهد، وحينما نكثت فرنسا بالمعاهدة حاولت أن تحكم سوريا حكمًا انتدابيًّا استعماريًّا، وقام عهد كفاح ضدها في سنة ١٩٣٩ اندمج فيه بقوة، وتعرض مع كثير من رفاقه للمطاردة والأذى والسجن، وكان على خطه الوطني في العهد الاستقلالي الجديد ١٩٤٣ ـ ١٩٤٩م. وكان في إبان الانقلابات العسكرية ١٩٤٩ ـ ١٩٥٢ على خطه الوطني القويم، ثم اندمج في العهد الاستقلالي الثالث ٥٥ ـ ٥٨ وأصدر جريدة بردى التي كانت على خطه القومي الوطني المستقيم الصلب، وكانت له مواقف شديدة إبان انفصال الوحدة السورية، وقد كتب كتابين كمذكرات عن بلائه في الثورات الوطنية وعن الثورات نفسها، وأهداني أولهما في سنة ١٩٢٧ وثانيهما سنة ١٩٧٧ وما يزال حيًّا محتفظًا بروحه الوطنية القومية المستقيمة. ٣/ ٢٠٦



مهدي مرتضى

التقيته بعد اعتقالي من قبل سلطات الأمن في سوريا عقب إعلان الحرب، كان في العنبر قبلنا وهو شيعي وشريف، وكان يتولى إدارة مكتب الكتلة، وكان من رجال أو شباب الكتلة الثانويين البارزين الذين يعتمد عليهم رجال طبقتها الأولى، وهو في نحو الأربعين، متروٍّ ومتزن ومنظم، وكان يشتغل في التجارة قبل التفرغ للسياسة، ويظهر أن حالته المالية رقيقة، فترك التجارة وتفرغ للسياسة، وأخلاقه دمثة وحسن العشرة، وله اطلاع على كتب الأدب والاجتماع حيث يحفظ ويورد كثيرًا من الشعر والنكتات الأدبية، وذو خبرة في البلد وأحيائها وتجارها وانتخاباتها إلخ. . . وكان من أجل ذلك موضوع صلة شديدة من خصوم الكتلة، وكان محسودًا على مركزه وبروزه من بعض السائرين في فلك الكتلة من أمثاله، وروح التعصب الطائفي ضعيفة لديه، وهو من المروجين للتغلب عليها بين مختلف الطوائف الإسلامية والمدركين بأن الفروق بين السنة والشيعة هي من حوادث السياسة منذ زمن طويل انتهى أمرها وانطوى بساطها، وقد قال لي: إن الفرنسيين أرادوا إنشاء محكمة شرعية شيعية في دمشق أسوة لما في لبنان، وإنه عاكس ذلك ونجح في معاكسته، وفهمت أن الشيعيين في دمشق يعدون نحو خمسة آلاف وأنهم عرب، وفيهم كثير من الأشراف، وهو من الشيعة الإمامية التي هي والشيعة الزيدية أكثر طوائف الشيعة اعتدالًا وإسلامًا، حيث تعتقد بنبوة محمد ﷺ والقرآن، وتمارسان

جميع شعائر الدين بشيء من الفروق الفرعية فيها بناء على اجتهادات مجتهديها ، والزيدية تفضلها من حيث إنها تقول بصحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وصحة خلافة المفضول مع وجود الأفضل ، وأن عليًّا هو الأفضل ، ولكن خلافة الثلاثة قبله صحيحة ، وهذا خلافًا للشيعة الإمامية السابقة التي تعتقد أن عليًّا هو الوحي الذي كان يجب أن يتولى ، وأن الثلاثة الذين قبله افتأتوا عليه ، وسايرهم الجمهور الأعظم وأصحاب رسول الله من أنصار ومهاجرين . وقد تواثقت الصداقة بيني وبينه إلى ما بعد السجن ، وكنا نتبادل السلام واللقاء والحديث الصفي ، وأظنه صار رئيس ديوان مصلحة الفيجة أو رئيس حساباتها ، وقد توفي في الستينات .

وفاتني أن أذكر أنه حدثني عن شيخهم الكبير الشيخ حسن الأمين ، ويلقبونه بالمجتهد على عادة الشيعة في كبار علمائهم ، وقال لي : إن نزعته طيبة وعلمه واسع ، وإنه هو الآخر من المروجين للتغلب على الروح الطائفية والمدركين لتاريخها والقائلين بانطواء بساطها ، وإن له مؤلفات عديدة ، وقد أحضر لي المجلد الأول من كتاب ذي مجلدات عديدة ضخمة في مشاهير الشيعة ، يظهر فيه جهده العظيم وسعة اطلاعه وتبحره ، والمجلد الأول هو مقدمة للكتاب ، وفيه أبحاث عديدة عن الشيعة وعن خطأ النظرة التي ينظر بها إليهم ، وعن كونهم لا يفرقون عن السنيين من ناحية الإسلام وأصوله وتشريعاته في شيء ، وعن الحوادث التي أدت إلى الانقسام الطائفي ، وعن ضرورة العمل من قبل السنيين والشيعيين معًا للتغلب على روح الانزواء والتهجم. ٣/ ٩٠٧



موسى كاظم الحسيني

سمعتُ في صدد لقب الباشا أنه كان متصرفًا، أو وكيلًا لمتصرف، في زمن الدولة العثمانية، فجاءه اللقب من هنا. وهو طويل القامة، وكان متقدِّمًا في السن حينما قابلنا في بلدية القدس، وهي المرة الأولى، وتبدو عليه الطيبة والبساطة. ولقد كان أخوه سليم رئيسًا للبلدية قبله، فحل محله بأمر من الحكومة العثمانية في أواخر عهدها، ووقع احتلال القدس وهو في المنصب، فسكت المحتلون عنه. ومن المحتمل أن ذلك حصل لأنه لم يَبدُ منه أي موقف ضدهم، وأنهم عرفوا أن لأسرته مكانة اجتماعية وسياسية، فقد كان منصب الإفتاء فيها، وكان منها نائب في المجلس النيابي العثماني، وهو سعيد بك، وكانت رئاسة البلدية فيها. وحتى موسم النبي موسى في نيسان [عام] ١٩٢٠ انقلب مهرجان المسلمين كالمعتاد إلى مظاهرة وطنية، تهتف بسقوط الإنكليز ووعد بلفور، ورفض الهجرة اليهودية، نتيجة لما ذاع وشاع عن مطامع اليهود وورودهم، وما بدا من نشاطهم. وسارت المظاهرة في شوارع القدس، حتى جاءت إلى بناية البلدية، وخرج إليها موسى كاظم، وتحمَّس وألقى كلمة في المتظاهرين، بارك فيها مظاهرتهم، وأيَّد مطالبهم، ثم سارت فوقفت في موقف آخر، خطب فيه الحاج أمين الحسيني، وعارف العارف، خطبتين حماسيتين، فزاد الحماس والهياج، وأدى إلى اصطدام بين العرب واليهود والبوليس،

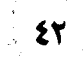
وهو أول اصطدام دموي في فلسطين، واستاءت السلطات التي كانت انقلبت إلى مدنية، وقام على رأسها هربرت صموئيل اليهودي الإنكليزي مندوبًا ساميًا، فأقالته، وعيَّنتْ راغب النشاشيبي مكانه. ومنذئذ صار راغب زعيم الموالين للسلطات الإنكليزية، وموسى كاظم زعيم الحركة الوطنية.

وقد بدأ بروزه في الزعامة الوطنية بنوع خاص في المؤتمر الذي عرف بالثالث، والذي انعقد في حيفا في كانون الأول [عام] ١٩٢٠ بعد سقوط العهد الفيصلي، للنظر في الموقف الجديد الذي صارت تواجهه فلسطين بعد هذا السقوط. فقد اختير رئيسًا للمؤتمر إبّان انعقاده، ثم اختير رئيسًا للجنة التنفيذية التي انتخبها المؤتمر، ثم استمرت رئاسته التلقائية للمؤتمرات الرابع والخامس والسادس، وللجانها التنفيذية. وترأّس الوفد الأول الفلسطيني، الذي قرر المؤتمر الرابع إيفاده إلى لندن. والوفد الثاني الذي قرر إيفاده المؤتمر السادس، والوفد الثالث الذي قررت إيفاده اللجنة التنفيذية للمؤتمر السابع. ولم يكن ذا حزم كاف لضبط الجلسات والمداولات، ولم يكن يحسن الخطاب ولا الكلام المنمق الطويل. وكان صافي القلب والسريرة، مخلصًا في وطنيته، وكان وقار شيخوخته وطيبته وبساطته وعدم عنفه مما جعل الناس يحبونه ويحترمونه، ولقد قررت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السابع إقامة مظاهرات بدون ترخيص في سنة ١٩٣٣، حينما اشتد تدفق الهجرة، ونكثت الحكومة الإنكليزية بوعودها بوقفها، فكان في طليعة الذين مشوا فيها في القدس، مع قسم كبير من أعضاء اللجنة أولًا، ثم في يافا ثانيًا. وقد وقع في أثناء

مظاهرة القدس نتيجة لما كان من زحام وصدام بين المتظاهرين والبوليس، وأصابه شج صغير في جبهته، ولقد توافد أعضاء اللجنة إلى بيته بعد مظاهرة القدس، وقرروا متابعة تنفيذ قرارهم، وإقامة مظاهرة ثانية في يافا، فكان من الموافقين رغم ما تعرض له في مظاهرة القدس. وجاء إلى يافا في الموعد المحدد، ومشى في طليعتها، وكان في اصطدام دموي كبير. وفي سنة **١٩٣٤** توفي، مودَّعًا باحترام الشعب وإجلاله. رحمة الله عليه.

ولم تكن صلتي به حميمة لفارق السن الكبير، ولكني كنت ألتقي به كثيرًا، أو أتحدث معه في اجتماعاتنا المشتركة في المؤتمرات واللجان التنفيذية، وكنت أكنّ له محبة واحترامًا، لسلامة نيّته، وطيبة قلبه، وصافي وطنيته. وكنتُ أشعر أنه كان يبادلني ذلك. **١/ ٣٣٥**





٤٢

موفق الطباع

التقيته بعد اعتقالي من قبل سلطات الأمن في سوريا عقب إعلان الحرب وهو من دمشق، وهذا الشاب عجيب فقد حدثته نفسه وهو لما يبلغ السادسة عشرة من عمره بالالتحاق بثورة فلسطين الأولى لسنة ١٩٣٦ واستطاع أن يتناول بعض المال من مخزونات أبيه في البيت ويشتري بعض الثياب ومسدسًا، ثم ذهب إلى درعا مع رفيق له، وعلم به أبوه وأرسل شخصًا وراءه، فأعاده إلى دمشق، ولكنه ظل متهوسًا بهوسه واستطاع أن يخرج ثانية من دمشق وأن يتسلل إلى فلسطين حتى وصل إلى قيادة أبي كمال في جبهة طولكرم، ولبث عنده نحو شهر، ورأى أبو كمال آثار الجهد والتعب عليه فأعاده إلى دمشق، ويظهر أنه استشعر في نفسه بعد هذه العملية بشيء من الفتوة، فلما كانت مظاهرات وتوترات دمشق عام ١٩٣٩ ونزلت الدوريات الفرنسية تطوف في الشوارع للإرهاب. هاجم موفق جنديًا فرنسيًا أو سنغاليًا ـ لا أذكر ـ واختطف منه بندقيته، وقد لحق به الجند فاعتقلوه، وقدم للمحاكمة العسكرية وحكمت عليه بالإعدام، ثم أبدل الإعدام بالمؤبد أو بسجن مئة سنة وسنة، وقد ضرب أثناء اعتقاله ضربًا مبرحًا إلى حد الإغماء والخطر انتقامًا من جرأته، ورغبة في حمله على الاعتراف بمن يحرضه ويحرض أمثاله الفتيان، ولكنه صمد. وكان مثال الآداب الحسنة والحشمة والوقار، كثير المطالعة لا يكاد يترك الكتاب من

يده، وصار المتحدث معه يشعر بنضوجه ووفرة معلوماته المتنوعة، ولقد وضع في أول سجنه في عنبر الأحداث لأنه ما يزال دون الثامنة عشرة، وسعى حتى أمكن نقله إلى عنبرنا الذي كان يعد ممتازًا وبقي نحو شهر ونصف، ثم بدا لإدارة السجن أن تعيده إلى القسم الداخلي بحجة أنها تلقت أمرًا بأن يكون المحكومون بمدد طويلة في هذا القسم، وقد أحببت الشاب وصرنا أصدقاء واستمرت صداقتنا إلى ما بعد السجن. ٣/ ٨٨٤





ناجي شوكة

شاب عراقي شيعي ذو روح قومية ووطنية قوية، وكان طبيبًا في وزارة المعارف، فدخل الوزارة لأول مرة بصفته الشيعية ولروحه الوطنية والقومية، ولم يكد يباشر عمله في الوزارة لأنه بعد أيام قليلة من تعيينه مرض وجاء إلى بيروت ودخل المستشفى، وظل فيها إلى أن انهارت المقاومة العراقية، فجاء من بيروت إلى الآستانة، وقد تعرفنا عليه وصار بيننا وبينه مودة وانسجام. ٤/ ١٣٠





نبيه العظمة

دمشقي، ابن عزيز الذي كان متصرفًا في نابلس قبل إعلان الدستور. شقيق عادل، وهو أكبر منه ببضع سنين أو سنتين، وقد انتسب إلى الكلية الحربية في الآستانة، وتخرّج منها وصار ضابطًا في الجيش، وهو ذو إرادة قوية وشخصية قوية وعنيد، ويميل إلى فرض نفسه ورأيه، وينجح في ذلك أحيانًا، ولكنه لم يكن مرنًا تتقبّله النفس، ولا واسع الأفق كأخيه عادل. وثقافته المدنية ضيّقة، وقد تقلّد بعض الأعمال الإدارية في أثناء الحرب، وأثبت كفاءة وإستقامة، وروح ضبط وتدبير، وصار له تقدير وحرمة، وأظن أنه لم يصل إلى أكثر من بينباشي (مُقدَّم). وبعد نهاية الحرب اندمج في العهد الفيصلي والحركة العربية، وعُيِّن مديرًا للأمن العام في حلب، وكان ذا نشاط وكفاءة وعزم، ولم يكن لنا حظ التعرف عليه أثناء هذا العهد، لأنه لم يكن يقيم في دمشق أثناء إقامتنا فيها، وإنما تعرفنا عليه وتعاونّا وتصادقنا بعد سقوط الحكم الفيصلي، وكان ممن خرجوا من دمشق إلى عمّان، وممن حكم عليهم الفرنسيون بالإعدام غيابيًّا. وتعرّفنا به في عمّان حيث جئنا وأقمنا فيها نحو شهر حينما جاء إليها الأمير عبد الله ابن الشريف الحسين، ورجعنا نحن إلى فلسطين وبقي هو في عمّان يعمل في الحكومة حينًا ومعارضًا لها حينًا. وكان قويًّا نشيطًا دؤوبًا دائمًا مع صرامة.

واختلف هو وإخوانه الاستقلاليون المتواجدون في عمّان مع الأمير عبد الله ابن الشريف حسين بسبب تصرّفاته ومواقفه السياسية وغير السياسية التي رأوها غير سليمة، واشتدت معارضتهم له، فشكاهم الأمير إلى والده الملك حسين، فاستدعاهم إلى مكة، ولم يكن لهم مناص من الذهاب، فذهبوا وأقاموا في مكة إلى أن وقع الهجوم السعودي على الحجاز، وأحدق الخطر بمكة والعرش الهاشمي، حيث غادروها.

وجاء نبيه إلى فلسطين، وعاش فيها ونشط نشاطًا كبيرًا أثناء الثورة السورية **١٩٢٥ ـ ١٩٢٧**، ثم استمر في فلسطين إلى سنة **١٩٣٦**، وكان يندمج معنا في جهودنا في سبيل الحركة الوطنية الفلسطينية والعربية، وصار سكرتيرًا مساعدًا في مكتب المؤتمر الإسلامي، ولكنه لم ينسجم انسجامًا تامًّا مع رئيسه الحاج أمين، واستقال. وكان له نشاط ناضج في معرض تجاري صناعي أقيم في فلسطين سنة **١٩٣٢** باسم «المعرض العربي» بمسعى أحمد حلمي عبد الباقي مدير بنك الأمة وغيره، أثبت فيه قدرته على التنظيم وحزمه في الإدارة والعمل. وحينما أنشأنا حزب الاستقلال في فلسطين؛ كان من محبذي إنشائه، واندمج معنا في كل مواقفنا كأنه أحد مؤسسي الحزب، ولكنه لم يكن معدودًا رسميًّا كذلك، لأنه كان سوريًّا وضيفًا.

واشترك في المؤتمر العربي الذي عقد في القدس، وقرر عقد مؤتمر عربي عام، وانتخب لجنة تحضيرية لذلك، وكان مندمجًا في نشاط هذه اللجنة كأنه واحد منها. وحينما كان الإضراب الطويل في

فلسطين سنة ١٩٣٦ اعتقلته السلطات الإنكليزية في صرفند معنا ومع كثير غيرنا، لِمَا كان يبدو منه من نشاط جمّ في سبيل الحركة الوطنية القومية، ولما انتهى الإضراب سُرّح وعاد إلى سوريا، إذ كانت أُبرمت المعاهدة الفرنسية السورية عام ١٩٣٦ وأُعلن العفو عن المحكومين والمُبعدين، وأخذ ينشط في سبيل قضيتها.

وقد اتفقت معه اللجنة العربية العليا على عقد مؤتمر عربي عام لرفض قرار التقسيم، فبذل جهدًا كبيرًا حتى انعقد هذا المؤتمر في بلودان في أيلول [سنة] ١٩٣٧، وأثبت مرة أخرى كفاءته للإدارة وحزمه في العمل. ولما استؤنفت الثورة ثانية في فلسطين في الشهر نفسه أخذ ينشط في سبيلها ويجمع التبرعات لها، وكنتُ جئتُ إلى دمشق وأقمتُ فيها من أجل تأجيج الثورة، فتعاونتُ معه تعاونًا قويًا مع نشاطه في سبيل القضية الاستقلالية السورية في العهد الاستقلالي.

كما كان له في [عامي] ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩ جهد ونشاط بارزان في موضوع إسكندرون وقرار عصبة الأمم بإجراء استفتاء فيها، حيث عمل بدأب وعنف مع أهالي المنطقة وشبابها القومي العربي لاستمرارية تابعيتها وعدم فصلها أو ضمها إلى تركية.

ولما نقضت فرنسا المعاهدة السورية الاستقلالية التي عقدتها مع سوريا، وقام ذلك العهد نتيجة لها، نشط مع كثير من رجال وشباب الحركة الوطنية في سوريا في المناوأة والاحتجاج وإثارة المظاهرات، فاعتقلته السلطات الفرنسية مع عدد من رفاقه، وحاكمته وحكمت عليه

بالسجن مدة طويلة، قضى نحو سنة ونصف منها في سجن دمشق وحلب، ثم أُفرج عنه بعد استسلام فرنسا سنة ١٩٤٠، فعاد إلى نشاطه الوطني. ولما غزت القوات الإنكليزية والديغولية سوريا [سنة] ١٩٤١ غادر سوريا لاجئًا إلى تركيا، حيث أقام فيها إلى أواسط سنة ١٩٤٥، وكنا فيها نتبادل الأفكار والجهود، ونتعايش بصورة حميمة، وعاد في أواسط سنة ١٩٤٥.

وكان قد قام في هذه الأثناء عهد وطني استقلالي جديد برئاسة شكري القوتلي رئيسًا للجمهورية، وسعد الله الجابري رئيسًا للحكومة، فعاد إلى نشاطه، وصار وزيرًا للدفاع لفترة قصيرة، أو كُلِّف بذلك أو أراد ذلك، لم أعد أذكر الأمر يقينًا، ولكنه لم ينسجم معهما انسجامًا تامًّا، واستمر ينشط حرًّا بدأبه الصارم الدؤوب.

وفي عهد انقلاب سامي الحناوي ضد عهد حسني الزعيم الذي قام في سنة ١٩٤٩ بانقلاب ضد عهد القوتلي، نشطت الحركة في سبيل وحدة عراقية سورية، فاشترك في نشاطها، ولما قام الشيشكلي بانقلابه ضد انقلاب الحناوي سنة ١٩٥١ غادر دمشق مع أخيه عادل إلى بيروت، حيث أقاما فيها إلى أن قامت حكومة شرعية جديدة سنة ١٩٥٥ برئاسة شكري القوتلي، وكان أخوه قد مات قبل قليل، فعاد نبيه وأقام في دمشق. ونشط أثناء الوحدة السورية المصرية التي قامت سنة ١٩٥٨، ولكن أقل من المعتاد، وكان من أشد المتألمين من انفصام الوحدة الذي كان في أيلول [سنة] ١٩٦١، وكان له موقف قوي أو صرخة داوية ضد ما كان يجري في عهد الانفصال، تمثّلت في

برقية شديدة أرسلها إلى رئيس عهد الانفصال ناظم القدسي. ثم اعتكف في بيته، يزوره أصدقاؤه ويجتر معهم ما كان من نشاطه في مجال الحركة الوطنية والعربية، ثم مرض طويلًا نوعًا ما، وزرناه في خلال ذلك، ثم توفي سنة **١٩٧٢** رحمة الله عليه. ٢٠٦/١





نجيب الأرمنازي

كان شابًّا ذكيًّا نشيطًا، وقد ضمته الفتاة إليها ولكنه لم يندمج فيها قلبًا وقالبًا، وبعد الاحتلال ذهب إلى فرنسا وحصل على إجازة الحقوق من إحدى جامعاتها ثم على دكتوراه في الحقوق، وبرز في عهد الاستقلال الأول سنة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ وصار أمين السر العام لرئاسة الجمهورية، وظل كذلك في عهد الاستقلال الثاني [سنة] ١٩٤٣ وبعده فترة ما، ثم عين سفيرًا لسوريا في لندن والقاهرة فيما أذكر، ولم أعرف له نشاطًا في الحركة الوطنية وتنظيماتها في العشرينات والثلاثينات التي كان رجال الحركة الوطنية ينشطون وأدى نشاطهم إلى عهدي الاستقلال، وقد تقاعد في الخمسينات وانصرف لكتابة مذكرات وكتب أخرى في السياسة العربية، وألقى محاضرات في ذلك في معهد الدراسات العليا في القاهرة، وكان في الإجمال من الشخصيات السياسية والعلمية السورية اللامعة، وصار يلمح في كتاباته شيء من التعالم غير المستحب، وقد التقيت به أكثر من مرة حينما أقمت في دمشق سنة ١٩٣٧ وبعدها، وكان لقاؤنا لقاء أصدقاء ومودة ومعرفة سابقة، وآخر عهدي به اجتماع في قصر الجمهورية السورية سنة ١٩٥٨ حينما تمت الوحدة السورية المصرية، توفاه الله في الستينات، رحمة الله عليه. ١/ ٤٥٨





نوري السعيد

كان من مؤسسي حزب العهد مع عزيز علي الضابط المصري المشهور، ولقد كان شابًا ذكيًا طموحًا جم النشاط، وانضم إلى الثورة الهاشمية ومنحه الملك حسين لقب باشا ورتبة لواء، وكان من كبار أخصاء فيصل أثناء العهد الشامي، وكان ذا بروز وحيوية، وكان فيصل يعهد إليه بمهمات وسفارات سياسية، وكان يبذل جهده وذكاءه في سبيل حسن إنجاز ما يعهد إليه، وكانت أكثر هذه المهمات والسفارات مع السلطات الفرنسية، حتى لقد اتهم بأنه عميل لها ولم يكن هذا صحيحًا، ولكنه كان بأسلوبه اللبق يجعل ذاته مقبولًا، ولقد كان يجنح إلى المداورات والنشاط في الكواليس، ولم يكن يتورع عن الدس والتدليس حتى كان خصومه يسمونه «الألعبان»، ولقد كانت أخلاقه هذه وحسن انسجامه مع الفرنسيين مما جعل الفتاة تحذر منه فلم تضمه إليها في بدء العهد وقبل مجيئنا، ولم يقترح أحد أثناء وجودنا ضمه إليها.

ولقد كنا نلتقي به مرارًا في سياق لقاءاتنا مع فيصل وترددنا على قصره وفي اجتماعات أخرى أيضًا، فصار بيننا ألفة وصداقة وإن لم تكن قلبية وحميمة، ولقد التقينا به مرارًا بعد عهد دمشق، وأُولاها حينما ذهبنا إلى بغداد في آخر سنة **١٩٣٣** لحضور مأتم الملك فيصل، وكان يتولى وزارة الخارجية، وكان لقاؤنا حارًّا وكأصدقاء ليس بينهم

تكلف، ثم التقينا به مرارًا في فلسطين ومصر ودمشق وبيروت وبغداد في سياق رحلاته ورحلاتنا ونشاطنا المشترك في سبيل قضية فلسطين، التي كان له نشاط كبير في سبيلها في أثناء الإضراب الطويل وبعده في سني ١٩٣٦، ١٩٣٧، ١٩٣٨ وكانت لقاءاتنا حارة حميمة.

ولم نلقه بعد سنة ١٩٣٨ ولكننا كنا نتابع نشاط بعضنا ونتبادل السلامات من بعيد، ولقد ظل ملتصقًا بفيصل وصار من كبار مستشاريه وأوليائه حينما صار ملكًا للعراق سنة ١٩٢١ ثم ظل كذلك في زمن ابنه غازي، ثم في زمن ابن غازي فيصل الثاني ووصاية الأمير عبد الإله، وشغل جزءًا كبيرًا في تاريخ العراق السياسي وتعهد مرارًا الوزارة ورئاسة الوزارة، وكان رمزًا للموالاة للسياسة البريطانية على اعتباره أن التضامن مع بريطانيا هو الأفضل والأصلح للمصالح العراقية بخاصة والقضايا العربية بعامة، وكانت الأسرة الهاشمية منسجمة مع هذا الاعتبار كل الانسجام وكان هو رجلها الأقوى، ومن هنا كان دائمًا في الحكم وحينما لا يكون في الحكم لأسباب وظروف محلية كان يعد رجل القصر ومستشاره والناطق بلسانه، وكان لذلك ثم لصفاته وأخلاقه التي ذكرناها على خلاف ونشاز مع معظم رجالات العراق الذين شغلوا جزءًا كبيرًا ولعبوا أدوارًا مهمة في تاريخ العراق، مثل: ياسين الهاشمي وجميل المدفعي وعلي جودة الأيوبي ومزاحم الباچه جي ورشيد عالي الكيلاني وغيرهم.

وأذكر أني زرت بغداد في أيلول ١٩٣٧ لتشكيل لجنة دفاع عراقية عن فلسطين وفق قرار اتخذه مؤتمر عربي عقد في بلودان في ذلك

الشهر احتجاجًا على قرار إقامة دولة يهودية في فلسطين أعلنته الحكومة البريطانية حسب توصية لجنة التحقيق الملكية، وكان جميل المدفعي آنذاك رئيسًا للوزارة على أثر سقوط عهد انقلاب بكر [صدقي] وحكمة سليمان، وكنت أتردد عليه في بيته لما بيننا من صداقة حميمة، فكان يشكو لي من تحركات نوري السعيد، وطلب مني أن أذهب إليه وأعرض عليه أن يذهب سفيرًا للندن على أن يمنحه ما يريد من مخصصات وامتيازات رغبة في إبعاده عن بغداد للخلاص من تحركاته، وذهبت إليه فعلًا واستقبلني بحرارة وألفة، ونقلت إليه عرض جميل [المدفعي]، فضحك وقال: إنه باق في بغداد وهي مركز نشاطه، وأدرك أن جميلًا إنما يريد إبعاده.

ولقد نشط أثناء الحرب العالمية الثانية بسبيل تلك الفكرة، وقدم المذكرة التي عرفت بالمذكرة الزرقاء، لأنها جاءت ضمن وثائق نشرت في كتاب أزرق للحكومة البريطانية على ما أظن، وأدى نشاطه ونشاط الأمير عبد الإله ومصلحة الإنكليز معًا إلى قيام جامعة الدول العربية في سنة ١٩٤٤، وظل مع ذلك يسعى في سبيل ذلك الاتحاد الذي كان يطلق عليه اتحاد الهلال الخصيب المتحالف مع الإنكليز، وكان يعتقد هو وكثيرون من رجالات العرب أن هذا الاتحاد ـ حتى لو تم مبدئيًا تحت هيمنة الإنكليز ـ فإنه يكون منطلقًا لتطور اتحادي استقلالي عربي أجمع، وأنه ما دام العراق والأردن وفلسطين تحت تلك الهيمنة، فالأفضل أن تكون مجتمعة في نطاق واحد تشريعي واقتصادي وسياسي.

ولما قام حسني الزعيم بانقلابه ضد حكم شكري القوتلي في سوريا، سارع نوري ـ وكان وزيرًا لخارجية العراق ـ إلى القدوم إلى دمشق مهنئًا للزعيم مشجعًا على اندماج سوريا في اتحاد الهلال الخصيب، وكان شكري من المعارضين له ولدعوة سوريا الكبرى التي كان يدعو الأمير عبد الله إليها، وكان بين سوريا والقوتلي من جهة وبين العراق والأردن من جهة أخرى جفاء ومساجلات غير ودية بسبب ذلك، ولقد جاء في نفس اليوم الذي جاء فيه نوري إلى دمشق وفد من قِبَل الأمير عبد الله مهنئًا، حيث أثار هذا وذاك ظنًّا بل يقينًا لدى المراقبين ـ وكنا منهم حيث كنا في دمشق ـ بأن للإنكليز وللعراق وللأردن وبالتالي لنوري السعيد يدًا في الانقلاب، واستطاعت مصر والسعودية أن تجذب حسني الزعيم وتغريه بأن يجعل الانقلاب لحسابه على الأقل لا لحساب العراق والأردن، فقام سامي الحناوي وهو ضابط سوري كبير بانقلاب ضده، وحينئذ تحركت من جديد فكرة اتحاد الهلال الخصيب، واندمج فيها كثير من رجالات سوريا الوطنيين انطلاقًا من الاجتهاد الذي ذكرناه، حتى كادت تصل إلى نتيجة إيجابية لولا ما كان من تريث وتباطؤ في الخطوات اغتنمتها مصر والسعودية لإحباط وإثارة انقلاب جديد أطاح بعهد سامي الحناوي، وقد قتلته ثورة ٨ تموز [سنة] ١٩٥٨ في العراق غفر الله له.

وفي سنة ١٩٥٤ تقدمت الولايات المتحدة وبريطانيا من ورائها باقتراح لجمال عبد الناصر بأن يقوم حلف بين الدول العربية في الشرق الأوسط وبين الدول الغربية لملء الفراغ الدفاعي في هذا الشرق، ومواجهة أخطار الشيوعية والاتحاد السوفيتي إبان اشتداد

الحرب الباردة بين المعسكر الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة والمعسكر الشيوعي بقيادة الاتحاد السوفيتي، فطلب جمال أولًا حل المشاكل القائمة بين العرب والمعسكر الرأسمالي من احتلالات إنكليزية في مصر والسودان والعراق والأردن وليبيا والسواحل الشرقية والجنوبية لجزيرة العرب، ثم إزالة البلاء الأعظم الذي بليت به فلسطين، فصار معظم فلسطين تحت احتلال إسرائيل ربيبة هذا المعسكر وبتعضيده، وشرد معظم سكان الأراضي التي وقعت تحت هذا الاحتلال تشريدًا معيبًا مفجعًا، وقال لهم: إنه سيبدو سخيفًا أمام العرب والعالم وخائنًا إذا تحالف مع المعسكر الرأسمالي ضد خطر موهوم في حين أن خطر هذا المعسكر هو الراهن الجاثم عليهم بكل بلائه وشدته وآلامه، وأنه مستعد إذا ما حلت هذه المشاكل أن يتحالف مع المعسكر الرأسمالي، على أن يكون العرب وحدهم هم الذين يسدون الفراغ الدفاعي بمساعدته على تسليحهم، ولم يقبل منه موقفه فرفض العرض، فوجهوا العرض للعراق بقيادة الأمير عبد الإله الوصي ونوري السعيد رجل الحكم القوي الذي كان رئيسًا للوزارة، وقالوا لهم: إن جمال يتحداهم في زعامة الهاشمين للعرب، ووافق الوصي ونوري السعيد على الاقتراح، وحاول نوري إخضاع دول الجامعة العربية به عبر اجتماع لمجلس الجامعة انعقد للبحث في الأمر بدعوة من مصر والعراق، وكان نوري يمثل العراق فيه، ولكنه بقي منفردًا، لأن ممثلي الدول الأخرى تضامنت مع مصر في موقعها المنطقي، وحينئذ قرر الوصي ونوري السعيد الانفراد، فقام الحلف الذي عرف بحلف بغداد، والذي تألف من العراق وإيران وتركيا والباكستان

وبريطانيا، ومن ورائهم الولايات المتحدة مراقبة ونصف شريكة، وقام تشاد وتصارع وتهاتر وجفاء بين جبهة الرفض بقيادة مصر وجمال وتضامن السعودية وسوريا بنوع خاص، وبين عراق الوصي ونوري السعيد، واستطاعت هذه الجبهة تجميد الحلف، ولقد أوشك أن يشمل الأردن الهاشمي فكان الشعور العربي العام المضاد في الأردن سببًا في إحباط ذلك.

وحقد الوصي ونوري السعيد على مصر وجمال، وحتى وصل الأمر إلى تحريضهما لإيدن رئيس وزارة بريطانيا عليهما حينما أَمَّمَ جمال القناة، وكانا في سهرة معه حينما أذيع الخبر، فقالوا: يجب أن تضرب ضربة شديدة، كما أذيع وتواتر، وكان لذلك أثر ما في العدوان الإنكليزي الإفرنسي الإسرائيلي على مصر سنة ١٩٥٦ ولقد كان نوري وأولياؤه ينشرون أن لحلف بغداد فوائد كبيرة للعرب ولقضية فلسطين، فكتبت مقالًا في جريدة النصر السورية فنَّدتُ ذلك، وأثبتُّ من نصوص الحلف وما كان من مساجلات وحوار حوله في مجلس العموم البريطاني في زيف ذلك، واستهتاره بقضايا العرب وقضية فلسطين خاصة، وكان عنوان المقال: «مقارنة بين الربح والخسارة من حلف بغداد».

ولقد ظل التشاد بين جبهة الرفض وبين عراق الوصي ونوري السعيد، إلى أن تفجرت ثورة العراق في تموز [سنة] ١٩٥٨ التي قتل فيها الوصي والملك الصغير وبعض أفراد الأسرة الهاشمية، وحاول نوري الاختفاء والإفلات ولكن الثورة ظفرت به وألحقته بأصدقائه، غفر الله له. ١/ ٤١٠

٤٧

هاشم الأتاسي

كان كهلًا ناضجًا وقورًا متزنًا ذا معارف قانونية وإدارية وذا أخلاق مرضية وأفق واسع وأناة وروية، ويلمح المرء فيه الطيبة والصدق والصراحة، وكان وحدويًا استقلاليًّا صلبًا في وطنيته لا يوارب ولا يداجي، فكان بذلك يبعث في النفس له الاحترام والطمأنينة، وكان يمنحني عطفًا وثقة ويستشيرني في المواقف ويأخذ برأيي، مع ما كان من فارق السن بيني وبينه حيث كان يكبرني بنحو ١٥ سنة وأكثر، وقد تعاونت معه أثناء العهد الفيصلي في لجنة الدستور التي أنشأها المؤتمر لوضع دستور للملكة السورية المقبلة، حيث كان رئيسًا لها وكنت سكرتيرها، وقد اجتهدت جمعية الفتاة فضمته إليها، حيث كانت قررت توسيع نطاق عضويتها وضم عناصر صالحة إليها، وكنت سكرتيرًا لهيئتها المركزية، فكان ذلك من وسائل توثيق الصلة والصداقة بيننا، ولقد أهلته صفاته فاختير لرئاسة المؤتمر السوري في دورته الثالثة التي أعلن فيها الاستقلال، ثم لرئاسة الوزارة الاستقلالية الثانية في العهد الفيصلي، ثم للبروز في زمن الاحتلال الفرنسي في الحركة الوطنية السورية المطالبة بالاستقلال والحرية والوحدة، ثم لرئاسة الكتلة الوطنية والتي نجحت في نشاطها واستطاعت أن تجعل فرنسا تعقد معاهدة سنة ١٩٣٦ تعترف فيها باستقلال وسيادة سوريا، ثم

لرئاسة الجمهورية السورية مرة سنة ١٩٣٦ نتيجة لهذه المعاهدة إلى سنة ١٩٣٩، ومرة في سنة ١٩٥٤ مؤقتة.

ولقد جئت إلى دمشق زائرًا في سنة ١٩٣٢ و١٩٣٧ ثم مقيمًا سنة ١٩٣٧ وبعدها، فتجددت صداقتنا وصلاتنا، وكنت ألقى منه المحبة والرعاية وأكون أحيانًا موضع سره وأفكاره واستشارته في بعض الملمات في بعض الأحيان، وظلت صداقتنا وصلاتنا مستمرة على هذا النحو إلى أن توفاه الله سنة ١٩٦٣رحمة الله عليه، وكان آخر لقاءاتي به في دمشق سنة ١٩٥٩ حيث كان في بيت ابنه مريضًا مرض الشيخوخة، وكان قبل قد أقام في حمص بعد رئاسته للجمهورية الثانية فزرته وتبادلنا الود والدعاء. ١/ ٣٥٣





٤٨

ياسين الهاشمي

كان ضابطًا في الجيش العثماني أركان الحرب ووصل [إلى] رتبة عالية، وعرفت الهيئة المركزية للفتاة بأنه قومي استقلالي وحدوي جاد صلب الأخلاق فاتصلت به وضمته إلى عضوية الجمعية أثناء الحرب، وكان مركز عمله في دمشق حينما انسحب الأتراك فبقي فيها، ولما قام عهد فيصل تولى الشؤون العسكرية فيه بعنوان رئيس المجلس العسكري الثوري، وكان ذكيًّا ألمعيًّا سريع البديهة، ولقد سجلت انطباعاتي عن شخصيته في الجزء الأول من كتاب «حول الحركة العربية الحديثة» التي كتبت مسودته في سنة ١٩٤٣ في تركيا هكذا:

«لقد كان لياسين شخصية قوية جعلته في العهد الفيصلي محترمًا مرهوبًا، وكان من أركان الفتاة وعمدها، وكثيرًا ما كانت كلمته هي الفاصلة ورأيه هو الحاسم في ما كان يجري من مناقشات ويرسم من خطط، وأحسن وصف يمكن أن يوصف به أنه كان يفرض نفسه فرضًا، فيفتقد في غيابه، ويسبغ على الجلسة التي كان يشهدها خطورة وثقة، ويناط به الفصل في المهمات، ويرى فيما يبديه من رأي ويرسمه من خطة صواب وبعد نظر وقوة نفوذ، وكان حاسمًا في رأيه جديًّا في مظهره قليل الكلام، قليل المزاح، قليل الابتسام، بعيد الغور، يوحي لمخاطبه خطورة وراء مظهره الصامت الجاد وآرائه الحاسمة وغوره البعيد».

وقد تزاملنا في الهيئة المركزية للفتاة وتعاونًا تعاونًا صادقًا، وكانت ثقته فيَّ كبيرة، وكان يقدرني ويعجبه إحساني للتنظيم، وهو الذي اقترح أن أتولى سكرتارية الهيئة، وكنت صلة الوصل بين الهيئة وبينه في الشؤون المتعلقة بعمله الرسمي العسكري، حيث كانت الظروف تقتضي الاستعانة به في بعض الأعمال والحركات.

ولقد كانت فرنسا وبريطانيا تخشيانه لمقدرته العسكرية والتنظيمية، ولصلابة موقفه بالنسبة لسوريا والعراق معًا، حتى إن بريطانيا حينما اتفقت اتفاقها الخائن مع فرنسا على منحها حرية العمل ضد سوريا، واعتزمت سحب ما لها من فرقة عسكرية فيها في أوائل سنة **١٩٢٠** احتالت عليه ودعته إلى معسكرها في دمشق، وأرسلته مخفورًا إلى الدولة قبل سحب قوتها، حتى تحرم سورية منه في وقت اشتداد الأزمة من جراء انسحابها، وكان ذلك ما اتفقت عليه من فرنسا أو كان في الوقت نفسه بطلب من هذه ولقد أعادته بريطانيا إلى دمشق فيما بعد ـ نتيجة لإلحاح فيصل وما أحدثه عملها إزاءه من سخط شديد ـ مشترطة عليه وعلى فيصل ألا يتولى مركزًا عسكريًّا فعالًا، ولكن هذا لم يمنعه من المشاركة في المواقف حين تأزمها.

ولقد ظل في سوريا بعد مغادرة فيصل، ولم تتحرش به القوات الفرنسية المحتلة لأنه التزم بوعده فلم يكن منه موقف شديد ضد تحركاتها، ولما صار فيصل ملكًا للعراق استدعاه فكان من أقوى وأبرز رجالات الحكم في العراق، وظل محتفظًا بصلابته وحكمته، وكان أحيانًا يأتي إلى فلسطين فتتجدد صداقتنا معه، وقد تعاونا معه

وهو في العراق ونحن في فلسطين في نطاق عزيمة رجالات العرب على عقد مؤتمر عربي عام في بغداد، حيث كان هو عضوًا في لجنة تحضيرية عراقية، وكنت أنا عضوًا في اللجنة التحضيرية الرئيسية في فلسطين، وقد حالت الظروف وتدخل الإنكليز ثم موت فيصل دون انعقاده، والتقيت به في بغداد في أيلول [سنة] ١٩٣٣ حينما توفي الملك فيصل، وذهبت مع بعض الإخوان للاشتراك في موكب جنازته، وجددنا عهد الصداقة في الأيام القليلة التي قضيناها في بغداد، وكان شديد العطف على قضية فلسطين، وساعد في تسيير حملة فوزي القاوقجي في أواسط عام ١٩٣٦ وكان رئيسًا للوزارة، ثم كان انقلاب ضد حكومته باشره [بكر] صدقي العسكري بالتواطؤ مع حكمة سليمان وآخرين فغادر العراق إلى دمشق، ثم ذهب إلى بيروت وأقام فيها، وما عتم أن توفي في مطلع سنة ١٩٣٧ رحمة الله عليه وأتي بجثمانه فدفن في مقبرة صلاح الدين الأيوبي في دمشق تقديرًا له من الحكومة الوطنية الاستقلالية التي كانت برئاسة هاشم الأتاسي وشركاء جهاده: [شكري] القوتلي و[سعد الله] الجابري و[جميل] مردم بك، حيث كانوا أيضًا رفاق جهاد له مقدرين له مزاياه العظيمة، وقد خلد في تاريخ النشاط القومي السياسي، وفي أذهان من يعرفه، بل في الأوساط العربية جميعها اسمًا لامعًا مدويًا، ولا زال اسمه يذكر بالإعجاب والتقدير، وقد ذهبت من فلسطين مع نخبة من إخواني الاستقلاليين إلى دمشق للمشاركة في تشييع جنازته.

ولقد كان له نشاط وشخصية قوية نافذة في العراق يحسب حسابها كل الفئات بما فيهم الملك فيصل، سواء في ظروف كان فيها معارضًا أو ظروف ما كان يمارس فيها الوزارة ورئاسة الوزارة، ولم نر ضرورة إلى التوسع في ذلك. ١/ ٣٦٨

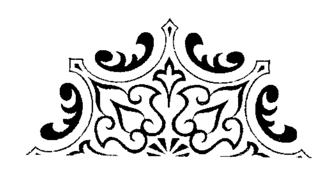


٤٩

يوسف أبي درة

قائد منطقة جنين، جاء إلى دمشق واجتمعت به، ومع ما يبدو عليه من ذكاء ونشاط فإن فيه شيئًا من العصبية والتسرع أيضًا، وفي كلامه اعتداد وإشعار بما يقوم به من واجب الجهاد، وبما كان لذلك من أثر في الثورة وقوتها، وحينما يتكلم عن إقطاع هو فيه الأمير الآمر الناهي. و«أبو العبد» وهذه كنيته من أوائل من دخل في ميدان الجهاد في ثورة سنة **١٩٣٧** حتى قبل أن يذهب الشيخ عطية وأبو كمال «عبد الرحيم الحاج محمد»، وكان له نشاط جهادي في ثورة سنة **١٩٣٦** أيضًا وهو في الأربعين من عمره وملتح، ويحب أن ينادى بالشيخ ومشيخته من النوع العامي، ولكنه مؤمن ومن الكتلة الجهادية القسامية على ما يظهر ولمحت فرقًا بينه وبين الزعامة المشيخية الثلاثية، (أبو إبراهيم الكبير وأبو إبراهيم الصغير وأبو علي) فهؤلاء أكثر دهاء واتزانًا. ومكث الشيخ يوسف بضعة أيام في دمشق يستريح ويتعالج، ثم عاد إلى ميدان الجهاد وكانت له مني رعاية وعناية. **٣/ ٧٩٣**

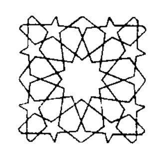




المُلْحَقُ الثَّانِي

تَعْرِيفٌ بِالمُؤَلِّفِ وَثَبَتٌ بِمُؤَلَّفَاتِهِ





تعريف بالمؤلف محمد عزة دروزة

ولد في نابلس عام ١٣٠٥هـ = ١٨٨٧م وتوفي في دمشق عام ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م.

كان محمد عزة دروزة أحد الذين واكبوا السياسة العربية منذ مطلع القرن العشرين، ولم يكن مراقبًا للأحداث أو شاهد عيان لتطوراتها فحسب، بل كان في خضم الحركة الوطنية في مواجهة الانتداب والصهيونية، لعب دورًا قياديًا ومحركًا في الأحداث، دون ضجة أو إثارة، وعمل على دعم الكفاح المسلح وتأييد الحركات الجهادية.

واتخذ نضاله شكلًا وحدويًّا تجاوز ظروف التجزئة والحدود المصطنعة، وشارك في تأسيس ونشاط الجمعيات والأحزاب الاستقلالية العربية الوحدوية النضالية في سوريا - جنوبها وشمالها - قبل سنة ١٩٢٠م وفي فلسطين بعد سنة ١٩٢٠م، وسيرته الذاتية لا تنفصل عن مسيرة الحركة الوطنية النضالية والاستقلالية والوحدوية.

وحياته في عمقها واتساعها وإشعاعها تكاد تكون ظاهرة فريدة، فقد عاش زهاء قرن من الزمان لا ينقطع عن الجهد والسعي والعطاء يناضل ويفكر ويكتب، فكان بذلك شاهد عصره أحداثًا ووقائع سياسية وفكرية وحضارية في الوطن العربي، كما ارتاد كل مجالات الفكر أديبًا وصحفيًّا وناقدًا ومترجمًا ومؤرخًا وعالم دين، فألف في القرآن والحديث، وفسّر القرآن الكريم، وعالج موضوعات اجتماعية، وكتب

في التاريخ العربي حديثه وقديمه بروح العالم المحقق المسؤول قوميًا، وأرَّخ للقضية الفلسطينية، وكتب في الرواية والمسرح والصحافة، وفي النقد والترجمة، وكان الالتزام الفكري والمنهجية العلمية من سماته البارزة، كما كان شديد الإيمان بدينه، كثير الاعتزاز بقوميته، ملتزمًا جانب الحق في إنسانية رحبة لا تعرف التعصب ولا الهوى.

وهو من الرواد القلائل في النهضة العربية الحديثة الذين أدركوا سر الترابط الأزلي بين الإسلام والعروبة لغة وفكرة وثقافة وإرثًا حضاريًا، «فعز العروبة من عز الإسلام، وعز الإسلام من عز العروبة». وما دام عز الإسلام وانتشاره تحت رايتهم ووحدتهم، فكلما كانوا أقوياء متحررين من العوائق كان ذلك خدمة للإسلام ونشره وقوته.

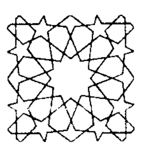
وقد دوّن كل ما شهد وشارك وتيسّر له الاطلاع عليه في مذكرات مفصلة ـ بأسلوب صادق متميز بعيد عن الانفعال والعبارات الإنشائية ـ تغطي حقبة قرن من الزمن. ومن واقع مشاركته القيادية الفاعلة الناشطة، إذ ظل عضوًا عاملًا مناضلًا بارزًا في أبرز التنظيمات والتجمعات السياسية والفكرية التي نشطت دفاعًا عن القومية ومقاومة الانتداب والاستيطان الصهيوني، عاملًا في صمت على أداء دوره الوطني، غير متطلع إلى جاه أو سلطة أو نفوذ، مركّزًا جهده واهتمامه حول الأهداف الوطنية والقومية، لم يبدله طول العمر رغم تراجع الصحة أو تبدل الأحوال وتقبلها، ولم يسبق لأيٍّ من رجال الرعيل الأول وقيادييه الذين شاركوا في المسيرة، أن دوّنوا أحداثها بهذا الشمول.

ومذكراته تكشف جوانب خفية من القضية الفلسطينية بخاصة والقضايا العربية بعامة، تهم جميع الدارسين مطالعتها والاستفادة منها، وهي تغطي حقبة حياته (٩٧ عامًا) في خضم العمل الوطني النضالي مشاركة وفعالية، وإسهامًا في صنعه وصيانته.

وهي تشتمل على ملاحظاته اليومية على الأحداث والشؤون الشخصية والعائلية والحزبية والوظيفية والمحلية والعالمية الهامة، وإن الطبيعة الحميمة لهذه المذكرات إلى جانب المركز المتميز لكاتبها من واقع المسؤولية الوطنية، تجعلها من أندر المصادر وأوثقها، إذ يتعذر الاشتباه بمرامي مؤلف المذكرات واتهامه بتمجيد شخصه أو الحيد عن الموضوعية والإنصاف.

ولو جال القارئ على محاصيل بيدر عالِمنا الكبير لتحقق بنفسه من عمق وشمولية وأهمية وموضوعية الإرث الأدبي والسياسي والفكري والديني الذي أغنى به مكتبتنا العربية بشكل خاص، والعالمية بشكل عام، خاصة فيما يتعلق بهذه المرحلة الهامة من تاريخ أمتنا والتي أُرِيدَ لها أن تُطمَس عن عمد أو غير عمد ليتحقق حلم الغزو وطموحاته.





ثبت بمؤلفات محمد عزة دروزة

أولاً: الكتب الإسلامية:

١ ـ عصر النبي ﷺ وبيئته قبل البعثة ـ صور مقتبسة من القرآن الكريم.

الطبعة الأولى، مكتبة ومطبعة دار اليقظة، دمشق ١٣٦٥هـ = ١٩٤٦م.

الطبعة الثانية (منقحة)، مكتبة ومطبعة دار اليقظة، دمشق ١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م.

٢ ـ سيرة الرسول ﷺ ـ صور مقتبسة من القرآن الكريم.

الطبعة الأولى (في جزء واحد) مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م.

الطبعة الثانية (في جزأين) المكتب التجاري، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٨٤هـ = ١٩٦٥م.

الطبعة الثالثة (في جزأين) على نفقة سمو أمير قطر بمناسبة انعقاد المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية، ١٤٠٠هـ.

٣ ـ القرآن والمرأة.

الطبعة الأولى، المطبعة العصرية، صيدا، ١٩٥١م.

٤ ـ القرآن والضمان الاجتماعي.

الطبعة الأولى، المطبعة العصرية، صيدا، ١٩٥١م.

٥ ـ القرآن واليهود.

الطبعة الأولى بإشراف مصطفى السباعي، صاحب مجلة حضارة الإسلام، دمشق، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٩م.

٦ ـ القرآن المجيد ـ مقدمة للتفسير الحديث

الطبعة الأولى، المطبعة العصرية، صيدا، ١٩٥٢م.

الطبعة الثانية، المطبعة العصرية، صيدا.

٧ ـ التفسير الحديث ـ حسب النزول ويقع في ١٢ جزءًا.

الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، عيسى البابي الحلبي، ١٣٨١هـ = ١٩٦١م، ١٩٦٢م، ١٩٦٣م.

٨ ـ الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة.

الطبعة الأولى (في جزء واحد) دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٧٦هـ = ١٩٥٦م.

الطبعة الثانية (في جزأين) دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٧، ١٩٦٩م.

الطبعة الثالثة (في جزأين) المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٨٦هـ = ١٩٦٦م.

٩ ـ المرأة في القرآن والسنة.

الطبعة الأولى، المطبعة العصرية، صيدا، ١٣٨٨هـ = ١٩٦٧م.

الطبعة الثانية، المطبعة العصرية، صيدا، ١٣٩٧هـ = ١٩٧٦م.

الطبعة الثالثة (منقحة)، المطبعة العصرية، صيدا، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

الطبعة الرابعة، دار الجليل، دمشق، ١٩٨٥م.

١٠ ـ الإسلام والاشتراكية.

الطبعة الأولى، المطبعة العصرية، صيدا، ١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م.

١١ ـ القرآن والمبشرون.

الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م.

الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي، دمشق.

الطبعة الثالثة، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.

١٢ ـ القرآن والملحدون.

الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م.

الطبعة الثانية، دار قتيبة، دمشق، ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م.

١٣ ـ الجهاد في سبيل الله في القرآن والحديث.

الطبعة الأولى، دار اليقظة، دمشق، ١٣٩٥هـ = ١٩٧٠م.

الطبعة الثانية، المكتبة والمطبعة العصرية، بيروت ـ صيدا، ١٩٨٨م.

١٤ ـ اليهود في القرآن الكريم.

الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م.

الطبعة الثانية، دار الجليل، ١٩٨٣م.

١٥ ـ القواعد القرآنية والنبوية في تنظيم الصلات بين المسلمين وغير المسلمين.

الطبعة الأولى، دار الجليل، ١٩٨٢م.

ثانيًا: الكتب الفلسطينية:

١٦ ـ كتاب مفتوح إلى اللجنة المالية الإنكليزية.

مطبعة دار الأيتام الإسلامية، القدس، ١٣٤٩هـ = ١٩٣١م.

١٧ ـ القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها.

الطبعة الأولى، (في جزأين) المطبعة العصرية، صيدا، ١٩٦١م.

الطبعة الثانية، (في جزأين) المطبعة العصرية، صيدا.

الطبعة الثالثة، (في جزأين) دار الجاحظ، دمشق، ١٩٨٤م.

(على نفقة منظمة التحرير الفلسطينية ـ دائرة الإعلام والثقافة).

١٨ ـ مأساة فلسطين.

الطبعة الأولى، دار اليقظة العربية، دمشق، ١٣٧٩هـ = ١٩٥٩م.

١٩ ـ فلسطين وجهاد الفلسطينيين.

نشرته الهيئة العربية العليا، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٧٩هـ = ١٩٥٩م.

٢٠ ـ قضية الغزو الصهيوني.

الطبعة الأولى، ملحق لمجلة الوعي الإسلامي، الكويت، ١٩٧٠م.

٢١ ـ في سبيل قضية فلسطين والوحدة العربية ومن وحي النكبة.

الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٧٣م.

٢٢ ـ عبرة من تاريخ فلسطين.

الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٧٨م.

٢٣ ـ صفحات مغلوطة ومهملة من تاريخ القضية الفلسطينية وصلتها بالحركة القومية العربية.

المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٧٨م.

٢٤ ـ العدوان الإسرائيلي القديم والعدوان الصهيوني الحديث ومراحل الصراع.

في جزأين: الأول: الطبعة الأولى، دار الكلمة، بيروت، ١٩٧٩م. الثاني: الطبعة الأولى، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨٠م.

٢٥ ـ سبعة وتسعون عامًا في الحياة (سيرة ذاتية) مذكرات وتسجيلات.

الجزء الأول: مئة عام فلسطينية، ١٨٨٧ ـ ١٩١٨م، المركز الجغرافي الفلسطيني، دمشق، الجمعية الفلسطينية للتاريخ والآثار، ١٩٨٤م.

الجزء الثاني: ١٩١٨ ـ ١٩٢٠م، مطبعة ص. ق، دمشق ١٩٨٦م.

ثالثًا: الكتب التاريخية:

٢٦ ـ مختصر تاريخ العرب والإسلام.

الجزء الأول والثاني: الطبعة الأولى والثانية والثالثة، المطبعة السلفية، مصر، ١٩٢٣ ـ ١٩٢٥م.

٢٧ ـ دروس التاريخ القديم (خاص بالمبتدئين).

الطبعة الأولى، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٥٠هـ = ١٩٣٢م.

الطبعة الثانية، مطبعة دار الأيتام الإسلامية، القدس، ١٩٣٦م.

الطبعة الثالثة، مطبعة دار الأيتام الإسلامية، القدس، ١٩٣٦م.

٢٨ ـ دروس التاريخ المتوسط والحديث (للمدارس الابتدائية).

الطبعة الأولى، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٩٣٨م.

الطبعة الثانية، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٥٧م.

٢٩ ـ دروس التاريخ العربي (من أقدم الأزمنة إلى الآن).

الطبعة الأولى، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٨هـ.

الطبعة الثانية، ١٣٥٠هـ.

الطبعة الثالثة، المكتبة الوطنية العربية، حيفا، لصاحبها محمود يوسف الصفدي وشركاه، مطبعة الصداقة، دمشق، ١٣٥٢هـ.

طبعات متعددة، دار الأيتام الإسلامية، القدس.

الطبعة العاشرة، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٣٩م.

٣٠ ـ تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار من أقدم الأزمنة (في ثمانية أجزاء).

الطبعة الأولى، المطبعة العصرية، صيدا، ١٩٥٨م.

الطبعة الثانية، المطبعة العصرية، صيدا، ١٩٦٤م.

٣١ ـ العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي.

الطبعة الأولى (في ثلاثة أجزاء)، دار اليقظة العربية، دمشق، ١٩٦٠م، ١٩٦١م.

الطبعة الثانية (في ثلاثة أجزاء فصلت ثمانية أجزاء) المكتبة العصرية، صيدا، ١٤٠١هـ ١٩٨١م. (الجزء التاسع) المكتبة العصرية، صيدا، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

٣٢ ـ عروبة مصر قبل الإسلام وبعده.

الطبعة الأولى، دار الكتب القومية، القاهرة، ١٩٦١م، عدد ممتاز رقم ٨١ و٨٩.

الطبعة الثانية، المطبعة العصرية، صيدا، ١٩٦٣م.

رابعًا: الكتب القومية:

٣٣ ـ حول الحركة العربية الحديثة (في ستة أجزاء).

الطبعة الأولى، المطبعة العصرية، صيدا، ١٩٥١ ـ ١٩٥٢م.

الطبعة الثانية، المطبعة العصرية، صيدا، (الأجزاء ٤، ٥، ٦)، ١٩٦١م.

٣٤ ـ مشاكل العالم العربي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

نال جائزة من الجامعة العربية.

الطبعة الأولى، دار اليقظة العربية، دمشق، ١٩٥٢م.

٣٥ ـ الوحدة العربية.

نال الجائزة التشجيعية من المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في الجمهورية العربية المتحدة، ١٩٦١م.

الطبعة الأولى، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م.

٣٦ ـ نشأة الحركة العربية الحديثة.

(الجزء الأول من سلسلة حول الحركة العربية الحديثة منقحًا ومفصلًا).

الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٧١م.

٣٧ ـ الوحدة العربية (مختصر).

خامسًا: مواضيع مختلفة:

٣٨ ـ وفود النعمان على كسرى أنوشروان ـ رواية تمثيلية.

الطبعة الأولى، مطبعة صبرا، بيروت، ١٣٣١هـ = ١٩١١م.

٣٩ ـ السمسار وصاحب الأرض ـ رواية تمثيلية، ١٩١٣م، مفقودة.

٤٠ ـ عبد الرحمن الداخل ـ رواية تمثيلية، ١٩٢٣م، مفقودة.

٤١ ـ آخر ملوك العرب في الأندلس ـ رواية تمثيلية، ١٩٢٥م، مفقودة.

٤٢ ـ دروس في فن التربية (القسم النظري).

تأليف جبرائيل كمبايره GABRIAL COMPAYRE، مترجم عن الإفرنسية، ١٩١٨م، نشر ملحقًا بمجلة التربية والتعليم في بغداد، ١٩٢٨، ومجمّع في كتاب.

٤٣ ـ تركيا الحديثة.

الطبعة الأولى، مطبعة الكشاف، بيروت، ١٣٦٥هـ = ١٩٤٦م.

٤٤ ـ بواعث الحرب العالمية الأولى في الشرق الأدنى.

تأليف جان بيشون (بالإفرنسية)، ترجمه للتركية: حسين جاهد يالشين، معرّب عن التركية.

الطبعة الأولى، مطبعة الكشاف، بيروت، ١٩٤٦م.

٤٥ ـ تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم.

الطبعة الأولى، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، مصر، ١٣٧٧هـ = ١٩٥٨م.

الطبعة الثانية، المكتبة العصرية، صيدا، ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م.

طبعة شعبية، الدار القومية للطباعة والنشر، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، كتاب «اخترنا لك» رقم ٨٣، ٨٥، ٨٧، ١٩٦٠ ـ ١٩٦١م.

٤٦ ـ الجذور القديمة لأحداث بني إسرائيل واليهود وسلوكهم وأخلاقهم.

الطبعة الأولى، مكتبة أطلس، دمشق، ١٣٨٨هـ = ١٩٦٩م.

سادسًا: غير المطبوعة:

٤٧ ـ القواعد الإسلامية الدستورية في شؤون الحياة.

٤٨ ـ مجموعة مقالات إسلامية نشرت في مجلات إسلامية في الكويت وعمّان ودمشق بعد عام ١٩٦٥م.

٤٩ ـ دولة الأثينيين لأرسطو.

مترجم عن التركية بإذن من مترجمها الأستاذ باي بورد، مطبعة المعارف، أنقرة، **١٩٤٣**م.

٥٠ ـ رواية روفائيل، لامارتين، مترجمة عن الإفرنسية، **١٩١٨**م.

٥١ ـ محاضرة «التقليد» ألقيت في نادي جمعية الشبان المسلمين، **١٩٢٨**م.

٥٢ ـ محاضرات أدبية اجتماعية تاريخية تربوية، ألقيت على طلاب مدرسة النجاح الوطنية، نابلس.

٥٣ ـ مقالات صحفية في جريدة «الحقيقة» بيروت، لصاحبها كمال عباس، **١٩٠٨ ـ ١٩١١** م.

المُلْحَقُ الثَّالِثُ

صُوَرٌ تِذْكَارِيَّةٌ





في سجن القلعة بدمشق ١٩٣٩/١٩٤٠م
الصف الأمامي من اليمين : مهدي مرتضى – عزة دروزة – سيف الدين المأمون – محمود البيروتي





في سجن القلعة بدمشق ١٩٣٩/١٩٤٠م

الصف الأمامي من اليمين : مهدي مرتضى - عزة دروزة - سيف الدين المأمون - محمود البيروتي



«ما دام أنّ المرء لا يستطيع أن يُكَيّفَ حياته وفق رغباته دائمًا، فمن المعقول أن يُكَيّفَهَا وفق مجراها، وأن ينظر إلى الأمور بنظر فيه سعة أُفُق وفلسفة وتحليل، وحينئذٍ يهون عليه ما قد يكون صعبًا، وتنبعث فيه طمأنينة، حتى في الظروف التي تستدعي القلق.

وهذه هي فلسفتي في الحياة، وقد ساعدتني على السجن، وصرت ألقى فيما شغلتُ به نفسي لذة، حتى لكأني أحيانًا كنتُ أنسى نفسي وسجني».

محمد عزة دروزة


ISBN 978-9933-496-26-5
9 789933 496265